





النبّاشون

سوسن جميل حسن



دار الآداب

سوسن جميل حسن



النبّاشــــون

رواية

دار الآداب ـ بيروت

النبّاشون

النبّاشون

سوسن جميل حسن/ روائيّة سوريّة

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-246-7

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
rana.adab@hotmail.com
Website: www.daraladab.com
Facebook: Dar Al Adab

ـ ١ ـ

«لا ترمِ الأوساخ خارج الحاوية تحت طائلة المساءلة القانونيّة».

عبارة مكتوبة بالأبيض الوسخ، على جانب من جوانب الحاوية لم تغطّه بعدُ أكوام الأكياس التي تفيض عنها، أو غالبًا لا تدخلها، إنّما تُرمى عن بعد بخفّة أو استهتار، أو برغبة التسديد من بعيد، ولا سحابة الذباب المتماوجة فوقها. تلامحت له تلك الكتابة من بعيد وهو يتقدّم، يلحقه حماره المُصاب بقائمته الخلفيّة اليمنى، وقد أمسك بالحبل المعقود حول رقبته.

كان جمعة الدشّاش يعرف جيّدًا كلّ الحاويات، من حيث موقعها، ومحتوياتها، فقد حفظ الشوارع والأزقّة وما يتميّز به ساكنوها من صفات مشتركة، من خلال النفايات التي تتراكم في الحاويات التابعة لها، والطريقة التي يُلقون بها زبالتهم. مشواره ابتدأ مع أوّل مرّة مضى فيها مع والده إلى الشغل ولمّا يبلغ السادسة من عمره. كان والده يصطحبه أيّام العطل، يوقظه باكرًا وهو ينعم بغفوة الصباح، عندما يكون سعيدًا وهو يحلم أنّه لن يضطرّ إلى

الاستيقاظ باكرًا طالما أنّ اليوم عطلة، مع أنّه كان يحبّ الذهاب إلى المدرسة، لكنّ أباه لم يكتفِ بأيّام العطل، بل كان أحيانًا يغيّبه عن المدرسة بادّعاء مرضه من أجل اصطحابه إلى الشغل. كان هذا يحصل في مواسم الازدهار التي كان والده يعرفها بالحدس، أو يتوقّعها بطرقه الخاصّة التي علّمته إيّاها التجربة، ويريد أن يعلّمها إلى جمعة الذي سيرث العمل عنه، لكنّ هذه الأمور لا يمكن شرحها، لذلك أصرّ على مرافقته إيّاه منذ ذلك العمر. وراح المشوار اليومي يأخذ منحاه الدائري المتطابق. لولا المفاجآت التي تحصل أحيانًا، تحرّض أحلامه من جديد، وتجعله ينسى معاناته اليوميّة، التي طالما قرّر وهو يغالب النوم في بعض الليالي أن يتخلّص منها، ليستيقظ صباحًا ويكرّر الأعمال نفسها، قبل أن ينطلق في رحلته عينها، لولا هذه المفاجآت، ربّما كان مصيره تقرّر بطريقة أخرى.

كان جمعة ينحدر في شارع الجمهوريّة، يعرج من رجله اليسرى المُصابة بالضعف نتيجة الضمور العضلي والقِصَر، بسبب إصابة ألمّت به أثناء الولادة، وتركت لديه هذه العاهة التي سترافقه طيلة حياته، إذ ليس من المأمول أن يستطيع دفع تكاليف عمليّة تطويل لساقه في ظلّ الظروف التي يعيشها، والتي تمرّ بها البلاد. صحيح أنّ الزبالة زادت كمّيّاتها كثيرًا، لكنّ النفايات أو الفضلات التي يرمونها باتت رديئة قياسًا بالماضي. كان جمعة يحدّث حماره حول هذا الهمّ، عندما يمدّ عصاه المعدنيّة التي يفكّها عن خاصرة الحمار، وينبش بها الأكياس، أو يستخرج الأدوات المرميّة من بين ركام التلال التي تفوح منها روائح كريهة كلّما نبشها: يلعن أبو الغشّ والغشّاشين، العمى ما عاد في بالدنيا كرسي مكسورة من

جهة واحدة فقط، ولا سطل مرميّ يمكن الاستفادة منه، يا عيني! كلّه رقيق ومهترئ، ما إن تنهزه بالعصا حتى ينكسر، شايف ولك أبو طافش، هذا البلاستيك يطبخونه كذا مرّة ويبيعوننا إيّاه، هل تذكر لمّا رحنا مع خليل إلى معمل البلاستيك الذي يشتغل فيه؟ شفت كيف كانت الأرض حوله مفروشة بقطع البلاستيك على مساحة كبيرة، لا ينبت فيها زرع ولا شيء؟ حتى حردون واحد ينطوط بين هذه القطع لم أرَ، كأنّ الحياة انعدمت حوله. شفت بعينك، أم كنت مشغولاً يومها؟ كانت عينك تلعب هنا وهناك على الحمير حول المعمل؟ حقّك يا أبو طافش، من زمان ما قرّبت حمارة، أعرف أنّ أبي مشغول عنك، وليس لديه وقت للاهتمام بك، ولا الزلمة الذي اشتراك منه أيضًا، أصلاً ذاك لم يكن مصدّقًا أنّ أحدًا يمكن أن يشتريك لأنّك أعرج، ولو كان مع أبي ثمن حمار معافى ما كان اشتراك. لكن وينك؟ أنت عندي غالٍ، لا أفرّط بك.

منذ ما يقارب الثلاثين عامًا، تعثّرت ولادة جمعة بسبب وضعه المخالف في رحم أمّه، فقد مكث الشهور الأخيرة معترضًا في رحمها من دون أن ينقلب أو يدور ليأخذ الوضع الشائع الذي تأخذه الأجنّة في الأرحام، بالرّغم من كثرة حركته وركله الدائم لبطنها قبل أن توشك على حتفها أثناء ولادته. لذلك تحقّق خروجه إلى العالم عن طريق قفاه، أو مقعده، ولم تستطع الداية التي سهرت الليل بطوله، ونصف النهار التالي، أن تفعل شيئًا أمام ذاك القادم إلى العالم بمؤخّرته. عندما يئست من إمكانيّة إنهاء الولادة بشكل سليم، بعد أن وضعت كلّ خبراتها السابقة وما تعلّمته ممّا مرّ عليها من ولادات متعثّرة، قامت بسحبه بخشونة كانت ضروريّة للحفاظ

على حياة الأمّ، بعد أن ازرقّت تلك الأخرى، وتعرّقت وشحب لونها، حتى كادت أن تفارق الحياة، فكانت النتيجة أن تلقّفت بين يديها وليدًا كجروٍ صغير، يغطّي وجهه قناعٌ قاتم، بفخذٍ يسرى تتدلّى كالنوّاس عندما أعادته إلى الوضع الرأسي، بعد أن كانت قد رفعته من قدميه وتركته يتدلّى برأسه إلى الأسفل وهي تضربه ضربات خفيفة على ظهره، ليفرغ السوائل التي ابتلعها أثناء تلك الولادة الطويلة، ويصرخ ساحبًا الهواء إلى رئتيه، فيدخل بعدها سجلّ الأحياء على هذا الكوكب.

كانت أمّه تحكي للنسوة عندما يجتمعن في النهار أمام البيوت التي لم تكن أكثر من مأوًى للنوم أو اتّقاء البرد والأمطار، حيث يخلو الحيّ من الرجال والأطفال في عمر الشغل، حكاية ولادته. كانت النهارات طويلة، والليالي التي تبدأ بمساءاتها الباكرة أطول، وكنَّ يضعن قدورهنّ على النار. كانت القدور ذات القواعد السوداء من بوابير الكاز، تغلي في الوقت نفسه، والمواقد تشخر تحتها، بينما تكون النسوة مجتمعات أمام عتبات البيوت، يعلكن الحكايات نفسها كلّ يوم، واللواتي ما زلن في ذاكرة جمعة بأثوابهنّ المتشابهة المشجّرة بألوان فاقعة على أرضيّات داكنة، تلك المصنوعة من نسيج له ملمس المخمل، لكنّه يلمع بانكسار الضوء عليه لمعانًا مبتذلاً لم يكن يروق لجمعة وهو الصغير في تلك الفترة. كان يشمّ رائحة خاصّة تفوح من تلك الأثواب، ممزوجة بروائح البصل والثوم، وزفرة القدور، مختلطة مع روائح أجسادهنّ المتعرّقة باستمرار، يخفين شعورهنّ تحت ملاءات مربوطة بإحكام على الشعور الملبّدة.

مرّات عديدة كان جمعة قد سمع حكايته حتى حُفرت في

ذاكرته: الداية أمّ عارف الخبيرة بالأولاد والولادات، قالت لها وهي تغتسل بعرقها بعد نزول هذا الملعون الذي كاد أن يقتلها: كان بنتًا أوّل ما تشكّل في بطنك، إنّما بسبب حسناتك الكثيرة صيّره الربّ ذكرًا قبل أن يحين موعد ولادته. الله العارف ما في الأرحام تلطّف بحالك، والدليل ملموس أمام أعين الجميع: شوفي هذا البرقع الذي يغطّي وجهه، الله سبحانه كان بودّه أن يرزقك بالبنت، لكن الحمد لله على كرمه، غيّر رأيه ورزقك بالصبي، هذا البرقع دليل خير يا أمّ جمعة، شايفة هذا الولد؟ رح يكون له شأن كبير لمّا يكبر. إذا الله عيّشنا تذكّريني وقولي أمّ عارف قالت.

كانت تنادى بأمّ جمعة، قبل مجيء جمعة، فقد حبلت مرّات عديدة منذ زواجها وهي في الرابعة عشرة، إنّما ما سلم لها من الولدان، ولم يموتوا في بطنها، أو تطرحهم علقاتٍ حمراء صغيرة، كان ثلاث إناث قبل جمعة.

شارع الجمهوريّة من الشوارع الطويلة في اللاذقيّة، ينفلت من دوّار هارون منحدرًا باتّجاه الجزء الشمالي من المدينة، لينتهي بتفرّع الطرق التي تؤدّي إلى المدينة الشاطئيّة السياحيّة، والمصايف الجبليّة التابعة لمنطقة كسب، تتناثر على هذه الطريق مطاعم عديدة وصالات أفراح، لم يكن جمعة يصل مع حماره إليها.

أصعب مرحلة في ارتياده لهذا الشارع كانت في بدايته، هبوطًا، أم صعودًا، إذ لا بدّ له من أن يبذل جهدًا خاصًّا ودراية كافية، عن طريق خبرته التجريبيّة بوضعيّات توازنه وحماره، فهما يعانيان العرج في اتّجاهين متعاكسين. كان جمعة يميل بجسده نحو اليسار متّكئًا بخفّة على ساقه الضعيفة، كأنّه يلامس الأرض معتذرًا

منها عن وطئه لها، بينما يهوي بدن حماره قليلاً كلّما تقدّم خطوة بقائمته الأماميّة اليسرى، لتليها بعد ذلك قائمته الخلفيّة اليمنى التي لا تستطيع أن تشيل ثقله مع الأثقال الأخرى المحمولة على ظهره، فيبدو الاثنان كأنّما يؤدّيان رقصتهما الخاصّة بخفّة وبراعة على طول الطريق. وكان شعر جمعة البنّي متروكًا على كتفيه، يخفق مع خطواته، أمّا ذيل حماره فعلى العكس، يغور تحت عجيزته وينفلت خارجها إذا كانا ينزلان الطريق. ولعلّ أكثر ما كان يزعجهما في هذا المشوار هو اضطرارهما للسير على الإسفلت، محاذرَيْن السيّارات المسرعة، فقد كان الشارع حافلاً بمكاتب بيع السيّارات التي تستولي على الأرصفة، عدا إشغالها لجزء من عرض الطريق بسيّارات أخرى تصطفّ أمامها. كان جمعة يمشي متلفّتًا للخلف بين حين وآخر، متفقّدًا حماره، ومعاينًا الشارع بعينين مضمومتين تتّقدان ببريق خاصّ، فتبدوان كنجمين يومضان في سماء وجهه ببشرته البنّيّة كأنّما تفوح منها رائحة بنّ محمّص، يضغط قليلاً بشفتيه على لفافة تبغ متروكة تحترق وحدها، بينما تنفلت منها سحابة بيضاء بين زفرة وأخرى.

في ذلك الضحى الكابي كانا في بداية هبوطهما في شارع الجمهوريّة. التفت جمعة إلى حماره الذي يسير خلفه متلكّئًا، فشعر بحبّ تجاه مسالمته. توقّف لحظة ومسّد رقبته واعدًا إيّاه باستراحة تليق به: لا تخف أبو طافش، وحياة هاتين العينين بعد شوي رح خلّيك تأكل أطيب أكل تحت أحلى شجرة، حتى لو اضطررت إلى تغيير طريقنا، الله لا يعطيهم العافية، أولاد الحرام لا يتركون شجرة مثل العالم والناس إلّا ويقطعونها، أنت ترى ما أراه يا أبو طافش؟ أنا أتمنّى أن أعرف ما الذي يزعجهم في هذا الشجر مع أنّه مليء

بالمنفعة. صحيح أنّي ما تابعت تعليمي، ليس لأنّي لا أحبّ العلم، والله أنا أحبُّه كثيرًا، وأنت أكثر واحد يعرف كم شقيت حتى تدبّرت كتب الصفّ التاسع، ودرست وحدي بلا مدرسة، وبلا أساتذة حتى أخذت الشهادة، صحيح ما نجحت من أوّل سنة، لكن نجحت ثاني سنة، من دون أن يعرف أبي، لأنّه كان يقول إنّ الواحد كلّ ما بكّر بالشغل، كلّ ما كان أحسن. أبي ما كان يؤمن بالعلم يا صاحبي، أصلاً لمّا جئت أخبرُه أنّي نجحت بالتاسع، فتح عينيه وبحلق بي، كأنّي ارتكبت جريمة، وبدلاً من أن يبارك لي، صرخ في وجهي وهدّدني: رايح تتلهّى عن شغلك بأكل الهوا هذا؟ إن شاء الله تعيدها يا ولد! ساعتها رح تشوف الذي ما شفته في حياتك. حظّي هكذا.

أذكر كيف كانوا يعملون لنا احتفالاً بالمدرسة في عيد الشجرة، وكانوا يجعلوننا نكتب على دفاترنا: ازرع ولا تقطع، يعني فقط الحكومة يحق لها أن تقطع ولا أحد يستطيع أن يقول لها لا. تعرف؟ أنا أتمنّى أن أنزل بهم ضربًا وتكسير أيدٍ، لمّا أشوفهم ماسكين المنشار وطالعين على السلالم المحمولة على سيّارات الحكومة، ونازلين تقطيعًا بهذا الشجر، أشعر أنّ قلبي هو الذي يتقطّع، أولاد الكلب هؤلاء، لو أحد يمكّنني منهم. ألا يكفي ما يحترق من الغابات كلّ عام؟ أنت شايف كيف نسمع دائمًا أصوات سيّارات الإطفائيّة أيّام الصيف، طالعة صوب كسب والفرلق، وكلّ أماكن الغابات؟ بلادنا حلوة ولك أبو طافش، لماذا يعتدون عليها؟ والله أنا أخاف أن تصل هذه المناشير التي يقطعون أشجار الشوارع والحارات بها. أخاف أن تصل إلى الغابة الصغيرة التي تقع فيها الخرابة، هناك يا أبو طافش حلمي من زمان، تصوّرهم يقطعون

تلك الأشجار، ما الذي سيحلّ بي؟ الله يجيرنا يا أبو طافش.

وكان الحمار يهبط خلفه بقوائمه النحيلة، صامتًا غير آبه بهموم جمعة، يميل على جنبه الأيمن، يلمع جلده بلونه الكمّوني تحت أشعّة الشمس، بوبره القصير مثلما لو كان يرتدي جلدًا من المخمل، تبرز على جانبيه بعض من زوايا أضلاعه أمام حافّة الخرج الأماميّة. إنّما كان بارعًا بالحفاظ على المسافة بينه وبين صاحبه، بهدوء تامّ، إنْ أسرع يسرع خلفه، وإنْ تباطأ يتباطأ معه، سارحًا بتأمّلاته الخاصّة، وجمعة يُكبر فيه هذا التفهّم والإصغاء من دون أيّ اعتراض، حتى إنّه قليلاً ما كان يحرن، إلّا في بعض الفترات التي تداهمه فيها غريزته، فتتغيّر أطواره، التي لم يكن جمعة يفهمها في البداية، وإنّما عرفها لاحقًا، فراح يطوف على الرجال الذين يمتلكون الحمير، من أجل أن يقبل واحد من بينهم بأن يقدّم حمارته لحمار جمعة كي يسافدها. كلّهم يعرفون أنّ الحمارة ستتعب بسبب ضعف قائمته الخلفيّة التي ستعيقه في اعتلائها، إنّما لم يوفّر جمعة وسيلة من أجل حماره، بل قدّم إغراءات مادّيّة لبعضهم، بأن دفع لهم مقدّمًا، حتى لو كان هناك احتمال لفشل العمليّة.

لم يكن جمعة بليدًا في المدرسة، بل كان لمّاحًا، لديه محاكمة سريعة، وقدرة على الحفظ، تضاهي موهبته في التخيّل. كانت تجربته القصيرة في المدرسة، التي لم تتجاوز مرحلة التعليم الابتدائي، برغم كلّ المناورات التي قام بها والده مع السلطات المسؤولة عن منع التسرّب، من أجل سحبه إلى الشغل الذي لم يكن والده يجيد غيره، آملاً أن يشيل عنه ابنه، الذكر الأكبر في البيت، مسؤوليّات الأسرة، كانت تلك التجربة غنيّة بما يكفي لأن

تراكم في ذاكرته أهمّ مخزون معرفي، وأحلى ذكريات تخبّئ بين دهاليزها ومضات من السعادة، حرّضت أحلامه لاحقًا، عندما قرّر بعد انقطاع أن يتقدّم لامتحان الشهادة الإعداديّة. لم يكن سهلاً عليه حينها تجميع ثمن الكتب، إنّما استطاع أخيرًا أن يؤمّنها، وظلّ ينقّب بين صفحاتها وسطورها على مدى سنتين، استطاع بعدها أن يحصل على الشهادة العتيدة.

في طريق نزوله اعتاد ألّا يدقّق كثيرًا في الحاويات، إلّا بعضها، بعد أن صار لديه خبرة بها جميعًا، خصوصًا أنّ الجزء العلوي من الشارع يتميّز بقلّة الكثافة السكّانيّة بسبب وجود محطّة وقود، مع أبنية مدرسيّة، ومكاتب بيع أو تأجير سيّارات، بالإضافة إلى المكاتب العقاريّة، كما أنّ هناك العديد من الأبنية الناهضة التي لم يسكنها أحد بعد، إنّما لم يكن هذا يمنعه من التوقّف أمام حاويات المدارس في طريق عودته، بعد أن تكون قد خلت تمامًا حتى من المستَخدَمين الذين يكوّمون تلال النفايات حول الحاويات. ربّما كان هذا الوقوف قرينة تذكّره بمرحلة من عمره خلّفت في أعماقه حزنًا دفينًا ولا تفتأ تحرّض حنينه، بل تداعب مخيّلته أحيانًا، عندما تجود مصادفة ويعثر بين حين وآخر على بعض الكتب المدرسيّة الملقاة بين أكوام الزبالة، أو بعض الدفاتر التي تخلّى عنها أصحابها، بعد أن ضاقوا ذرعًا بها، أو سقطت سهوًا من بين أيديهم بعد خروجهم متدافعين من باب المدرسة. كان جمعة يتلقّفها بشغف، ويودعها مكانًا خاصًّا في خرج حماره، يحميها من التلوّث إذا ما اختلطت مع باقي المحتويات الملمومة. والمهمّ أنّه كان قد انتهى من الجزء العلوي لشارع الجمهوريّة من دون حصيلة ذات أهمّيّة. لم يضايقه هذا الأمر بما أنّه يعوّل على

القسم المتبقّي، وهو الأغنى بكمّيّات الزبالة، والأكثر تنوّعًا، من حيث القاطنون، أو المحلّات التجاريّة الكثيرة التي تخدم هذا الحشد البشري المتزايد باطّراد.

«لا ترمِ الأوساخ خارج الحاوية تحت طائلة المساءلة القانونيّة».

عندما لمح تلك العبارة المتوعّدة، ضحك ملتفتًا إلى الخلف كي يشاركه حماره أبو طافش ضحكه، وهو يحدّثه في سرّه: قال تحت طائلة المسؤوليّة! من يبحث عن المسؤوليّة، ولاّ من يعبّر ها الكلام؟ كلّه حكي، ما في إلّا الحكي، ما في حاويات تكفي هالزبالة التي تنبع من البيوت. يا الله على الأقلّ مع هذا الوضع، شغلي يكون أريح، لست مضطرًّا على الغوص في الحاوية كما عندما كنت صغيرًا حتى أستخرج منها الأكياس.

قبل وصولهما إلى الحاوية بخطوات قليلة، نفرت منها أعداد من القطط تتقافز مذعورة في كلّ الاتّجاهات، قطط متباينة الألوان، قذرة، نحيلة، إنّما بالرّغم من هذه الهيئة، كانت تحتفظ بجاذبيّة آسرة، بعيونها المغناجة التي تغمز بها بكسلٍ جميل. توزّعت القطط محيط الحاوية، محتفظة بمسافة أمان تنتظر دورها للانقضاض ثانية عليها والنبش فيها عن حصّتها.

برقت عينا أبو طافش بوميض خاصّ، فملاقاة القطط كانت من المصادفات السعيدة التي يحلم بها كلّ يوم عندما يجثو على قوائمه في زريبته الصغيرة خلف البيت، يرحل بذاكرته إلى الأزمنة الغابرة، تلك العصور الذهبيّة التي تترامى على البراري والغابات، عصور الحرّيّة والاستقلال، قبل أن يتعرّضوا، هم معشر الحمير، لهجوم

عدوٍّ غريب الأطوار، لم يعرفوا له هويّة إلى اليوم، إنّما استطاع، برغم أطواره المتبدّلة، أن يسلبهم إرادتهم، ويجعلهم عبيدًا لديه: لو تطيل النبش يا صاحبي، اتركني أتملّ شويّ هذه القطط، والله قلبي يرقص لمّا أشوفهم، أنت تظنّ أنّني نسيت تلك الأيّام؟

صحيح أنّني لم أعش في البرِّيّة، منذ زمن طويل، من آلاف السنين، لمّا كنّا نحن الحمير نعيش بأمان الله، بعيدًا عن عيونكم، أيّام الهناء والأمان، لكن نحن غيركم، ذاكرتنا لا تموت ولا تتبدّل. مثلما ورثت هذه الذاكرة عن أبي وأمّي، سأورّثها لأولادي، إذا الله وفّقني وصار عندي أولاد، سوف يتعلّمون من دون أن أعلّمهم، أنّ لهُمْ قبيلة كبيرة، متفرّقة في كلّ جهات الأرض، من الصين إلى أميركا إلى روسيا، حتى أوروبا، إلى كلّ المطارح التي أعطيتموها هذه الأسماء، وأتعبتم مخّنا بحفظها، سوف يبقون يحلمون بها، وينتظرون يومًا سيأتي ونتحرّر فيه من سيطرتكم، لأنّكم سوف تنهون بعضكم بعضًا، شُف يا صاحبي يا جمعة! أنا لا أتوعّد، ولا أشمت، بالعكس أنا أحكي ما أراه، نحن تعوّدنا أن نشتغل شغلنا أينما كنّا بلا تأفّف، وتعوّدنا أن نصبر، ونكون ناجحين، هذا وحده يكفي كي نحافظ على نوعنا، ومهما طال الزمان، رح نرجع إلى جنّتنا بعدما تنتهون أنتم البشر من تعمير جحيمكم. الله! ما أحلى ها القطط، ما تركت شقاوتها بعد كلّ الزمن الذي انقضى وهي بينكم، ما زالت محافظة على برّيّتها، على كلٍّ هذا أسلوبها بالعيش، كلّ واحد حرّ في أن يعيش مثلما يحبّ، إذا لم يكن يؤذي البقيّة.

كان أبو طافش واقفًا يتأمّل سعادته بصمت، بينما جمعة يقوم بسبر الكومة المتراكمة أمام الحاوية، يهشّ الذباب من فوقها،

تتطاير بعض الذبابات وتحوم حول الحمار، يلوّح بذيله يمينًا ويسارًا، أو يرفّ بجفنيه مع تدوير رأسه في الاتّجاهين، كانت الكومة عامرة بعيدان الملوخيّة، مع قشور الخضار، وبقايا بندورة معصورة، والعديد من نفايات البيوت، من قنانٍ بلاستيكيّة، وعلب الكرتون، وفوط الأطفال، والفوط النسائيّة، والمجلّات، والزجاج المكسور، وعلب العصير، وأشياء لا حصر لها من مخلّفات البيوت، ينبشها جمعة ويقوم بفردها، ينتقي علب العصير، وقطع البلاستيك، وشظايا البلّور، وكلّ ما يمكن أن يستفيد منه ببيعه آخر النهار لصاحب المستودع الكبير الذي يلتقي عنده كلّ النبّاشين مساءً، ويأخذ المجلّات وكلّ ما تقع يده عليه من أوراق من دون أن يقرأها، بل كان يمنّي نفسه بأن يفردها عند عودته إلى البيت، حيث اعتاد الانفراد بنفسه، مبتعدًا عن المحيطين به، وكان هذا السلوك منسجمًا مع طبعه الصامت الذي استنفر رفض أسرته في البداية، ثم اعتادوا عليه بعدما يئس الجميع من إمكانيّة ترويضه.

على بعد أمتار قليلة من الحاوية، تحت فيء شجرة صغيرة، يضع مهنّا القطرنجي بسطته يوميًّا منذ الصباح حتى المساء، يفرد عليها علب الدخان من وطني ومهرّب، مع برّادٍ صغير مربوط بجنزير إلى جذع الشجرة، يتغذّى بالكهرباء من أقرب عمود إليه، ومزوّدٍ بقفل يُحكمه مهنّا في المساء قبل عودته إلى بيته، فيه علب العصير والمياه الغازيّة، وبعض قناني المياه البلاستيكيّة. شَغل مهنّا هذا الركن منذ أكثر من ثماني سنوات، وهو اليوم يفكّر بتحويله إلى كشك، يوسّع تجارته بعض الشيء، لأنّ المردود لم يعد كافيًا بعدما كبر أولاده الثلاثة، وازدادت طلباتهم وحاجيّاتهم، خصوصًا أنّ نسبة لا بأس بها من ربحه تُنفق على شكل إتاوة تذهب إلى جيوب

المعنيّين بالأمر، الذين يشكّلون غطاءه، بالإضافة إلى المهمّة الأساسيّة التي يقوم بها، وقد وعدوه بمساعدته في الحصول على الترخيص من البلديّة من أجل الكشك. مهنّا يقارب الأربعين، بدأت رشقات من الأبيض تغزو شعره الكثيف، أمام الأذنين، وفي منتصف غرّته المقلوبة. أكثر ما يلفت النظر إليه هو أنفه العريض، فوق شفة تنفرج عن افتراق في أسنانه العلويّة، ممّا يمنحه سحنة هي أقرب إلى الغباء، بالرّغم من أنّه لم يكن كما يبدو، بل كان ماكرًا بما يكفي لكي يسلب الآخرين حذرهم، ويجعلهم يرمون حيطتهم غافلين عن ذلك. لم يكن يكفّ عن الكلام، بموهبة فطريّة غذّاها مع الوقت، من دون أن يدرك ذلك تمامًا، إنّما كان حديثه مع الناس، وحصوله على المعلومات التي يريدها، أو التي تلفته بمحض المصادفة، يعزّزان رضاه عن نفسه، ويزيدان من إقباله على الكلام، عدا كون الكلام هو الرياضة الوحيدة التي يمارسها، فهو يقضي معظم يومه جالسًا خلف بسطته، ممّا جعل كرشه تبرز مع الزمن، حتى وصلت إلى الحجم الحالي، فباتت تجلس في حضنه. حركاته الوحيدة كانت في تلك المساحة الضيّقة، التي يقوم بها عندما يناول بعض الزبائن طلباتهم من شبابيك السيّارات.

بدأت علاقة جمعة به، أو للدقّة علاقته هو بجمعة، لأنّ هذا الأخير لم يكن هاوي كلام، أو منفتحًا على الآخرين، إذ يقضي جلّ وقته هائمًا في الشوارع، يحدّث نفسه، أو حماره، ويتأمّل العالم حوله. بدأت تلك العلاقة بعد أن اعتاد جمعة الوقوف كلّ يوم أمام البسطة، يشتري علبة دخان، ويطلب أحيانًا زجاجة مياه غازيّة. لولا حماره، والعمل الذي يقوم به، وهيئته بملابسه القديمة، وشعره المهمل، لظنّ مهنّا كغيره أنّ هذا الشابّ معتدٌّ

بنفسه، مغرور. إنّما في الواقع كان متوحّدًا إلى حدٍّ ما، بإرادة مسبقة، عندما اكتشف أنّ هذه الحالة هي أكثر الحالات راحة بالنسبة له.

ناداه مهنّا:

ـ أهلاً بالشيخ جمعة. أين كنت أمس ما شفناك؟

ـ أنت كنت غائبًا ولست أنا.

ـ معك حقّ، تعال اشرب كازوزة. أم أنت صائم؟

ـ يا الله، بعد ما أنتهي من الشغل الذي بين يديّ.

ـ يلعن أبو الشغل، أم أنت تنقّب عن البترول، وسوف تلاقي بئرًا يا جمعة؟

ـ هذا شغلي. قلت لك سوف آتي.

وراح يتابع عمله منهمكًا، يفرز ويكوّم أشياء ويفردها عن غيرها. اعتاد جمعة على هذا الخليط الرهيب من الفضلات والبقايا التي تزدحم في الحاويات، أو التي تتكدّس حولها، كما ألف الروائح الفظيعة التي تصدر عنها، والأبخرة التي تتصاعد منها أيّام الحرّ. للدقّة، هو لم يألفها، وإنّما عوّد نفسه على قبولها طالما هي جزء أساسي من مجال عمله، فهو يعلم تمامًا أنّه لا يستطيع أن يفصل الروائح عن هذه الأكوام، لذلك درّب نفسه على تناسيها أمام انهماكه بعمله.

في البداية، عندما خاض هذا المجال وهو صغير مع والده، لم يكن يميّز بين الروائح برغم التقاطه لها كلّها. فقد كان يقضي معظم أوقات يومه قبلها في الخارج بين الأزقّة الحافلة بالمياه الآسنة، والفضلات المرميّة أمام البيوت، والمجارير المفتوحة،

وأكوام الذباب التي تطنّ في الفراغ على ارتفاع قامات البشر، أو على الشاطئ القريب حيث تترامى أشباه البيوت التي يقطنون فيها، عندما كان يذهب مع رفاقه من الصغار بعد أن تضيق بهم الزواريب، ويتذمّر الكبار من كثرتهم في تلك الأمكنة الضيّقة، فيكون الشاطئ ملهاهم الوحيد، يهرعون إليه بسراويلهم، يتدافعون إلى مياهه التي في غمرتها اكتشفوا شيئًا غامضًا يتفتّح في داخلهم. بفطريّة تامّة دفعهم لاكتشاف مناطق اللذّة في أجسادهم. كانت للبحر رائحة زنخةٌ أيضًا، تختلط مع روائح المجارير التي تصبّ فيه، وروائح بولهم وفضلات بطونهم التي تحرّض طرحها دغدغة الماء لأجسادهم، كما كانوا يبتردون في مياهه، في أوقات الصيف عندما يتكاثر البعوض ويبدأ بالتهام جلودهم الناعمة، تاركًا عند معظمهم وشمًا ينتقي مكانه بعشوائيّة مطلقة. وهكذا صار معظم أبناء الحيّ يحملون هذا الوشم الناجم عن إصابتهم باللشمانيا. عندما انتبهت الجهات الصحّيّة المسؤولة إلى هذه المشكلة صارت ترسل كلّ يوم إلى الحيّ سيّارة بعربة، تضخّ دخانًا أبيض كثيفًا، له رائحة المازوت المحروق، وكان الأطفال يركضون خلفها باحتفاليّة صاخبة، برغم عيونهم الدامعة بسبب الدخان. تلك الروائح شكّلت مخزونه الأوّلي. كان يستدلّ على الأمكنة، التي ترسم معالم بيئته الصغيرة تلك، عن طريق الروائح التي يلتقطها قبل أيّ شيء آخر يميّزها، إنّما كان قاموس مفرداته فقيرًا، فلم تكن تلك الأمكنة غنيّة بالروائح. حتى الأطعمة التي يتناولونها، والطبخ الذي يجيدونه، كان متشابهًا، تنفلت روائحه من كلّ البيوت في وقتٍ واحد، سرعان ما تختلط مع ما يفوح في الخارج، لتطبع وشمًا على المكان سوف يبقى راسخًا في بال جمعة.

مع الوقت تعلّم جمعة طريقة النبش المجدي. صارت له قياساته الخاصّة، فأصبح أمهر في عمله، وأسرع في أدائه، ممّا جعله يطوف على أعداد مطّردة من الحاويات، يستخلص منها ما هو نافع، وقد يكون ثمنه أكبر من غيره، ويحتفظ أحيانًا ببعض الأشياء لنفسه، بعضها لم يكن يعرف جدواها بالنسبة إليه، وبماذا يمكن أن يسخّرها، أو يستفيد منها، إنّما يلحّ عليه شعور في دخيلته من أجل الاحتفاظ بها، مؤجّلاً التفكير باستخدامها إلى حين قد يطول، وقد تُنسى تلك الأغراض في زحمة الفوضى التي تفرض نفسها على حياتهم بسبب ضيق الأمكنة، فلا يلبث البيت المكوّن من غرفة تُستخدم لكلّ شيء، وأخرى للنوم، ومطبخ مسقوف بالصفيح يستند إلى خاصرته مرحاض أوطأ منه، يتطلّب دخولهما اجتياز عتبة الغرفة إلى العراء، واجتياز عدّة أمتار من أجل الوصول إليهما، لا يلبث البيت أن يستغيث من تراكم الأشياء داخله، وتبدأ الأمّ بالتذمّر والاستنكار، ثم الصراخ في وجهه.

كان جمعة يشعر بأنّه لا يملك أيّ حدّ من الخصوصيّة، بل هو المعتاد على رحابة الشوارع، يقضي في الخارج الممتدّ إلى نهايات بعيدة، وربّما إلى لا نهايات، أوقاتًا أطول بكثير ممّا يقضي في البيت. يتبدّل شيء في داخله، شعور مبهم يستفيق مناوشًا إيّاه بمجرّد وصوله إلى مشارف الحيّ. تشتدّ شراسة هذا الشعور كلّما تقدّم في الزواريب، إلى أن تصبح تلك الزواريب ممرّات على شكل دهاليز تتمادى إلى سراديب معتمة، حتى يصل باب الدار، يطالعه خشبه المنخور، والمسامير الصدئة الملتوية باتّجاهات عديدة تثبت قطع التوتياء على خشب السحاحير، كي تشكّل بابًا يئنّ صدأه كلّما تحرّك. يقبض على صدره من الداخل هذا البؤس المظلم، بين

جدران إسمنتيّة اكفهرّت وازدادت قتامتها مع الزمن، تُنيرها لمبة واحدة مثبتة على الجدار المواجه للعتبة، تبثّ مع نورها الهزيل رائحة تلاقيه مقتحمة كيانه، كما لو أنّها خليط عجيب لكلّ الروائح المعتّقة في البيت والزقاق والأزقّة المجاورة، بل والحيّ كلّه، رائحة تختلف عن رائحة الحاويات، ليست رائحة بقايا، بل هي رائحة حياة تعاني من التعطّن والعفونة، الأصحّ أنّها رائحة تعاند الموت، فتقف على الحدّ بينه وبين الحياة. ما إن يدخل جمعة البيت، حتى يصير مثله مثل البقيّة، بل يصير الجميع متشابهين حدّ انعدام ملامحهم.

لفت انتباه جمعة كيس أسود في داخله كومة سميكة، لها ملمس الأوراق المكدّسة، فتحه، فوجد مجموعة من المغلّفات مربوطة بشريط قديم، رفعه وأودعه خُرْج الحمار، كأنّ الكيس لم يعنِ له شيئًا، فأجّل الخوض في محتوياته إلى وقت لاحق، وراح يكوّم أشياء أخرى في الخرج، ويعلّق بعض العلب أو الغالونات البلاستيكيّة إلى خاصرة الحمار. ولمّا أنهى عمله، اتّجه إلى حيث يجلس مهنّا القطرنجي. ناوله هذا الآخر كرسيًّا من ذاك النوع الذي يُطوى بحيث يمكن إيداعه في جوف طاولة البسطة، فجلس جمعة متمتمًا بعبارات الشكر بشكل آلي. لم يكن مزاجه رائقًا، كان شعور غامض يعكّره، وهذه الحالة من التشوّش كانت تعتريه بين حين وآخر، فتجعله متذمّرًا، لا يطيق معها مجاملة الناس، أو على الأقلّ يفضّل أن يبقى بعيدًا عنهم. لكنّه اليوم كان ينوي على إنهاء مشواره على البحر، ولم يحن موعده مع الشمس وغروبها، وملاقاة نفسه معها، لذلك لبّى دعوة مهنّا، لكن من دون شهيّة تجاه أيّ شيء، حتى عبوة المياه الغازيّة التي قدّمها إليه، تناولها هو بلا رغبة،

تحت إلحاح مهنّا التوّاق دائمًا إلى الثرثرة.

ـ حلفت عليك أن تشربها، هذه ضيافة منّي يا جمعة، لا تخفْ، ما رح آخذ ثمنها.

ـ قلت لك ليس على بالي، الله يخلّيك أعفني منها اليوم.

ـ لن أعفيك. أنا اليوم على بالي ضيّفك، ثم ما الذي يشغلك؟ نصف الألف خمسمائة.

لم يكن جمعة بمزاج يجعله يجامل مهنّا، لكنّه استجاب مرغمًا لدعوته، فهو يعرف أنّه سيمرّ غدًا من هنا، وبعد غد، ولأيّام طويلة ربّما، وسيكون مهنّا مقيمًا في المكان نفسه، وليس من داعٍ لأن يكون هناك جفاء بينهما، فبرغم كلّ شيء، لم يزعجه مهنّا، بلً كان لطيفًا معه. أخذ يرشف منها رشفات فاترة من دون أن يتكلّم بشيء. قطع عليه مهنّا صمته:

ـ بالله عليك قلْ لي يا جمعة: ما الذي تكسبُه من نبشك بالزبالة؟ لمَ لا تبحث عن شغل ثانٍ أنظف وأحسن من الشغل المعتّ هذا؟

ـ هذا هو الشغل الذي وعيت على الدنيا وشفت حالي أشتغل فيه، وكان أبي يشتغل فيه قبلي، أنا راضٍ به.

ـ لكنّ هذا لا يجوز، أنت شابّ وتقدر على تعلّم أشياء ثانية. إلى متى ستنتظر؟

لم يقبل جمعة هذا العمل بقناعة تامّة، إنّما ضاقت دائرة الخيارات أمامه. كان يحلم بعد أن يحصل على الشهادة الإعداديّة، كي يشتغل عند الدولة، لكنّ وضع ساقه فوّت عليه فرصة القبول، في وقت كان الحصول على وظيفة عند الدولة حلمًا صعب المنال.

كانت تتقدّم أعداد كبيرة من أجل وظيفة متواضعة، تتطلّب أعدادًا محدودة، وغالبًا ما تكون الأسماء المقبولة موضوعة منذ البداية في الظلّ، بطرق غامضة وإن تكن معروفة من قبل الكثيرين، لكنّ الإعلان عن الوظائف كان لا بدّ منه، هكذا تقتضي القوانين والأنظمة. والمهمّ أنّ جمعة لم يكن يلاقي فرصته من أوّل الطريق، في كلّ مرّة يتقدّم فيها إلى إحدى الوظائف، إلى أن يئس من إمكانيّة قبوله، فرضي بالعمل الذي بين يديه، وراح يرسم في باله صورة لمستقبلٍ يعزم على أن يحقّقها.

ـ ٢ ـ

جاء رمضان باكرًا هذا العام، قرّر جمعة ألّا يصوم. يكفيه أنّه يجوب الشوارع على قدميه، جارًّا الحمار وراءه، يغادر البيت صباحًا، يعرق ويخسر الكثير من ماء جسمه، يصل إلى البيت قُبيل الإفطار منهكًا من الجوع والعطش، يأكل فتبدأ أمعاؤه بالصراخ والاستغاثة، يتطبّل بطنه وينتفخ بالغازات، ترتبك أمعاؤه ولا يستطيع إفراغها. وعندما راجع طبيب المستوصف نصحه باتّباع حمية خاصّة، وتعديل عادات طعامه، كما وصف له تحاميل الغليسيرين. جنّ جنون والده، التحاميل ستنتهك صيامه، هرع به إلى الشيخ يحيى ليفتي له في هذا الأمر الكبير. قال له الشيخ يحيى: كلّ ما يدخل الجسم يفطر يا أخي، بغضّ النظر عن طريقة دخوله، أو ضرورته للجسد. احتجّ جمعة قائلاً: لكنّ الصوم امتحان للإرادة يا شيخنا، وأنا لا أشتهي الطعام أو الشراب، لكنّني أريد أن يكون جسمي معافى حتى يقوى وأستطيع القيام بعملي.

لم يخبر أحدًا بقراره، إنّما لم يكن يخفي أمرًا عن أبو طافش، خصوصًا أنّه رفيق دربه، وأنّه يعرف كيف يكتم السرّ، ويصون

خصوصيّة صاحبه، فقد باح له منذ عدّة أيّام بما ينوي أن يفعله، وبثّ إليه همومه وأحلامه عندما توقّفا أمام البحر، في خليج صغير، ينحدر الطريق إليه بشكلٍ قاسٍ من خاصرة رصيف الكورنيش الجنوبي، حيث كان يحلو لجمعة أن يسترخي على الرمال ويغطّس ساقيه في مياه الخليج، يتفرّج على الصيّادين وهم عاكفون على تلك القوارب الصغيرة التي يقتحمون عرض البحر فيها ليعودوا بشباكهم محمّلة بما علق بها.

أنا صائم بلا صيام ولك أبو طافش، أدور كلّ النهار على كعبَيْ رجليّ، لا أملك إلّا هذه السيجارة بين شفتي، منذ خروجي باكرًا من البيت، حتى أرجع في المساء، بالكثير أشرب كازوزة أو بلعة ماء حتى أروي عطشي، ثم بعد الصيام الذي يصومُه أهلي وإخوتي، ماذا يفطرون؟ هم صائمون على الفطرة، الأكل الذي يأكلونه لا يمكن تسميته أكلاً. والله عندما أتطلّع إلى وجوههم أحزن، إخوتي لا يحصلون على الشبع فكيف يصومون؟

هذا المنحدر الذي يترامى البحر أمامه ليفصل بين جانبين من المدينة، كانت تطلّ عليه واجهات المقاهي والمطاعم البحريّة المترامية على طول الكورنيش، وترمقه الأبنية العالية المترفة من علٍ، بطريقة لا مبالية، تبدو كما لو أنّها غير آبهة به، ولا يلفتها جمالٌ فقير بدائي بالطريقة التي يبدو عليها. بالمقابل، كانت الجهة الأخرى تلوح لجمعة من بعيد كخطّ متعرّج يفصل بين البحر والسماء، يرسم أفقًا غير الآفاق الأخرى للبحار. كانت هناك قبيلته، أولئك البشر المتشابهون، الذين يسكنون تلك الأحياء المتشابهة، والتي تلوح له من بعيد، حشودًا من البؤس أمام أوابد

النعمة الواقفة في الأعلى يسكنها بشرٌ لا ينتمون إلى قبيلة، بشرٌ مختلفون بكلّ تفاصيل الحياة.

ها هو جمعة اليوم على البحر من جديد، والشمس قد صارت خلفه منحدرة في طريق غروبها، تترقرق صفحة البحر ببريق أرجواني، وتتكحّل بعض الغيمات المارقة بعذوبة فوق الجهة المقابلة حيث أهله هناك، بلون الغروب. هذا المشهد الذي يتغيّر مع الفصول ومزاج الطقس، يدغدغ جمعة، فتراه يتنهّد بين حين وآخر، في أعماقه حزن خفي، يوقظه الأفق المترامي أمامه، تتلامح بين خطوطه حياته في ذلك الخراب البائس، الذي يسكنه مع أسرته، وكثير من الناس الآخرين الذين انحدروا من أماكن مختلفة مترامية على الجهات الأربع. كلّ بيت له حكايته الغامضة، تتستّر عليها الجدران، كما له أحلامه الأكثر غموضًا، تنام عليها العيون، وتسترها الجفون، لكنّها تنفلت فجأة في غفلة عن أصحابها.

لم تكن البيوت أكثر من حُجرٍ بدائيّة تغطّيها أسقف من الصفيح المثبّت بأحجار من البلوك، تمنعه من الانخلاع عندما تجنّ العواصف البحريّة أمامها، أو تلك القارسة الآتية من الجبال الشرقيّة المغطّاة بالثلوج.

كان مدفع الإفطار قد دوّى منذ نصف ساعة، خفّت معه حركة المدينة، فخيّم عليها هدوء طارئ لا تعرفه في ظروف أخرى. شعر جمعة أنّه يتمادى بالتدريج في الفراغ حوله، وأنّ كثافة داخليّة كانت تملأ أعماقه، بدأت تتلاشى مخلّفة وراءها إحساسًا ناعمًا لم يختبره سابقًا إلّا في حالات قليلة، بينما كان في السنين السابقة، وهو

يتسكّع مع حماره على الدروب، يمعن التأمّل والتفكير في رحلته التي لم يكن يبدو أنّ لها نهاية، ولم يكن يستشعر في الأفق أيّ أمل بمصيرٍ أفضل، كان الإحساس الضاغط على صدره يولّد له الكثير من الضيق كما لو أنّه يسبح في بحرٍ من الدبق.

نسيم البحر لطّف من حرّ أيلول، والصدى البعيد الآتي من أماكن مخفيّة، مع صوت البحر، وارتطام موجات خفيفة بجدران الخليج أمامه، كلّ تلك الأشياء نفحته بشعور جميل، استطابته نفسه، فأوقف حماره قريبًا منه، واضعًا أمامه عليقه، ثم خاض في الماء إلى أن وصل إلى صخرة قريبة، جلس عليها، أشعل سيجارة ورحل بعيدًا مع تأمّلاته وأحلامه. تردّد وهو يمسّد الكتاب الذي أخرجه من جيب جانبي في خرج الحمار. كان يمسكه بحرص ورهبة. ملمس الكتب يمنحه شعورًا خاصًّا يسري في كيانه مثل رعشة المهابة أمام شخص كبير، أو حدث هامّ، هو المحروم من إكمال تحصيله العلمي، ولكن حياته والعمل الذي يشتغل فيه لم يستطيعا أن يمنعاه من القراءة بنهم في أيّ كتاب أو مجلّة أو حتى قصاصة ورق تملؤها الكلمات. كان العائق الأكبر لديه هو عدم قدرته على اقتناء الكتب. لم يملك يومًا فائضًا يدفعه لقاء اقتنائها، لكنّ هذا الكتاب لفته عندما كان مارًّا في إحدى المرّات من أمام ساحة الأوقاف، من دون حماره، وقد نُصبت الخيام التي تضمّ معرضًا للكتب، ودفعه شغفه بها إلى دخول المعرض، يملؤه شعور من البهجة الممزوجة بشجن. كان يدور بين الممرّات المتروكة بين طاولات العرض مبهورًا، تتراكض العناوين أمام عينيه، معظمها بدا كالطلاسم، بل كالتعويذات، فقد كانت الرهبة تتمكّن منه، ولم يكن يفهم مدلولاتها، لكنّه كان مذهولاً من قدرة البشر على الكتابة. كان

الكتاب رخيصًا قياسًا ببقيّة الكتب، فهو من منشورات وزارة الثقافة، وأفرحه أنّ سعر الكتاب بحوزته، خصوصًا أنّ نسبة التخفيض عليه كانت لصالحه. اشتراه وخرج مزهوًّا أمام نفسه، كان أوّل كتاب يشتريه بعد كتب صفّ التاسع، وكلّ ما لديه غير ذلك من مقتنياته المعرفيّة كان يجمعه من بين تلال النفايات.

لم يغب عن باله أنّ لديه ساعة فقط قبل أن يبدأ مسلسل باب الحارة، الذي يحتاج إلى مسيرة عشرين دقيقة على الأقلّ كي يصل مع حماره إلى مشروع الزراعة حيث اعتاد أن يتابعه. لذلك أضمر التوقيت في باله، كما اعتاد أن يفعل على الدوام، ونادرًا ما خانته ساعته الداخليّة. واسترخى أمام البحر، ممعنًا في هذا الجمال الفاتن، يقلّب الكتاب بين يديه، مواربًا شعور رهبة يتملّكه، مثلما لو أنّه يتدفّأ عليه، يخاف من الغوص بين صفحاته. كان شغفه بالكتاب يزداد، يؤجّل مقاربته إلى وقت آخر، وقت يستحقّه، هو يلزمه كثير من الوقت، عليه أن يكون متفرّغًا له، خاشعًا أمام رهبته. يجب أن يكون الوقت كلّه له، وليس وقتًا مستقطعًا كما هو الآن بانتظار باب الحارة، لكنّه لم يقوَ على إفلاته من بين يديه، طالما هو مسترخٍ في مكانه الأثير، مستمتع بتدخين سيجارته أمام الهدوء الجليل للمغرب، فلا مكان للكتاب في خرج الحمار، سوف يبقيه بين يديه. ثمّة أمواج تنساب من بين صفحاته المنغلقة على سرّها تدغدغ راحتيه وأنامله، تتسلّل الدغدغة إلى كيانه ناعمة كرائحة الأرض صباحًا، فتنفحه بنشوة عذبة تحوّله إلى كائن شفّاف يتشرّب حمرة الشمس في انطفائها الشهواني.

لماذا البحر من هنا أحلى؟ كلّ يوم أفيق باكرًا على صوت الموج القريب من شبابيك بيتنا، لكن تفيق معي كثير من الأشياء

الكريهة، تجعلني أنسى البحر وجيرته، مع أنّنا ما غادرنا حدوده منذ مجيئنا إلى هنا. أوّل شيء أتمنّاه أوّل ما أفيق هو أن أبقى نائمًا، حتى أنسى العالم الذي أنا فيه: الروائح، والضجّة، وصراخ الأولاد، وقرقعة الطناجر من الصبح الباكر. هنا البحر أحلى، أتطلّع إلى البعيد وأتمنّى أن أسافر، أبتعد كثيرًا، أبقى أسافر وأسافر، لا أتوقّف لآخر العمر. لكن أبو طافش ماذا أفعل به؟ كيف أتدبّر أمره؟ إذا تركتُه والله يموت، أعرف، ما من أحد سيهتمّ به. ماذا سأبقى أشتغل هنا؟ سوف أظلّ كلّ عمري أدور على الزبالة، وهي لا تجلب همّها؟ أنا أبتعد عن أيّام زمان، حتى جميلة ما قدرت ألمس يدها، منذ سنين ما شفت وجهها، والله اشتقت لك يا جميلة، يا ترى ماذا عملت فيك الأيّام؟ أنا أعرف أنّك ما زلت عازبة، أنا ما زلت أحلم بك، وأشتغل حتى أجعل والدك يوافق على زواجنا، لكنّ الوقت، الوقت يا جميلة هو الواقف في وجهي، أنا أشتغل ليل نهار لأنتهي من مشروعي الذي أتركه مفاجأة لك، وحياتك لولاك لكنت طفرت من هنا من زمان.

كانت جميلة تملأ كيانه بمشاعر متباينة، تتسلّل الآن إلى وجدانه مثل صدى لحن قديم أوشك على نسيانه، تأتيه بلا ملامح، تفوح في أعماقه كرائحة قديمة تنبثق من أعماق البحر، تنفلت من هناك حيث تتصاعد أبخرة الطبيخ عند الإفطار، تتعلّق بأغصان شجرات الكينا وتقطر من أوراقها المتدلّية باتّجاه الأرض. يغمض عينيه متجرّعًا حلاوة التذكّر مختلطة بمرارة الأيّام، ووجه جميلة يفرّ من بين أصابع مخيّلته. يتنهّد: العيش بين هذه الزواريب يخنقني، يجب أن أجد حلًّا.. يجب.

ـ ٣ ـ

في جنوب المدينة، حيث يبدأ الانحدار، بعد الجامع بأمتار قليلة، ينفلت شارع، هابطًا باتّجاه الشرق، ثم ينحرف نحو الجنوب، يساير البحر عندما يستوي، على حدوده تمامًا. عندما يثور البحر وتصطخب أمواجه يغمر الطريق، وقد يعربد ماؤه فوق أسقف الصفيح. تتفرّع منه شوارع أضيق، ثم أضيق، ثم تضيع هويّة الشوارع، تتماهى بالأزقّة والزواريب، ويتحوّل شكل البيوت، والعمارات. كلّما تقدّم المرء أكثر، ضاع في الدهاليز، وتراجعت الحياة بكلّ أشكالها إلى أنماط بدائيّة، حتى تتلاشى المدنيّة إلّا من سيّارة سوزوكي هنا، وأخرى هناك، يمكن اعتبار أصحابها ميسورين قياسًا بالمستوى الحياتي الذي يشي به، بل يعلنه صراحة كلّ شيء في هذا التجمّع السكني العشوائي. كما يمكن ملاحظة بعض الهوائيّات التلفزيونيّة، أو أطباق الفضائيّات، والإنارة الخفيفة التي تنبعث مساء من نوافذ البيوت، أو أشباه البيوت. تتراكم أمام البيوت أشياء كثيرة، لا يمكن التكهّن بجدواها، أكوام من الخردوات، وهياكل حديديّة صدئة كبقايا حواجز، أو أبواب، أو

شبابيك، قضبان متصالبة أو ملتوية، تستند إلى الجدران، أو تتكدّس بعضها فوق بعض بانتظار شيء ما.

أزقّة رطبة مبلّلة بمياه المجارير، روائح العفن والتفسّخ، والبول الآدمي، مخلوط بروائح الزرائب، فضاء مفتوح على كلّ احتمالات التراكم العشوائي، لا يتدخّل في تشكيله سوى الزمن الذي يتسلّل الوافدون من خلاله ويضعون حدود موطئ قدمٍ لهم، هكذا بلا أيّ حسابات أو خيال، كلّ ما يبتغيه الوافد إلى هذه البقعة من الأرض هو بضعة أمتار يرفع فوقها أربعة جدران من البلوك، يسند عليها ألواح الصفيح، مدعومة بأثقال، ثم يأتي آخر النهار يتّكئ إلى كتفه الملاصقة للأرض ويغفو على أمل أن يزيد الغد فوق ما حصّله من الليرات ليرات، يحصل بها على ما يستر عري الأرض، أو يكسر شوكة البرد في أيّام الشتاء الشرسة. وهكذا تتراكم الأقفاص العشوائيّة، مكوّمة بعضها فوق بعض، توهم بدفء يخلقه الإحساس بالأمان بهذا التلاصق العجيب. هذا كلّه لا يكفي لإعطاء حيّ الرمل حقّه من الوصف، عندما تمرّ في أزقّته، عليك أن تأخذ حذرك، وتحسب بدقّة مسافات الأمان بينك وبين ما يمكن أن يعترضك، من أطفال قذرين يتقافزون، أو طابات مثقوبة، وربما حصى يتقاذفون بها، عدا أنّ الحمير والبغال حاضرة بقوّة، فطنابر المدينة كلّها تتجمّع هناك.

في آخر الحيّ، ربّما آخر بيت ينتمي إليه، كان بيت أبو العزّ، أو حمّود العتّال، كما ينادى في الحيّ، أو من قِبَل الناس الذين يريدون منه طلبًا، بل أغلبيّة الناس لا يعرفون اسمه، ولم يخطر

ببالهم أن يسألوا عنه، فهو ليس محتاجًا إلى توقيع عقود أو كمبيالات، أو تعهّدات ما بالنسبة إلى عمله، فقد أمضى أكثر من أربعين عامًا يقوم بتعتيل الأغراض في عربة كان يجرّها خلف ظهره لأكثر من عشرين عامًا، قبل أن يجمع ثمن بغلٍ يحلّ مكانه.

حمّود كغيره من الساكنين فوق هذه البقعة المتاخمة للبحر، أتى من مكان مجهول، مكان بعيد، استوطن كغيره، بنى بيتًا بعد أن جمع مالاً يكفيه لأن يرصَّ أحجارًا بعضها فوق بعض، ويسند عليها سقفًا من الصفيح. كان سعيدًا ببنائه، خاصّة أنّه كان منزويًا بمفرده بين مجموعة من أشجار الكينا، يبتعد عن باقي البيوت المتراصّة مسافة طويلة، يتعرّج الدرب الترابي مرّات عديدة قبل بلوغه، بانحدارٍ خفيف يجرف معه الأوحال والنفايات في موسم الأمطار، ممّا اضطرّ حمّود إلى أن يرصَّ كومة من الأحجار تشكّل سدًّا منخفضًا في طريقها، يمنعها من التكوّم أمام عتبة البيت أو اجتيازها له.

كان شابًّا حينها، طويل القامة مفتول العضلات، تنتفخ أوداجه فتمنحه رقبة ثخينة تحت وجه شديد السمرة بملامح هي أقرب إلى الشهوانيّة، خاصّة بجبينه الضيّق الذي تنفر منه غرّة كثيفة مجعّدة، تلتفّ خصلاتها المغبرّة غالبًا إلى الأعلى والخلف. يعتمد على قوّته البدنيّة، ويقاوم الأوحال ولزوجة الطريق وهو يجرّ عربته باكرًا، مجتازًا أزقّة الحيّ حتى بلوغه الطريق العامّ الصاعد بقسوة في نهايته، لينحرف يمينًا مارًّا من أمام محطّة القطار في طريقه إلى ساحة اليمن، لينضمّ إلى مجموعة الشغّيلة الذين بدؤوا بالتجمّع في الساحة بانتظار من يأتي ويطلبهم من أجل ملء سيّارة رمل، أو

تعتيل أكياس إسمنت إلى طوابق عالية، أو حفر جور كبيرة. أعمال كلّها تستنفد طاقتهم. كانوا يتقافزون كالجراد وهم يتدافعون أمام الطالب. أمّا حمّود فلم يكن يطيل الانتظار، كان يبقى في ذاك المكان ساعة أو أكثر، يلبّي الطلب إن كان هناك من يطلبه، بعدها ينزل باتّجاه البازار، حيث يكون الناس قد اشتروا حاجاتهم، وصاروا جاهزين لحملها إلى بيوتهم أو محلّاتهم، كما لم يكن ينسى مواعيد القطار فيما بعد، بعد أن صارت عربته تسير بواسطة البغل، وبعد أن انتظمت رحلات القطار بين اللاذقيّة وحلب.

لم تكن جميلة هي البكر لأمّها وأبيها، فأمّها دنّورة التي غاب حمّود شهرًا بحاله، وعاد برفقتها، سافر بعيدًا إلى ديرته القابعة خلف الضباب ربّما، فلا أحد كان يعرف من أين أتى الآخر. كلّ من في الحيّ المتشكّل باستمرار يصمت عن ماضيه، ويتواطأ بصمت مع الآخرين في تغييب هذه السيرة. كانوا عندما يلتقون يتحدّثون حول أمورهم الحياتيّة، يثرثرون بقضاياهم الآنيّة التي لا تعدو أن تكون حكايات ونوادر عن يوميّاتهم، يقذفونها من أفواههم مساء، ثم يتفرّقون إلى بيوتهم في انتظار الغد، متنازلين عن أحلامهم، بل من الأرجح أنّهم لم يكونوا يعرفون الأحلام. ماضيهم ابتدأ فوق هذه البقعة من الأرض، ما قبلها مبتور، فلا تاريخ يجمعهم إلّا بداية الحياة هنا. حتى لو التقى أشخاص انحدروا من مناطق متقاربة، أو من مكان واحد، كانوا يلتزمون بشكلٍ تواطأ الجميع عليه من دون أن يجاهروا، شكل للحياة يُؤسّس له انطلاقًا من أوّليّات، تبدأ من السطو على بقعة أرض بلا قيود، ولا رجوع إلى أيّ هيئة رسميّة، بموافقة كلّ الساكنين للحيّ

طالما الوافد لا يعتدي على مستواهم الحياتي، ولا يطمع بمساحة أكبر ممّا يملكون، ثم تشييد بيت على نمط الطراز البدائي الشائع لديهم، والانخراط بعدها بتفاصيل حياتهم، متشابهين بالأزياء، والعادات، والأحاديث، والاهتمامات، والطبيخ.

غاب حمّود، ليعود بعدها برفقة زوجته ابنة الخمسة عشر عامًا، أتى بها إلى المدينة التي كانت تختبئ في الحكايات. كانت سعيدة عندما انطلقت في رحلة الهجرة إلى المدينة المتربّعة على البحر، يموج على أعتابها ويسترخي في حضنها، هكذا أخبرها حمّود، قال لها إنّ بيته قريب من البحر حتى إنّ رذاذه يمكن أن يصل إلى نوافذه، وقد يمطره على سطحه أحيانًا.

لم تكن دنّورة قد رأت البحر في حياتها، وكانت سعيدة بأنّها ستجاوره، أمضت الوقت الطويل، في غمرة الوسن الذي تحدثه اهتزازات البوسطة فوق الطريق المليئة بالحفر، وهي تحلم بالبحر، ببيتها الجديد الذي ينتظرها في ضباب الحكايات وسحرها. تغمض عينيها وترحل مع أحلامٍ يزيّنها ذاك الشعور الناعم يسري كالخدر اللذيذ في أوصالها، ينشلها من أحلامها توقُّفُ البوسطة بين وقت وآخر، لتُنزل ركّابًا على الطريق، وتحمل آخرين، وأحيانًا كانت تقف لينزل الركّاب جميعًا حتى تستطيع صعود طلعة على الطريق، فتتخفّف من حمولتها. وتستغرب دنّورة من أين نبع كلّ هؤلاء الناس. لا بدّ أنّهم كانوا مختبئين في مكان ما، وهم يمشون خلف البوسطة كما لو كانوا في تشييع جثمان إلى مقبرة الضيعة. لم تنتبه إلى أنّ معظمهم كان يقفز عن سطح البوسطة وهي تتهادى قبل

الوقوف، تراودها أفكار كثيرة، وتساؤلات أكثر، لكنّها تصمت عنها، مؤجّلة إيّاها لحين الوصول إلى بيتها الموعود، فصمتُ حمّود وخفضُ صوته إذا اضطرّ إلى الحديث معها، جعلاها تشعر بأنّ هناك حدودًا يجب عليها الالتزام بها، خصوصًا وأنّ حمّود كان يلتصق بها كأنّما يداريها عن الأعين، وليس محبّة أو حرصًا. لكنّ حمّود تركها بعد الأسبوع الأوّل وذهب لتحصيل رزقه. كان الأسبوع الأوّل أسبوع عسل بالنسبة له، أغلق باب البيت عليهما، وراح يغرف المتعة متلذّذًا بجسد دنّورة الغضّ، ابنة الخمسة عشر ربيعًا، مخلّفًا وراءه جسدًا منهكًا، ترتسم على صفحته بقع زرقاء مؤلمة. كلّ شيء بدا مذهلاً. راحت تسلّي نفسها في البداية باستعراض فساتين جهازها الثلاثة التي قدّمها إليها حمّود، ثلاث قطع من القماش خاطتها عند شفيقة خيّاطة ضيعتهم، قطعة تفتا بلون الحليب تلمع تحت الضوء كحبّات اللؤلؤ، ترصّعها زهرات ناعمة بلون الشفق، اختارتها دنّورة لتكون فستان عرسها، والقطعتان الأخريان كانتا مشجّرتين بألوان صارخة على أرضيّة داكنة، تلك كانت فساتين جهازها، سخّرت شفيقة كلّ شغفها ورماد أحلامها بعدما فاتها الزواج وبقيت وحيدة، تتفنّن في إظهار غواية الأجساد لبنات الضيعة، اللواتي يحلمن باليوم الذي ستخيط لهنّ فيه شفيقة أثواب أعراسهنّ. كانت تُدخل العروس إلى غرفة داخليّة، تغلق بابها وتمنع أيًّا من النسوة المرافقات للصبيّة من الدخول معهما، مستبدّة بقوانينها الصارمة، وكانت النساء يخضعن مستسلمات لإرادتها، فهي الخيّاطة الوحيدة، وتعرف كيف تبرز العروس مثيرة دهشة الحاضرين. لم تكن شفيقة ترضى بأن تُخترق بهجة الزفاف.

كانت حريصة على الإدهاش في لحظة إجلاء العروس، تصرّ على أن تُلبسها الثوب بنفسها يوم العرس، وترافقها في عرسها لتتدخّل عندما يزيح العريس الطرحة عن وجهها، مؤمنة بأنّ أيدي الرجال متهوّرة، لا تعرف نعومة الأنوثة، بل هي أيدٍ شهوانيّة متلهّفة، تستعجل الوصول إلى ذرى اللذّة، جاهلة بأسرار الغابات ودهاليزها ومتعة الغوص فيها. المرأة غابة، هكذا كانت تقول بعد أن كبرت، واجتازت عمر الخفر، تحكي وتحكي وهي تقلّب الثوب بين يديها، تمسّد عليه براحتيها، ترخيه في حضنها، وتحنو عليه بإبرتها، تضمّ أطرافه بعضها إلى بعض، تضع غرزاتها بخشوع ورهبة، مثلما لو كانت تخيط نسيجًا حيًّا. بلى هي غابة، تمسك طرفي الخيط بين يديها، مباعدة بينهما، واحد يتعلّق بثقب الإبرة من جهة، والآخر لانهاية له، متّصل ببكرة الخيوط، تشدّ النهايتين بين يدها البعيدة، وتلك القريبة من فمها، تقطع الخيط من البكرة بأسنانها، تتفّ شيئًا، وقد يكون لا شيء، من بين شفتيها ثم تتابع: على الرجل أن يهابها ويعشقها، لكن للأسف كلّهم لا يعرفون من الغابة إلّا الصيد والتحطيب، شُفتهم كيف يذهبون إلى الغابات حاملين إمّا الفؤوس، أو المرتينات، هم لا يعرفون إلّا القنص، ولا يعرفون أنّ جسد المرأة لا يؤخذ قنصًا، هو غابة مليئة بالأسرار، لو عرفوا متعة اكتشافها لبدّلوا سلوكهم، بل وللعنوا ماضيهم وإرثهم. هكذا كانت تحكي للنسوة بينما تنجز الخطوات الأولى في مشروع كلّ ثوب بين يديها. أمّا الخطوات الأخيرة، واللمسات النهائيّة فكانت تحفظها في محرابها الخاصّ، وكانت النسوة يستمتعن بأحاديثها، متعاطفات ضمنيًّا معها، فالضيعة كلّها تعرف حكاية عشقها الخائبة، التي

خلّفت وراءها تلك المرأة تنطوي في أعماقها على هذا الكمّ من الخيبات والحِكم.

غرقت دنّورة في وحدتها، وذكرياتها، لم يكن لديها ما تتغلّب على الوقت به إلّا تلك النبتات المتنوّعة التي زرعتها في علب السمن الفارغة، أو صفائح الزيت، تخطفها إلى هناك، هناك البعيد حيث تركت كلّ ماضيها، وجاءت غصنًا مقطوعًا يلزمه الكثير حتى يفرّع. تتذكّر شفيقة التي كانت تهمس بأذنها وهي تجري لها تجارب القياس لفستان عرسها، وفساتين جهازها: أنت الآن رايحة إلى مكان مغلق، لا تعرفين ما بداخله، حياة جديدة، لا يوجد أحد دخلها مثل الآخر، لا أستطيع أن أعلّمك شيئًا، لكن يا صغيرتي فرحانة لأنّك غدًا يوم عرسك ستكونين الأهمّ، كلّ النساء والصبايا سيحسدنك، وكلّ الرجال ستثيرين أحلامهم؟ لكنّ هذا كلّه سينتهي قبل أن يطلع ضوء النهار، لا تخافي. لا أريد أن أجعلك تخافين، لكن كوني شاطرة مع نفسك، حبّي حالك قبل أيّ شيء، إذا لم تعرفي أن تحبّي نفسك ستبقين دائمًا على الخطّ، يعني احتياطًا، لازم تعرفي جسمك وما يهوى، وهذا ستتعلّمينه بالخبرة، ثم رجُلُك وما يريد.

كانت ترشّ زرّيعاتها بالماء عند الغروب، تدغدغ الحبق والعبيتران ليفوح منهما العبير قبل وصول حمّود، كانت تشعر من خلال وحدتها ووحشتها أنّه ملاذها في هذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه إلّا صداه. لم يكن حمّود ينتبه إلى العبير المنتشر في الجوّ، يتسابق للقائه، وكان يحزن دنّورة ألّا ينتبه.

أنجبت دنّورة قبل جميلة مرّتين. كان البكر صبيًّا، لم يكمل عامه الثاني بعد، عندما جاؤوا بالمطهّر الذي يختن الأولاد، ربطوا الولد العاري وهو مستلقٍ على ظهره، فوق مسند من القشّ المرصوص، قيّدوا يديه وساقيه المنفرجتين بقماش مجدول إلى المسند، وأخرج ذلك الرجل عدّته الصدئة من كيس كان يحمله على كتفه، شمّر عن ساعديه، واقترب من الطفل الذي كان بدأ بالبكاء والاحتجاج على تقييده. هام الرجل فوقه وأمسك الموسى لينهال بضربة واحدة على الطفل، يقطع من عضوه الصغير تلك القطعة الزائدة التي لا تستوي الرجولة في المستقبل بوجودها. غاب الطفل في نوبة من الألم والبكاء عن الوعي لدقائق، وسط زغاريد النسوة المجتمعات في فناء البيت، منهمكات في تحضير المائدة الاحتفاليّة، وأخذ الرجال يحضنون حمّود، مهنّئين له وهم يدعون للولد بأن يكون من أهل الخير والتقى، وأن يفرح أبوه بزواجه وذرِّيّته.

كانت دنّورة بين النساء، واجمة النظرات، تتلقّى التعليمات والاجتهادات من كلّ من سبقنها إلى الخبرة الحياتيّة، كما كنّ يشعرن، وكانت النصيحة لا تكلّفهنّ أيّ عناء، بل هي أهمّ ما كنّ يشعرن به في مواقف مشابهة. لم تكن تصغي إلى تعليقاتهنّ، وإن أصغت فلم تكن تسمع. هناك صوت وحيد يتردّد رجعه في أعماقها، صوت يعتصر قلبها بألم حارق، تودّ لو تستطيع وضع يديها غطاء لأذنيها حتى لا تسمع صراخ ابنها، تتلهّف لأن تمتلك الشجاعة وتقتحم الغرفة الأخرى التي تجمّع فيها الرجال، وتسحب عزّو من بين أيديهم، لكنّها ضعيفة حدّ العجز، تتحرّك بين بقيّة النساء كذبابة حائرة، والكلّ يناديها: دنّورة هاتي البرغل، دنّورة أين

الملاعق؟ دنّورة أين السكّر؟ دنّورة.. دنّورة.. وهي تلتفّ على نفسها، تمسك الأغراض بين يديها، وتدور في المطبخ لتبحث عنها. كان بكاء صغيرها يهزّ أركان سكينتها، تمنّت لو تستطيع أن تصرخ بهنّ أن ارحلن جميعًا واتركنني مع صغيري، لكنّها بقيت صامتة أكثر من صخرة تشرف على مقبرة.

لم يطل الوقت لأكثر من أيّام، في شهر تمّوز ذاك، حيث الرطوبة الحارّة تخيّم على البيت محمّلة بالروائح الزنخة والذباب الطائش، والبعوض الذي لا يشبع من الدماء الآدميّة، حتى بدأ عزّو يدخل نوبات من الاختلاج المرافق لحرارة عالية يشتعل بها جسده النحيل. كان الختّان يزورهم كلّ يوم للكشف على الصغير، وتطبيق المراهم التي يحضّرها بنفسه، والصغير تزداد حالته سوءًا.

لم تبخل الجارات عليها بالمؤازرة والنصيحة، كنّ يجتمعن عندها بعد أن يفرغن من واجبات البيوت، يمضين وقتًا طويلاً عندها، تستعرض كلّ واحدة خبرتها وتصرّ على سداد رأيها.

ـ لازم تحطّي على جرحه شويّ من خروج البقر يا دنّورة. هكذا كانت أمّي تداوي جروحنا لمّا كنّا صغارًا، صدّقي مرّة أو اثنتين ثم يشفى الولد، حرام أن يبقى يتعذّب هكذا.

قالت لها إحداهنّ، فردّت عليها الأخرى:

ـ ماذا تحكين يا أمّ وحيد؟ هذه الطريقة بطلت من زمان. والله أنا كنت أشوف ستّي أمّ أمّي تجلب قليلاً من البلّان وورق بطم، وكم قطفة من الأرض تطحنها وتعجنها وتحطّها على الجروح، كان الجرح لا يتحمّل يومين والثالث حتى يشفى.

قالت أمّون:

ـ أنا أعرف شيخًا في الحارة الفوقانيّة يعمل كتيبة لا تخيب، كلّ من راح يطلب مساعدة منه لم يبخل عليه، واستطاع أن يشفيه، هذا الشيخ قاعد يخدم قبر سيّدنا المغربي، تعلمن كم كان له من الكرامات، ما زلت أذكر حكايات جدّي وأصحابه عندما كانوا يلتقون في بيت جدّي، يتبادلون الحديث ونحن الصغار نتقافز أمامهم في حوش الدار. مرّة سمعت أحدهم يقول: أحمد آغا الصهيوني قصد الشيخ مرّة شاكيًا له مرض ابنته، فقال الشيخ: يا عمّي أحمد آغا، لا يشقّ عليك أمر البنت، فنعم الصهر القبر، وعليك بالصبر. فنزل من عنده إلى البيت فوجد البنت قد ماتت.

اكفهرّ وجه دنّورة، وغادره الدم عندما سمعت بسيرة الموت، لكن أمّون عاجلت وأضافت:

ـ لا تخافي أختي دنّورة، هذا لا يعني أنّ ابنك في خطر، لكن ما أردت قوله أنّ الشيخ، قدّس الله سرّه، كان يتنبّأ ولا يخدع أحدًا من الطيّبين الذين يقصدونه فيزيّن لهم الوضع. ما رأيك أختي دنّورة أن نأخذ الصغير باكرًا نزور قبر المغربي الله يرزقنا رضاه ونرجع؟ إن شاء الله على يده يكون الشفاء.

لم تنم دنّورة ليلتها، كما الأيّام التي سبقتها. كانت تسهر على صغيرها، وتحلم بالغد، تستعجل الفجر حتى تستعدّ للذهاب به وترقده بجانب ضريح المغربي، خاشعة تنذر النذور على اسمه لو أنقذ صغيرها.

عندما تناهى إلى سمعها أذان الفجر من بعيد، كانت تتأرجح

بين الصحوة والنوم، تخاف، إن هي غفلت، أن يفوتها شطر من الزمن الذي تريد أن تبقيه طوع رقابتها، لكنّ سلطان النوم امتلكها مع سكينة الأذان. لم تطل إغفاءتها، نهضت متلهّفة لأن تبدأ يومها باكرًا كي لا يعطّلها شيء عن مشوارها الذي تدعو في سرّها في كلّ لحظة بأن يستجيب سيّدنا المغربي إلى رجائها.

قبل الانطلاق، لفّت عزّو بأقمطة إضافيّة، كأنّها تخفيه داخلها عن الخطر المقيم في هواء الكون من حولها. كان حمّود يجهّز الطنبر، ربط العربة إلى البغل، بعد أن انتهى من إطعامه، ونادى على دنّورة، لم ينتبه إلى اللهفة في عينيها المحاطتين بهالتين زرقاوين، كانت تقف على العتبة قبل أن يناديها، على استعداد أكبر من الجنود على الجبهة، لا تطيق الانتظار أكثر من ذلك، كلّ دقيقة تمرّ تأكل من أعماقها شيئًا.

كانت أمّون على أتمّ الاستعداد كذلك، لتلبّي حاجة جارتها لها، استقبلتهم وهي واقفة بباب الدار تحمل بيدها بقجة كالتي ترافق دنّورة، كانت اشترطت على دنّورة ألّا تزعج نفسها بتحضير الزوّادة، فقد تكفّلت هي بها، أمّا ما تودّ تلك الأخرى أخذه معها لشيخ الجامع، فهذا، تعرف أمّون، أنّه من حقّ دنّورة.

انطلق الجميع باتّجاه الطريق الصاعد، كان حمّود يسوط البغل بتواتر سريع عندما ابتدأ الصعود في الطريق، تشبّثت دنّورة بوليدها بيد وهي تضمّه إلى صدرها، وباليد الأخرى كانت تتمسّك بحوافّ العربة، أمّا أمّون فكانت تضع بقجتها في حضنها، تستند عليها بمرفقها، وتتمسّك بالحافّة المقابلة للعربة.

يقع جامع المغربي في الطرف الجنوبي من تلّة القلعة، في مكان يشرف على المدينة من جميع أجنابها، ولا بدّ من أجل الوصول إليه ـ وهم قادمون من ساحة اليمن ـ من المرور في المقبرة، حيث ربط حمّود البغل قبل المقبرة إلى جذع شجرة، ورافق المرأتين سيرًا على الأقدام حتى المدخل الشرقي للجامع. كان الوصول إليه يتطلّب نزول درج حجري، حاول حمل الصغير عن دنّورة، لكنّها مانعت. مرورها بالمقبرة، ورهبة الموت، وصمت القبور في هذا الصباح الباكر، كلّ ذلك أثار أعماقها فامتلأت توجّسًا، وتشبّثت بصغيرها، لا تقوى على مفارقته حضنها. فما دام هنا بين ذراعيها، قريبًا من نبض قلبها، فهي تستطيع أن تمنع الخطر عنه، بل يمكن أن تمنحه نبض قلبها فيما لو خبا النبض لديه، تغمره بفضاء رئتيها لو تعثّر الهواء إلى صدره، لا، لن تعطيه إلى حمّود، ولن تسلّم به إلّا أمام قبر سيّدنا المغربي، فليتكفّل الله به في حضرة هذا الجليل، سوف يكون شفيعه عند الله، ثم لماذا لا يكون هكذا؟ ولماذا لا يستجيب الله ويغمرهما بواسع رحمته؟ هي دنّورة التي لم تؤذِ نملة في حياتها، لا بدّ أنّ الربّ يعرف، ويعرف ما في القلوب أيضًا.

كان للجامع مدخلان آخران أيضًا، واحد قبلي، وآخر غربي يوصَل إليه عبر سلّم حجري طويل. عند باب الجامع تركهما حمّود مع الصغير، ورجع إلى بغله ليلحق رزقه، واعدًا بأن يرجع عصرًا من أجل العودة إلى الحارة.

دخلت دنّورة أوّلاً تضمّ صغيرها إلى صدرها، ثم لحقتها

أمّون، صاروا داخل صحن الجامع. ساحة مكشوفة في وسطها بركة ماء جافّة، كان الماء يوصَل إليها فيما مضى عبر فتحة في الجدار الشرقي من ناعورة اندثرت، وقامت مكانها مقبرة. وقفت المرأتان في وسط الصحن، جامدتين تحت سطوة رهبة المكان. هدوء كبير يتغلغل فيه، فالوقت باكر، ولم يتوافد الناس إليه بعد، السماء تطلّ عليهم من فوق رؤوسهم بزرقة صافية بهيّة. زقزقة عصافير تخترق السكون بعذوبة، وبرودة ناعمة تسري في الأبدان فتغسلها من دبق الحرارة في الخارج في أشهر الصيف الحارّة. كان في صمت دنّورة رجاء، وفي عينيها خوف، تسمّي بحمد الله، وتسحب الهواء إلى أعماق رئتيها كلّما نادت في سرّها يا الله. تدعو أدعيتها السرِّيّة، ترفع رأسها مغمضة، تتنهّد ملء صدرها وشفتاها مضمومتان، فتنفرج فتحتا منخريها ليبدو وجهها الشاحب مثل صفحة ماء راكد، إذ يهبّ عليه النسيم يحرّكه وتطفو الأشياء المخبوءة تحت صفحته الراكدة. كان الألم ينبثق من أعماقها ويفيض على صفحة وجهها، بتكشيرة تشدّ على شفتيها، ثم تتشبّث بجبينها ساحبة جفنيها بضمّة قاسية بينهما إلى الأعلى، بينما تحوط الصغير بذراعيها وتشدّه إلى صدرها بقوّة.

على اليمين بعد دخولهم وتوسّطهم صحن الجامع، كان رواق مسقوف يقوم على أربع قناطر في الجهة الشماليّة للجامع، ينتهي الرواق بعدد من الغرف تستعمل للخدمة فيه. أمّا الجدار الغربي المطلّ على البحر، فيحوي ستّ نوافذ كبيرة تطلّ على البلد. كان حرم الجامع رابضًا في الجهة القبليّة من الصحن، مقسومًا إلى قسمين، غرفة مربّعة في الغرب، سقف مدخلها مرفوع على ثلاث

قناطر، تضمّ قبر الشيخ محمّد المغربي، وصديقه الشيخ أحمد الحلبي الذي بنى الجامع، وكان يجد تحت سجّادته المال اللازم لبنائه، من دون أن يعرف من وضعه. أمام مدخل الحرم وقفت المرأتان بخشوع، كانت أمّون تعرف القراءة التي تعلّمتها في الكتّاب، رفعت رأسها نحو الكتابة المدوّنة فوق الباب الخارجي للحرم وراحت تقرأ الأبيات المدوّنة فوقه، توقّفت عند البيتين:

ومقام القلب فيه أشرقت منه أنوار الإمام المغربي

وبه الحاجات تُقضى فاسألوا كلّ خير واجهدوا في الطلب

قرأت الأبيات في سرّها، ثم التفتت إلى دنّورة ووجهها يشعّ بنشوة كسب الرهان، قالت لها: ألم أقل لك؟ اسمعي ماذا تقول الكتابة فوق. وأعادت عليها ما قرأته بصوت عالٍ وهي تمسك بزندها وتضغط عليه.

وهما كذلك، تقدّم من الجهة المقابلة شيخ يلبس عباءة بيضاء، ويضع على رأسه شماخًا أبيض، ألقى عليهما السلام، مبتدئًا حديثه بالصلاة على النبي، والدعاء إلى الله، وتكريس شفاعة سيّدنا محمّد المغربي، الشيخ الجليل صاحب الكرامات، قدّس الله روحه الطاهرة، الذي جاء إلى اللاذقيّة من المغرب العربي، ولم يغادرها حتى وفاته بالطاعون الذي اجتاح المدينة عام ١٨٢٨ فبُنِي له هذا المقام والجامع، لما كان له من العلم والتقوى والكرامات. وشرع بالدعاء.

عندما انتهى الشيخ من أدعيته، سأل: خير يا أختي؟

دمعت عينا دنّورة وتهدّج صوتها، تلعثمت، حاولت الكلام

فخانها صوتها، أحسّت أنّ يدًا قويّة تقبض على حنجرتها وتهصرها، جاهدة حاولت لكنّها لم تفلح، فراحت تجهش ببكاء مرير، كأنّها تنزف قلبها دفعة واحدة. تمتم الشيخ مستغفرًا ربّ العالمين، مستعيذًا به من الشيطان الرجيم، طالبًا منه أن يغمر هذه العبدة الفقيرة إليه بواسع رحمته. تدخّلت أمّون شارحة للشيخ حالة الصغير، فدعاهما لدخول غرفة الضريح، ليتركا الصغير إلى جانبه عدّة ساعات، يغفو تحت ملاءة خضراء تتدلّى من جانبه، لا بدّ من أن يستجيب سيّدي المغربي الذي لم تغادر روحه المكان، فهي تحوم حوله منذ وفاته، وهو يظهر إلى الناس في نومهم، يستمع إلى معاناتهم، ويشفع لهم عند ربّ العالمين.

غرفة الضريح تعلوها قبّة دائريّة مرفوعة على أربع قناطر، تزيّن جدرانها اثنتا عشرة نافذة صغيرة، فوق كلّ واحدة منها قنطرة ناعمة، تدخل النور بهيًّا إلى الغرفة محمولاً على برودة لطيفة. وقفت المرأتان مبهورتين بهذا الجلال الصامت، مقابلهما المحراب في الوجه القبلي يتوسّط نافذتين، وفي كلّ جدار من الجدران الباقية نافذتان مستطيلتان، يفصل بينهما باب في الجدار الشمالي.

في الضريح رونق وبهجة، يبثّهما النور المشرق المنسرب من نوافذ القبّة التي تعطي انعكاسات بهيجة لنور السماء فوق الأرض والضريحين، وتمنح الأخضر المدهونة به الغرفة لون الحياة الزاهية. يرتفع القبران في وسطها بمهابة تجلّلهما الملاءات المصنوعة من قماش نفيس، وبسط صغيرة مطرّزة بآيات قرآنيّة.

في هذا الجوّ من المهابة طافت دنّورة بصغيرها حول الضريح

مرّات عديدة، تتمتم ويرتفع صوتها بين الحين والآخر: يا ربّ. تحاذيها أمّون بتأثّر وخشوع مماثلين، ثم ركعت على الأرض ووضعت صغيرها بمحاذاة القبر، ملاصقًا لجداره، رافعة طرف الملاءة فوقه. كان الطفل شاحبًا، يتنفّس بسرعة، تسمع دنّورة أنينه الهامس فتناجيه في سرّها: يا تقبرني. ستعيش بشفاعة سيّدنا وأنت بين يديه، ستعيش، جهّزت لك كثيرًا من الأشياء التي ستفرحك عندما تكبر، سأبقى طيلة عمري أركع عند قدميك يا غالي، فقط افتح عينيك وانظر إليّ، أنا أمّك يا عزّو، أرجوك يا نور عيني لا تبتعد، نم بهناءة القرب من سيّدنا وانتظر، سوف تشفى، وسوف نعيش أيّامًا حلوة يا حبيبي. ثم تنسحب ببطء بعيدة عنه، تخرج مع أمّون إلى صحن الجامع، وتترك صغيرها مع الشيخ في الغرفة، يقرأ أمامه آيات من القرآن الكريم، وهي تتلظّى فوق جمر فؤادها المحترق باللوعة، تستعجل الوقت، تتمنّى أن تغمض عينيها وتأخذها غيبوبة ثم تعود فجأة لترى عزّو يبكي، مجرّد بكاء بصوت مسموع، حتى تطمئنّ إلى أنّه يتعافى.

رجعوا إلى البيت، نام الصغير ليلتها حتى الفجر، كان قلب دنّورة يرقص فرحًا، الحمد لله، شكرًا لك يا ربّ، أكملْ معروفك يا سيّدنا المبارك وخلّصْ ابني من محنته، ارحمه وأدخله الحياة معافى. والله حرام، عزّو لم يرتكب معصية بعد، امنحه فرصة الاختبار يا ربّي، وبعدها عاقبه إن لم يكن من عبادك الصالحين. ثم تعود إلى صمتها.

مرّت أيّام قليلة، والوليد على حاله. كانت دنّورة تبقى صامتة،

والحزن يلجم لسانها، تستشعر خطرًا يهدّد صغيرها، لكنّها لا تدري من أين تواجهه، ها هو الختّان يأتي كلّ يوم ويكشف على الصغير، يطبّق علاجاته التي خبرها جيّدًا بعد أن تعلّمها من والده، حمّود نفسه يشهد له بالحكمة، فماذا عساها تفعل بعد كلّ هذا؟

لم يكن لدى دنّورة ما يشغلها عن العناية بعزّو، كما لم يكن لديها ما يملأ وقتها، بعد أن يغادر زوجها منذ الصباح الباكر ليبحث عن رزقه، وكانت تحرص على أن تهتمّ بغذاء عزّو، فتقتصد في طعامها، وتوفّر رغيفًا للغد، وبضع فرنكات لتشتري له بيضة وقليلاً من الحلاوة. لكنّ الصغير كان يذوي، يرفض الطعام، يتقيّأ ما تجبره على تناوله، صارت تعتريه حالات من التشنّج تزداد باطّراد، يتقوّس معها ظهره، ويكزّ على أسنانه، وينضح عرقًا بعد كلّ نوبة حمّى، إلى أن دخل في غيبوبة نهائيّة. كانت دنّورة وحيدة في البيت، احتضنت الصغير وراحت تضمّه بقوّة إلى صدرها، تلفّه بالأغطية، تعاند البرودة التي تتسلّل إلى جسده، تريد أن تُبقي على حرارة الحياة داخله، تأبى أن تنكسر أمام الموت، تضمّه بقوّة كأنّها تريد أن تُدخله صدرها، والبكاء المفجوع يخنقها فينفلت فحيح من أعماقها. لم تصرخ، لم تطلب نجدةً من أحد، ولم يسمع بكاءها أحد غير شجرات الكينا التي كانت تترنّح يمينًا ويسارًا. كانت البيوت الأخرى ما تزال بعيدة، ولم تنته النسوة بعد من أعباء بيوتهنّ كي يحضرن للسؤال عن الصغير. مات الصغير بإنتان جرحه.

سكن الحزن قلب دنّورة. كانت تقضي لياليها مؤرّقة، تتذكّر ابنها عزّ الدين، تكابد ألم حنقها على شيء غامض له سطوة

مرعبة، إنّه الموت. لم تكن تستطيع التسليم بعجزها أمامه، كيف اختطف منها صغيرها ولم تستمت في معاندته وسحب عزّو من بين يديه؟ كانت تتقلّب في ليالي سهادها على الفراش الممدود فوق الأرض، تنظر إلى حمّود النائم بقربها يشخر، ترتسم على وجهه في عتمة الغرفة المكشوفة على ضوء القمر، ملامحُ تتبدّل، وهي تراقب، تتنازعها مشاعر متباينة تجاهه، هو الوحيد الذي يشاطرها الحياة، الخيمة التي تتظلّل هي بفيئها لتردّ عنها البرد والحرّ والوحشة. هو زوجها الذي تتوجّب عليها طاعته، واللجوء إليه في كلّ شيء، طالما أنّ المعرفة تجمّعت لديه. ألم يدخل المدرسة ويتعلّم القراءة والكتابة، وهي حُرمت منها؟ ألا يخرج إلى العمل ويجوب الشوارع والأحياء، يلتقي بالناس، ويتعرّف إلى أنماط الحياة، ثم يأتي مساءً بينما تكون في انتظاره ليحكي لها الأعاجيب عن ذاك العالم المجهول الذي تسحرها حكاياته؟ كانت تشعر باليقين بأنّها لا تستطيع العيش بدونه، لكن لماذا لم يدفع الموت عن صغيرها؟ لماذا أتى بذاك الرجل ليقطع من صغيرها جزءًا من جسده ويفتح للموت ممرًّا إليه؟

أفاق حمّود مرّة فرآها تجلس أمام النافذة في منتصف الليل، انتفض جالسًا، وأقبل يراقبها، لكنّها ظلّت واجمة بنظرتها التائهة في الفراغ. ناداها:

ـ دنّورة!

لم تنتبه إليه، ناداها مرّة أخرى، التفتت نحوه، وبقيت صامتة.

ـ تعالي هنا، ما بك؟

أزاحت نفسها من دون أن تقف، وأخذت تتقدّم نحوه وهي تدبّ كصغير على أطرافها، ثم استوت إلى جانبه. كانت تتنهّد بعمق، كأنّها تستنجد بالهواء وهو ينفد من جوّ الغرفة، ربّما لم تكن تريد الكلام، لكنّ حمّود أصرّ عليها:

ـ ماذا هنالك يا امرأة؟

ـ لماذا تركت عزّو يموت؟

ـ أستغفر الله. هذا اسمه كفر، في عاقل بالدنيا يعارض حكم الربّ ويسأل لماذا الموت؟ ولك ما بتعرفي أنّ الموت حقّ؟ ثم أوّل واحد يموت هو؟ هو ابني مثل ما هو ابنك، وحرق قلبي مثلك، لكن الحمد لله على بلواه.

ـ لماذا أتيت بالمطهّر؟ يعني ما كان الولد يستحقّ العيش بلا ما ينذبح بهذي الطريقة؟

ـ هل جننتِ؟ كيف يكون ابننا مسلمًا طاهرًا، ورجلاً عندما يكبر، بدون أن يتطهّر؟

ـ ألم تقل لي إنّ الأجانب لا يتطهّرون؟ ألا يعيشون مثلنا وأحسن؟

ـ خلص يا مرا، لا ترمي كلامك يمينًا وشمالاً، والله لست عارفة نفسك ولا بماذا تجدّفين، أستغفر الله العظيم. يلّا، تعالي نامي ويكفي جنونًا.

أدار لها ظهره، وغطّ في نومه، وهي تستلقي بجانبه، تزداد حيرة وحنقًا.

عندما نهض فجرًا من نومه، أسرع يتوضّأ ويتمتم مستغفرًا ربّه، وهو يتذكّر الحديث الذي دار بينهما. أستغفر الله، مثل حكي المجانين، يا الله، لن يؤاخذها الربّ، دنّورة امرأة فقيرة العقل، غدًا تنسى، عندما يمتلئ البيت بالأولاد، سوف ينسونها عزّو وأبو عزّو. داهمته رغبة مفاجئة بها، كان يغرف الماء بطاسة فضّيّة من الجرن، ويدلقه على جسده، استعجل الوضوء، ونهض إلى صلاته، ثم دخل عليها وأخذ يتملّى جسدها النحيل. كانت نائمة على جنبها الأيمن، رافعة ذراعها الأيسر إلى رأسها، تغطّي به أذنها، كمن ينوي صدّ سمعه عن أيّ صوت، متوسّدة ذراعها الأيمن، يتكوّر ردفاها، ومؤخّرتها مدفوعة إلى الخلف قليلاً، وفخذاها معطوفتان إلى بطنها. اشتهاها حمّود، لم يستطع مقاومة رغبته بها، الوقت ضيّق أمامه، إن تأخّر لن يلحق السوق، إنّما لا يستطيع معاندة شهوته التي راحت تأكله: الآن وقتك أنتِ؟ العمى شو صاير بالدنيا؟ كنت طوّل بالك عليّ حتى أرجع المساء، ما كان أحسن لك ولي؟ كان يكلّم نفسه ويده تتحسّس عضوه المتمرّد عليه. يالله. لن تخرب الدنيا، ما سمعت المثل ماذا يقول: لو تجري جري الوحوش، غير رزقك ما بتحوش. نومة مع ها العفريتة التي قلبت عليّ الدنيا نكدًا وهمًّا تساوي كثيرًا، سأجعلها تنسى، لازم تعرف أنّ الحيّ أبقى من الميّت، وأنّ الذي أرسل عزّو كريم ويبعث غيره، ثم ماذا لنا بأولادنا؟

كان قد انتهى من خلع سرواله بعد أن أعجبته الطريقة التي يفكّر بها، وأحسّ بالرضا عن نفسه، فازدادت شهوته، واستبدّ به شبقه، فانبطح خلفها، وأحاط خصرها النحيل بساعده، وراح ينهال

على جسدها بالتقبيل واللحس والعضّ، ويشدّه باتّجاهه، يهصرها بين ساعديه المفتولين، ينغرز عضوه الناتئ في مؤخّرتها، ثم بحركة سريعة وخفّة بالغة، أدارها صوبه، واعتلاها، مولجًا فيها. لم تستوعب دنّورة ما يجري، كانت بالكاد دخلت ملكوت النوم، أغمضت عينيها بشدّة، كان ذراعاها منسدلين إلى جانبيها باستسلام تامّ، وتكشيرة مبهمة على وجهها، حمّود يلهث فوقها، وجسدها ينتفض تحته مع اندفاع جسده فوقها. قضى وطره، ثم نهض عنها متعرّقًا، وأسرع يرتدي سرواله، مستبشرًا بيوم مختلف، فتح باب الزريبة على البغل، وضع التبن أمامه وأخذ يعاين العربة بينما ينهي البغل طعامه.

* * *

لم تجدِ محاولات حمّود معها، ولا زيارات النسوة المتكرّرة لمواساتها، علّها تنسى مصابها. كان الرفض يأكل ضلوعها، لكنّها ضغطته في أعماقها، وهي تصارع الحياة كما يجب أن تعيشها مع زوجها والآخرين.

لم يطل الوقت، حتى بدأت تستولي عليها أعراض الوحام، كانت تتقيّأ بشدّة، حتى توشك أن تلفظ أحشاءها، يستبدّ بها القرف من كلّ شيء، لكنّ غاية ذلك كانت رائحة جسد حمّود، هذا الثور النهم، الذي لا يكتفي من شيء.

كان حمّود يأتي قبيل المغرب إلى البيت، يتناول طعامه، ثم يغادر ليلتحق بالرجال الذين اعتادوا أن يجتمعوا أمام دكّان أبي تحسين، في الفسحة الّتي أخذت تتحوّل إلى مقهى مع الزمن. كانت

واجهة الدكّان تطلّ على البحر، تفصلها عنه تلك الفسحة الترابيّة التي تنتهي على حدود الطريق الذي يلتفّ حول الحيّ. صار يطيب للرجال اجتماعهم المسائي عنده، خاصّة في أيّام الصيف حيث يطول النهار وتطول معه أوقاتهم التي لا يعرفون كيف ينفقونها بعد أن ينتهوا من أعمالهم، ورطوبة نسمات البحر تنعشهم وتنشلهم من خمول الحرّ والدبق، فتتبدّل أمزجتهم ويشعرون بأهمّيّتهم كرجال هم أسياد أسرهم ومصائرهم.

صار أبو تحسين يضيف أعدادًا جديدة على كراسي القشّ التي يملكها، واشترى بعضًا من الطاولات الصغيرة، ووزّع الكراسي حولها. كما اشترى موقدًا يغلي عليه أباريق الشاي، ولم يطل به الوقت حتى دخلت النراجيل محلّه، وتحوّل المكان إلى مقهًى يجتمع فيه الرجال بعد صلاة المغرب، يتسامرون، ويتبارون بسرد نوادرهم، ليتفرّقوا في نهاية سهرتهم كلّ إلى سردابه، وما ينتظره من هموم واهتمامات.

لم يكن حمّود يتغيّب ليلة واحدة عن المقهى، بل كان آخر من يغادره كلّ ليلة، غافلاً عن دنّورة التي تقضي ساعاتها وحيدة، تجترّ ذكرياتها الأليمة، تبكي طفلها الذي كانت تلاحق طيفه بين أرجاء البيت أحيانًا، وتتقيّأ فرحها إن أحسّت برعشة خفيفة منه تسري في كيانها. كانت تمضي ساعاتها الطويلة تصارع وحدتها وأوهامها وخيالاتها، تنادي صغيرها في سرّها، وقد تناديه بصوت مسموع تقطعه التنهّدات الحارقة، يندى جسدها الواهن بعرق بارد، تتقلّص معدتها، تدور بها جدران الغرفة، تشعر أنّ في أحشائها شيئًا يتشكّل

ويكبر، يفتح فمه ويصرخ بها جائعًا، يكاد أن يلتهمها، فترتمي منهكة على أرض الغرفة، عاجزة عن أن تقدّم له شيئًا، فيمتصّ جسدها بأنانيّة الحياة وقوّتها، ودنّورة ينحلُ جسدها ويشحب لونها، وتقبع في الظلام وحيدة أمام قدرها، حتى يأتي حمّود من سهره، لتقوم بتحضير طعامه، تراقبه وهو يقبل على الطعام بشهيّة نهمة، كأنّها ترى مخلوقًا غريبًا تكاد لا تعرفه، ويختتم ليلته بالنوم معها وتقليبها كما يهوى، ثم ينقلب على ظهره ويدخل النوم من أوسع أبوابه. لا تمضي أكثر من دقائق قليلة حتى يبدأ شخيره يتصعّد في الفراغ الأسود الذي يغمرها، وهي تتقلّب على أشواك وجودها الحزين، تشعر أحيانًا بكره تجاهه، بل أكثر من ذلك، كانت فجأة تشعر بالغربة والوحشة، تنظر إليه وهو مستلقٍ بجانبها يعلو شخيره فتهتزّ الجدران له، تسأل نفسها: من هذا الغريب الذي يستلقي بقربي؟ تشعر بالخوف، تداهمها رغبة بأن تفتح الباب وتعدو هاربة في ظلام الليل، قبل أن يفيق هذا الغريب الذي لا تعرف كيف وصل إلى عالمها جالبًا معه همّ الحياة وخوفها وقلقها. تبقى دنّورة تتقلّب في عوالمها إلى أن يدركها النوم، فتدخل دورة الحياة من جديد مع بزوغ شمس النهار التالي.

ـ ٤ ـ

كان إلقاء الزبالة يستمرّ طيلة النهار، بالرّغم من التحذيرات التي تُكتب على الحاويات بضرورة التقيّد بأوقات رميها، والإنذارات التي تُنشر في الصحف الرسميّة حول الموضوع، مع تحميل المخالفين كامل المسؤوليّة وما ينجم عنها من عقوبات. إلّا أنّ الواقع كان مغايرًا تمامًا.

كان جمعة لا يفتأ يخاطب نفسه ملتفتًا كعادته إلى حماره، كأنّما هو واثق من إصغائه، وموافقته على استنتاجاته: شفْ ولك أبو طافش، كلّ ما يكتبون من تحذيرات حتى يخوّفوا الناس ويجعلوهم منضبطين قليلاً، ما في فائدة، لو كان هناك وقت محدّد لرمي الزبالة، كان شغلنا أريح، ليس مثل حالتنا هذه ندور من الصبح للمساء لنلحق النبش خلف الناس. وما زالوا يقولون الحكومة يدها طايلة، والناس يرتعبون من كلّ كلمة يحكونها. والله شايف أن لا أحد يردّ على هذه القوانين. حتى المسؤولون ليسوا مهتمّين، شغلهم هو إصدار الفرمانات، ثم يديرون ظهورهم وكأنّهم قاموا بالواجب وانتهوا. والله أنتم تُحسدون يا حمير على حياتكم

من كثرة ما هي مرتّبة، ومنظّمة، يا ترى أنتم هكذا بجدّ يا أبو طافش، أم لأنّنا نحن نرفع العصيّ فوق رؤوسكم؟ يعني لو أرخينا يدنا قليلاً سوف تنفلتون مثلنا، وتغدون غير عارفين الشرق من الغرب، ومبسوطين بحالكم، أم سوف تبقون مثلما أنتم عليه، تعيشون براحة بال وحياتكم منظّمة؟

التفت جمعة إلى أبو طافش مع آخر كلمة قالها، فأغاظه أنّ الحمار لم يكن مباليًا، هكذا تراءى له، فلكزه بخاصرته، يتحرّش به كي يتفاعل معه، لكنّ الحمار على غير عادته، حرن ولم يكترث به.

يعني لماذا لا تتركني أسرح قليلاً مع أفكاري يا صاحبي؟ لماذا هذه الأنانيّة عندكم يا بني آدم؟ تريدون أن تضعوا أيديكم على كلّ ما يدبّ ويمشي! والله لو تفكّرون بمستقبلكم بطريقة ثانية لكنتم أسعد بكثير، لكن ما الفائدة؟ من منكم سيسمع نصيحة حمار؟ نحن بالنسبة إليكم للشغل والتحميل، والمسخرة، كلّما واحد منكم فكّر أو تصرّف بطريقة غبيّة، تعيّرونه بأنّه حمار، بل إذا نوى أحدكم أن يسبّ الثاني يقول له يا حمار. الله يسامحكم، أصلاً أنتم تستحقّون الشفقة. فقط اتركني بحالي أرجوك، فأنا يعنّ على بالي أن أسرح مع أفكاري. لست متفرّغًا لقصصك الآن، يكفيني أنّني أمشي خلفك طوال النهار، وأنت تجرّني بهذا الحبل وأنا لا أعترض، والحمولة دائمًا تزداد. فقط أحبّ أن أعرف ما الفائدة التي تحصّلها من الكتب والجرائد التي تلمّها؟ شفت كيف لمّا تقدّمت للوظيفة رفضوك مرّة ومرّتين يا صاحبي، تعرف أنّ قلبي آلمني بسببك؟ أفهم أنّ هذه الكتب والمجلّات تسحبك إلى مطارح ثانية، تنسيك حالتك

قليلاً، لكن يا صاحبي ليست هي البديل. لا تفتكر أنا أنصحك، أعرف أنّه لا يحقّ لي، أنا كيف ما كان حمار، لكن أتمنّى أن تعرف أنّنا نحن أيضًا، معشر الحمير، فهمناكم بعدما عاشرناكم، وأنتم تظنّون أنفسكم أنّكم فهمتمونا طالما نحن تحت سيطرتكم، أنتم تستدرّون عطفي عليكم يا صاحبي.

كان جمعة يعرف أنّ الذروة بالنسبة لرمي الزبالة تتغيّر من حيٍّ إلى آخر، مثلما تتغيّر محتوياتها، وكمِّيّاتها. إنّما شارع مثل شارع الجمهوريّة، الذي تتبدّل هويّته عدّة مرّات قبل أن يشرف على نهايته، صار له نظامه الخاصّ، ففي القسم العلوي منه، تمايزت الأبنية بشكل لافت عن قسمه السفلي، إذ إنّها تكتسي بالحجر الأبيض، وفيها لمسة خجولة من التناسق الهندسي والنظام المعماري، عدا أنّ المحلّات المتخصّصة بالسمانة وبيع الخضروات والفرّوج قليلة، وهذا ما يمنحها مسحة من النظافة الوهميّة، إلّا أنّ هناك بعض البيوت القديمة التي لم يحن موعد بيعها وهدمها من أجل النهوض بعمارات كبيرة، بانتظار ارتفاع أسعار العقارات في فورة جنونيّة أخرى تفوق الفورات السابقة، هذه البيوت ما زال ساكنوها يتمسّكون بعاداتهم الحياتيّة القديمة. وفي المحصّلة لاحظ جمعة أنّ رمي الزبالة في هذا الجزء يتمّ غالبًا صباحًا بين السابعة والثامنة، وقت انطلاق الرجال إلى أعمالهم، يحملون معهم أكياسهم ويهبطون السلالم، أو ربّما المصاعد، ليرموها في طريقهم إلى الحاويات التي تغصّ بعد وقت قليل ولا يبقى إلّا الفضاء حولها مرتعًا للأكياس المتأخّرة، وهذا ما كان يمنح جمعة حرّيّة أكبر في النبش والتفتيش.

عندما كان يمشي باتّجاه الحاوية التي هزئ من العبارة المكتوبة عليها، كان في طريق العودة، أي أنّ مرحلة الصعود سوف تأتي في نهاية مشواره، وهذا ما سوف يحمّل الحمار عبئًا إضافيًّا بعد أن تكون حمولته قد ازدادت، لكنّ جمعة مجبر على اتّجاهه هذا، لأنّ طريق البحر، حيث اعتاد أن يجلس متأمّلاً، ثم العودة إلى بيته، تجبره على اجتياز هذا الشارع وتحمّل أعباء الصعود، فلو اتّخذ الطريق الآخر الذي يلتفّ حول المدينة، من جهة الكورنيش الغربي، سوف يأخذ كثيرًا من الوقت، وهو لا ينوي أن يفوّت على نفسه مسلسل باب الحارة، وبما أنّه يعرف أنّ رمي الأكياس في القسم السفلي من الشارع يبلغ ذروته بعد العصر، أي بعد عودة الأولاد من المدارس، حيث يحمّلهم الأهالي أكياسًا بحجمهم، معظمها مثقوب يرسم خلفه خطوطًا متعرّجة، تبدأ من أمام البيت وصولاً إلى مقرّ جبل الزبالة، وقد يحملون تنكاتٍ قديمة من دون تبطينها بأكياس، أو سطولاً بلاستيكيّة صار محيطها كلوحة بانوراميّة سرياليّة بسبب تراكم الأوساخ عليها مع الزمن. لذلك كان الوقت المفضّل لجمعة من أجل العودة الظافرة هو هذا الوقت، لكنّ هذه الطريقة في رمي الزبالة كانت تتطلّب منه مجهودًا أكبر بسبب اختلاطها بعضها مع بعض.

لم يكن أبو طافش يستلطف هذا الجزء من الشارع الطويل، لذلك كان يحدّث نفسه أثناء تجواله مع صاحبه، وهو يتأمّل الأبنية بين وقفة وأخرى أمام الحاويات: ما هذه البيوت؟ عمارات مكوّمة متلاصقة من أوّل الشارع لآخره. والله لا يوجد معلّم باطون يرضى بأن يقول إنّه هو من صمّمها ونفّذها. من يقبل على نفسه أن ينسبوا

إليه أعمالاً قبيحة كهذه؟ لكن ما يحيّرني أنّ الشارع صُمّم ونُفّذ هكذا على أيدي مهندسين مسجّلين بالنقابة، والبلديّة صادقت على المخطّطات، ووقّعت عليها ضابطة البناء وكلّ الجهات المسؤولة عن التراخيص، ونفّذوا هذا الشارع الكبير. ليس هذا فقط، بل عملوا على شاكلته حارات ثانية بشوارع أضيق، كأنّهم يأملون في المستقبل أن يستعيض البشر عن السيّارات التي لا تجد مواقف لها، بسيّارات أخرى يستطيع الفرد أن يطويها آخر النهار ويطلع بها إلى بيته، يضعها بالخزانة إلى اليوم الثاني. معهم حقّ يا أبو طافش! بماذا تخرّف أنت؟ لازم يأتي هذا اليوم، لأنّ المسؤولين لا يخطئون، والشعب يثق تمامًا بوسع حيلتهم، وشطارتهم بالتدبير، أكبر دليل هو ما نراه في شوارع البلد من جسور وأنفاق، تلك التي يسمّونها عقدًا مروريّة، أهلكونا فيها من كثرة الحفر والغبار والزحمة، مع أنّه عندما ينتهون منها تزداد الزحمة، ويتوقّف السير في محلّات كثيرة بوسط البلد، لكن لماذا الإنكار؟ هذه الجسور والأنفاق التي تنفّذ دليل على أنّ المسؤولين يفكّرون بالغد، ولا يتركون الوضع على ما هو عليه، أمّا إذا كانت الحياة تتعقّد بسرعة، والبشر يزيد عددهم، والسيّارات تزداد في الشوارع أكثر من قدرة الشوارع على أن تحتويها، فهذا ليس ذنبهم، هم يشتغلون، الله يعطيهم العافية، إنّما لا يفكّرون بشكل صحيح.

الاكتظاظ السكّاني في هذا الجزء من شارع الجمهوريّة سوف ينجم عنه تنوّع في محلّات الخدمات التي يفترض أن تؤمّن متطلّبات الأفواج البشريّة المتزايدة، لذلك تصطفّ المحالّ التجاريّة المتنوّعة متلاصقة بنفور عجيب، إذ يمكن أن تجاور الصيدليّة محلّ فراريج

الحواضن التي تأتي بأقفاص بلاستيكيّة مفتوحة، فبرغم كلّ شيء لا يمكن لهذه المخلوقات التي تُساق إلى الذبح يوميًّا أن تفكّر بالفرار. إنّها مدجّنة بكفاءة عالية، فتراها تجثم بسكون تامّ في كفّة الميزان قبل أن تُنحر ويُلقى بها إلى برميلٍ تتوسّطه شفراتٌ تدور بسرعة حول محورٍ ينغرز في قاع البرميل، تقوم هذه الشفرات بنتف ريشها قبل أن تستوعب صدمتها، وتنزلق إلى غياهب الموت، إذ تبقى أصواتها هنيهات تختلط مع صوت دوران الشفرات وارتطام أجسامها بجوانب البرميل، ثم تتلقّفها الأيدي بمنتهى الخفّة لترميها في قدر من الماء الساخن، متجاهلة أنّ حياة كانت تشغل حيّزًا من الكون قبل لحظات، اختفت، وبقيت الأشياء وحدها تشي بمرورها في زمن ما. وفي الشارع تتزاحم محلّات الأطعمة الشعبيّة من فول وفلافل، وأخرى تعرض أمامها أسياخ الشاورما العملاقة، تدور على محورها مقابل النار، معرّضة للغبار ودخان السيّارات، بالإضافة إلى تلك التي تتصدّر واجهتها أفران الشواء ذات الواجهات الزجاجيّة، تعرض الفراريج المعلّقة على أسياخ تخترقها وتدور بها أمام النار.

انتبه جمعة إلى أنّ كمّيّات الزبالة ازدادت كثيرًا مع بدء شهر الصيام، لكنّها بقايا غير مفيدة بالنسبة له، ما عدا بعض المخلّفات البلاستيكيّة التي تستعمل في صناعة الأغذية، من قنانٍ وغالونات، وعلب العصير، على حساب البقايا الأخرى التي كان يعوّل عليها لأمور تخصّه. إلّا أنّ غنى الحاويات بعلب المياه الغازيّة عوّض عليه قليلاً من خسارته، فقد اعتاد على جمعها لحسابه الخاصّ، مثل أشياء أخرى كان يحتفظ بها لنفسه من دون أن يعرضها على

جامع الخردوات الذي يلتقي عنده النبّاشون.

مرّ من أمام محطّة القطار في طريق عودته من مشوار البحر، حيث اعتاد أن يأخذ قسطًا من الاسترخاء والتأمّل. كان الحمار يشعر بالشبع بعد الوجبة التي قدّمها إليه جمعة أمام البحر، كي يلهيه عنه ويتركه متوحّدًا في طقسه ذاك، لكنّ النعاس بدأ يدبّ في جسد أبو طافش بعد المشوار الطويل ووجبته تلك، إذ تباطأت حركته قليلاً. كان مثل هذا الروتين اليومي قد صار جزءًا أساسيًّا من حياته، بل صار هو الشكل الوحيد للحياة، اعتاد عليه وركن لحتميّته. أمّا جمعة فلم يهمل أيضًا الوقوف على الحاويات التي يمرّ بها، خصوصًا عندما انعطف إلى اليمين منحدرًا مع الشارع الذي يحاذي مراكز الانطلاق، من بولمانات وسيّارات أجرة، وما يصطفّ على طوله من محلّات غالبًا على علاقة بالطعام وما يحتاجه المسافرون. كانت الحاويات هنا غنيّة بعلب المياه الغازيّة، والجرائد والمجلّات، جمع منها ما استطاع جمعَهُ، وكان حانقًا، يتمتم على مسمع حماره عبارات الاستنكار التي لا تخلو من بعض الشتائم، بسبب اختلاط البقايا، ممّا يعرّضه، لولا حذره الشديد الذي تعلّمه بالتجربة، إلى حوادث قد تكون مؤذية له، أو حتى خطيرة، فالزجاج المكسور المخلوط مع كلّ أنواع النفايات في الأكياس نفسها كان كفيلاً بجرحه أو قطع أوتار يديه، أو عروقها، لولا أنّه تعلّم كيف يستخدم عصاه أوّلاً في استطلاع الأكياس، ثم يقوم بنبشها بيديه.

بعد الكراجات لم يكن هناك ما يغريه بالوقوف، فبناء الريجي

الكبير بأسواره العالية يشغل مساحة كبيرة من المكان، حيث لا توجد أمامه حاويات. ربّما كانوا يتخلّصون من نفاياتهم بطرق خاصّة، غير أنّ الفسحة التي تحاذي السور العالي للبناء، ويسوّرها جدار قليل الارتفاع يفصلها عن الرصيف، كانت تعلو فيها الأعشاب البرِّيّة، تزيّنها الفضلات الملقاة التي تتناثر على الأرض، أو تتعلّق على ذرى النباتات البرِّيّة المعربشة. كان الحمار ينتبه إلى الجرذان التي تنطلق مسرعة، تتغلغل بين سيقان الأعشاب والبقايا المتراكمة، ورائحة التبغ المعتّقة تنتشر في الفضاء. أمّا جمعة فكان قلبه ينتفض كلّما مرّ من أمام البناء، بعد أن علم منذ مدّة أن جميلة تعمل فيه. هو لم يكن متأكّدًا من هذا الخبر، ولم يكن يعرف كيف يسأل عنها، بعد أن هدّدها أبوها منذ سنوات فيما لو فكّرت مجرّد تفكير بهذا السَّقط، كان يعتبر جمعة رجلاً ناقصًا، وهو لا يرضى لابنته زوجًا مثله. ألا يكفيه فقره، حتى يقبل عاهته؟ هكذا قال لها، ولم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها. كانت قد هجرت ساحة اللعب منذ أكثر من أربع سنوات، تمكّنت خلالها من التسلّل من البيت مرّاتٍ محدودة لتلاقي جمعة الذي يكبرها بثلاثة أعوام.

انعطف نحو أوتوستراد الزراعة، صاعدًا باتّجاه الدوّار، حيث سينعطف عند أوّل إشارة نحو اليمين، باتّجاه المقاهي التي وزّعت شاشات عرضٍ كبيرة أمامها، على عدّة جدران، تصطفّ الطاولات أمامها على الأرصفة التي ضمّتها إليها، والكراسي تتحلّق حول الطاولات على شكل المربّعات المفتوحة.

هنا سوف يكونِ بإمكانه أن يتابع المسلسل، كأولئك الناس الذين يملؤون المقاهي. لكنّه ليس مثلهم، فهم شباب وصبايا بألبسة

مختلفة. تتزيّن البنات بزينات متنوّعة، بشعورهنّ الملوّنة، وخدودهنّ المنتفخة، وشفاههنّ البارزة المتورّمة، وكانت تلفت جمعة وهو يجوب الشوارع، ويمرّ أمام المقاهي هذه الأشكال المتشابهة للفتيات، حتى يكاد المرء ألّا يحفظ وجه الواحدة منهنّ إلّا بعد أن يلتقي معه مرّات عديدة. كلّ الصبايا صرن يشبهن بعضهنّ بعضًا، لكن هناك في حارته، يمكن تمييزهنّ من خلال وجوههنّ، حتى لو كنّ متشابهات بأزيائهنّ والألوان التي يرتدينها.

كان معظم الشباب يوقفون سيّاراتهم وينزلون إلى المقهى، مثلما لو كانوا جميعًا على موعد، وكانت النراجيل تتربّع بين الطاولات، لا أحد يكلّم الآخر، كلّهم يتّجهون إلى الشاشات، وينفثون الدخان. أنّى لجمعة أن يجلس مثلهم على طاولة، وأن يأتيه النادل مبتسمًا، ينحني أمامه، ويعرض خدماته، لن يستطيع أن يشرب كوبًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة التي تسبقها رائحة الهال، حتى ولا أن يطلب نرجيلة. من سيسمح له بالدخول وهو على هذه الهيئة المزرية؟ والحمار؟ ألن يكون مشكلة من الصعب تدبيرها، فيما لو حدثت معجزة وتحقّق الشرط الأوّل؟

انتحى جانبًا تحت شجرة على زاوية الرصيف المواجه للمقهى، ربط الحمار إلى جذع الشجرة، ثم جلس على الأرض، مسندًا ظهره إلى سور البناء. كانت روائح المقهى المتمازجة محمّلة على سحابات الدخان المتصاعد من النراجيل تخترقه، تحرّض جوعه، تبلبل أفكاره، فهو لم يأكل شيئًا منذ أن غادر البيت صباحًا، بعد إفطاره المكوّن من كوبين من الشاي مع رغيفين وصحن من الزيتون. جاب كلّ هذه الشوارع دون أن يتناول شيئًا

سوى علبة المياه الغازيّة التي قدّمها إليه مهنّا القطرنجي، وأمضى بقيّة الوقت يمجّ السجائر.

لم يكن فيما مضى يتأمّل وضعه وحياته، كان قد اعتاد على تلك الأعمال التي صارت بديهيّة بالنسبة إليه، كأنّما الحياة لا تحتمل وجهًا آخر غير الذي يعيشه. خصوصًا بعد أن عزم على تحقيق حلمه الخاصّ. إنّما عمله في مجال النفايات كان يشغله كما يشغله ولعه بالمعرفة التي لا يملك أسباب الحصول عليها إلّا بلملمة ما تقع عليه يداه من كتب أو مجلّات، وحساسيّته الفطريّة تجاه الحياة، مع ما يلاقيه من فظاعات في طريقة رمي الفضلات أو التخلّص منها.. إلى أن وقع ذاك الكتاب بين يديه يوم مروره أمام معرض الكتب، فدخل في حالة من الدوران حول حلمه، وصار تحقيق هذا الحلم الذي سيوصله إلى جميلة ـ بعد أن صارت ذكرى يحلم بها ويمشي إليها غير آبهٍ بالزمن ـ هو شغله الشاغل.

أمّا الحمار فكان شاردًا، يحلم بالوصول إلى زريبته الصغيرة، حيث سيتخفّف من حِمله، ويقعي على الأرض مسترخيًا، يتنسّم روائح عشيرته وهي تأتيه محمّلة بخطاباتهم وتخاطرهم، معشر الحمير والبغال، تحرّض فيه الشجن والأحلام. كان يتمنّى لو أنّ باستطاعته أن يطوي قوائمه ويرتاح من الوقوف مثل صاحبه، لكنّ الحمولة تعيقه، والظرف لا يناسبه ليفعل، فهو يعرف تمامًا أنّ الحمير لها أمكنتها التي ترتاح فيها، وأنّ أمكنة البشر هذه المكتظّة بهم وبسيّاراتهم وأبنيتهم، وضوضائهم، ليست المكان المناسب للاسترخاء. ثم هو راضٍ عن نفسه طالما يمتلك الصبر، لأنّه يعرف كيف ينفق طاقاته بشكل متوازن، فلا يبدّدها بلا طائل.

كان يغمض عينيه قليلاً، ثم يفتحهما بكسلٍ ظريف، لم يكن ينام، بل يُريحهما من الأنوار الباهرة التي تغتصبُ المساء حتى لم يعد لضوء القمر مكان يستريح فيه. مع كلّ إغماضة كانت أذناه تنعطفان قليلاً إلى الأمام وتتهدّلان بعض الشيء، كأنّما يحاول أن يقتنص عزلة قصيرة عمّا حوله، يمنح معها جسده وروحه فسحة ليجدّدا طاقتهما، هو يعرف كيف يبقى واقفًا على قوائمه مسترخيًا من دون أن يضطرب توازنه.

فجأة انتفض الحمار كأنّما تنبّه إلى شيء، وكان جمعة مشغولاً مع أحداث المسلسل، مأخوذًا به، لم ينتبه إلّا بعد أن توقّف الطنبر أمامه، وإذا ببرهوم المبيّض يعتلي البغل، يشدّ اللجام، ويترجّل عنه مخاطبًا جمعة وهو يلفّ الحبل حول يده:

ـ أنت هنا يا جمعة؟ ماذا تفعل؟

ـ أستريح قليلاً بعد مشوار اليوم.

ـ منذ متى تأتي إلى هنا؟

ـ ما عندي وقت معيّن، لكن قلت لحالي لو أقعد أستريح قليلاً، الدنيا صيف، والجوّ لطيف، أقعد أتفرّج على الناس الآخرين كيف يعيشون.

ـ والله لست سهلاً يا جمعة! لماذا لا تأتي إلى قهوة أبو تحسين مساءً؟ أنا كلّ يوم، بعدما أنتهي من شغلي، أروح إلى هناك وأشوف رجال الحارة كلّهم.

ـ لا أحبّ المقاهي.

ـ جرّب أن تأتي مرّة، سيعجبك الجوّ، ثم إنّ الشيخ يحيى أصبح يجيء كلّ كم يوم، يشاركنا قعداتنا، وينوّرنا بعلمه، والله يا عمّي هو فهيم، كلامه لا يؤخذ عليه، كلّ شيء يفتي لنا فيه صحيح، كلّ الرجال صاروا لا يتصرّفون شيئًا بلا مشورته. تعال يا جمعة، ماذا تخسر؟

ـ طيّب، طيّب، إن شاء الله.

كان البغل الذي يمسك برهوم بحبل لجامه يتقدّم ببطء نحو أبو طافش، بينما أبو طافش يمشي باتّجاهه، حتى صار رأساهما متقابلين وشبه متلاصقين. تغيّرت ملامح الحمار، استعاد نشاطه، وبرقت عيناه، بدا كما لو أنّه امتلأ بهجةً: أين أنت يا ابن الأخ؟ كنت ألتقي بك بين وقت وآخر، صار لي زمان ما شفتك؟ المهمّ خبّرني عنك وعن البقيّة. أنا أعرف أنّكم أنتم جماعة الطنابر تنامون في زريبة واحدة، عند معلّمكم، أمّا نحن الحمير، كلّ واحد لحاله عند صاحبه، أنت تعرف يا ابن الأخ أنّ الطلب علينا قليل في هذه الأيّام، لكن أنتم يركضون وراءكم، يقولون الحصان خالكم، ولا يقولون الحمار عمّكم.

لا تزعل يا عمّ. أنت تعرف أنّنا نحن غير بني آدم، أساسًا أنا صرت أفهمهم تمام الفهم، وحياتك نحن نعيش أحسن منهم، أنت تدور في هذه الشوارع مثلي، وترى ما أراه، يكفي أنّنا نعيش كلّنا بالطريقة نفسها، لكن هم يا لطيف! ما من أحد منهم يرضى بنصيبه، دائمًا يركض الواحد منهم كي يأخذ نصيبه ونصيب غيره، لا يهمّه شيء، يطمع في أن يحوّش الدنيا كلّها ولو على حساب أهله.

أنا أحنّ كثيرًا إلى عيشة البرِّيّة، أحلم بأن أطلع من هذه الدوّامة التي أعيشها. من زمان ما كنت هكذا، الآن كلّ شي صار يدهشني، كأنّي أرى الحياة لأوّل مرّة. كيف كنت أعيش؟ لا أعرف، لكن صرت لا أقدر على الانفلات من حلمي، صارت حياتي لا تعجبني.

يا عمّ! ما بيدنا حياة ثانية، على الأقلّ نحن نأكل ونشرب وننام، ماذا نريد غير هذا؟

بودّي أن أعيش مثلما أنا أحبّ، لا مثلما يريد صاحبي.

نحكي لاحقًا، انظر كيف بدأ يشدّني باللجام، خلصْ، انتهى وقتهم، لازم نحن نكون على كيفهم بكلّ شي، لأنّنا بهائم، هم يظنّون أنّنا لسنا مثلهم، لا نشعر. شوفتك الآن تساوي عندي الكثير، أنا لا أرغب بأن أمشي. انتبه إلى ما سأفعل به هذا البرهوم الذي مثلي لا أحد يعرفه.

استدار البغل قليلاً، حتى صارت مؤخّرته مقابل وجه برهوم الذي كان لاهيًا بحديثه إلى جمعة، وأخرج دفعة من الغازات، أتبعها بقذيفة من روثه على وجه صاحبه. انتفض برهوم كمن لُدغ، وثارت ثائرته، بينما كان البغل يلوّح بذيله أمام وجه برهوم الذي انهال عليه بالسوط وهو يمسح وجهه لاعنًا البهائم، بينما كان الحمار والبغل يدخلان حالة من النشوة المشتركة.

ـ ٥ ـ

عندما بدأت آلام المخاض، كانت دنّورة وحيدة في البيت. لم يكن حمّود قد رجع من سمره أمام دكّان أبي تحسين، فقد كانت أيّام رمضان تضفي جوًّا خاصًّا على السهرة، بالإضافة إلى أنّ أصداء الحرب كانت ما زالت تدوّي، الحرب التي اندلعت في الأسبوع الأوّل من شهر الصيام، ولم يخبُ صداها بعد.

هي اعتادت على غيابه كلّ يومٍ مساءً، بل لم يكن يخطر ببالها أن تعترض أو تناقش. كيف يمكنً أن يحصل أمرٌ كهذا وهو رجل البيت، وسيّده؟ الرجال هكذا بتسليم كامل، من الجنون سؤالهم عن شيء، أو الاعتراض على أمر أمامهم. كانت تمضي معظم أوقاتها وحيدة، تجترّ آلامها، ولا تنسى قطّ طفلها الذي اختُطف من حضنها وهي في ذروة نشوة الأمومة. كانت تتعرّف على أمومتها، تكتشف حقولها الخيّرة، تتدفّأ عليها. كانت تغنّي له، تدغدغه، تداعبه، تلعب معه، بل تكتشف الحياة معه، عندما انقضّ عليهما الموت بكلّ جبروته، ولم تستطع أن ترسم لنفسها دائرة ولو بالطباشير في ساحات الوهم. تعيش كما تشتهي، تلوم كما تريد،

تحتجّ كما ينبغي، بل كانت تذوي ويموت شيء في داخلها. حتى زرّيعاتها غابت عن بالها، بدأ العطش يتمكّن منها، وراحت وريقاتها تذوي، والأصفر يتسلّل إليها أمام عيني دنّورة التي لم تعد تراها، حتى وهي تجلس معظم الوقت أمامها. أمّا حمّود فلم ينتبه إلى أنّ العبير الذي كان يستقبله قبل أن يصل إلى عتبة البيت قد اختفى، لم يلفت نظره اصفرار أوراق النبتات وذبولها، بل إنّه لم يكن منتبهًا إليها منذ البداية، ولم تعنِ له شيئًا ذا قيمة في وقت من الأوقات.

ازداد وضع دنّورة سوءًا في فترة الحمل الأولى، وإمعانًا في تعذيبها، طالت فترة الوحام، كانت تتقيّأ بشدّة، إلى أن صارت تتقيّأ دمًا، اعتراها هزال شديد، وشحب لونها، وبالكاد كانت تحصل على الحدّ الأدنى من الغذاء لها ولجنينها، إنّما حتى هذا الحدّ الأدنى لم يكن جسدها يتقبّله. صارت دنّورة كفزّاعة الطيور، ولم يوفّر حمّود موقفًا إلّا وعيّرها بنحولها، وهي تصمت. لم تكن لديها الرغبة حتى بردّ الإهانة مهما بلغ حجمها. ابتدأ الألم على شكل موجات خفيفة متباعدة في ظهرها، لم تنتبه، وكان الوقت في أوّل المساء. سهرات رمضان تمتدّ غالبًا حتى السحور، ودنّورة تتألّم، يزداد المغص، يتمادى بين ظهرها وبطنها، والعرق ينضح غزيرًا من أنحاء جسدها، اعتراها الخوف، ما الذي يمكنها أن تفعله بمفردها؟ هي بحاجة إلى المساعدة، هي ضعيفة حدّ الاستسلام. الألم يزداد ضراوة، ودنّورة تغتسل بعرقها ودموعها، تهيم في البيت كحشرة تطنّ أمام النار، بل كانت كدجاجة على وشك أن تضع بيضها، يستبدّ بها الألم والقلق والخوف والارتباك، ويزيدها صمت

الليل الذي يخترقه هدير الموج القادم من البحر وحشة وتوجّسًا.

فجأة، وفي لحظة حاسمة، شعرت بخطرٍ على جنينها، تبدّى لها شبح الموت يحوم حول البيت، يخترق بأطرافه المخيفة زجاج النوافذ، يصدّع جدران البيت، يظهر ويختفي مادًّا لسانه العفني مناكدًا إيّاها، بل صارت تسمع قهقهته، وأصداء صوته تترجّع في عالمها. كان ينادي على عزّو، يأتيها صوته مثلما لو كان في مغارة بعيدة. فتحت باب البيت في ذلك الليل الدامس، وانطلقت كالممسوسة تركض في الزواريب. بداية لم تكن تعرف هل تتوجّه إلى دكّان أبي تحسين تنادي حمّود، أم تذهب مباشرة إلى بيت الداية أمّ عارف؟ كيف يمكن أن تذهب إلى دكّان أبي تحسين، وتظهر أمام الرجال وهي على هذه الهيئة؟ لن يغفر لها، لا حمّود ولا أيّ واحد في الحيّ، حتى النساء لن ينصفنها، لكنّ الألم يشتدّ، يكاد يقضي عليها وعلى جنينها، يمسك بها من نقطة عميقة، يتشبّث بأحشائها، يشدّ قبضته ويغرز مخالبه في قلبها، يشفط الهواء من رئتيها، حتى لتوشك على الموت. إنّه الموت بعينه، هذا الضباب الأصفر الذي يتماوج أمام عينيها، يغطّي معالم الفضاء حولها، لم تعد تميّز شيئًا، تلتفّ الآن مع زوبعة صفراء كثيفة، لا تسمع غير الطنين يخترقها من فتحتي أذنيها، ورطوبة البلل تغلّفها، مياه دافئة تسرح من أسفل بطنها، تغسل فخذيها، تسيل على ساقيها، ترتجف ركبتاها، لا تستطيع التقدّم، لكنّها تتقدّم كأنّها تراوح مكانها. لم تعد واثقة من أنّها على قيد الحياة. هي في عالم غريب الآن، عالم لم تعد تتذكّر أين يقع، أو كيف دخلته، بل هل دخلته؟ هو الموت بجبروته، فليأخذها علّها تجتاز برزخًا يوصلها

إلى عزّو. شعرت دنّورة أنّها تسبح في محيط كبير، ترفعها الأمواج عاليًا وتلقيها بقوّة فتقارب القاع، تتلامح لها صورة عزّو من بعيد، تتركه على السطح ويتشبّث بها القاع، تعلق بين أشواك كائناته الغريبة، تصرخ دنّورة، يعلو الصراخ، يصير شهقات احتضار، لا أحد يسمعها، بل تزداد شراسة قبضة الألم على أحشائها. تراخت قواها، لم تعد قادرة على المقاومة. توقّفت لحظة، قرفصت على الأرض، كان الألم قد بلغ حدًّا من الشراسة القاتلة، كان يمسكها من أسفل بطنها، يعتصرها، توشك على الاختناق، لم تعد قادرة حتى على التشبّث بآخر ومضة من الحياة، فراحت تعبُّ الهواء عبًّا كأنّها تريد أن تخزّن منه ما يعينها على الاستمرار فيما لو فُقد الهواء من الجوّ كما تهيّأ لها، ثم تابعت تجرجر قدميها على الأرض.

أخيرًا وصلت إلى بيت الداية أمّ عارف، ولعلّ التشبّث بالحياة في مواجهة الخطر هو ما أوصلها غير واعية لشيء. ارتمت على الباب وراحت تخبطه بقوّة، حين فتح ابن أمّ عارف الباب سقطت على العتبة، بعد أن خارت قواها كاملة، جفل الشابّ وركض ينادي أمّه، جاءت أمّ عارف، أوّل ما رأتها نادت على ابنها الذي توارى في الغرفة الأخرى احترامًا للموقف، ومراعاة للأصول، لكن أمّ عارف نادته بصوت هلِع: تعال ساعدني لنحملها للغرفة الجوّانيّة.

عندما رجع حمّود إلى البيت قبيل السحور ولم يجد دنّورة فيه، وقف كمن صُفع كفًّا على وجهه، انسحب الدم من جسده واستقرّ في رأسه. اعترته حالة من القلق والغضب معًا، هو يعرف أنّها على

أبواب ولادة، إنّما إلى أين تذهب في وقت متأخّر كهذا؟ بل كيف تغادر البيت من دون إذنه؟ لم تخطئ دنّورة خطأً فادحًا مثل هذا في حياتها معه، كانت تؤجّل كلّ شيء تفكّر فيه إلى أن يعود، فكيف يأتي إلى البيت في هذا الوقت المتأخّر ولا يجدها، دنّورة عصت أوامره؟ سوف يعرف كيف يجعلها تلوب على قدميه تطلب الغفران، ولن يسامحها إلّا بعد أن تأخذ عقابها اللازم. في قمّة غضبه وثورته لم يكن قادرًا على مغالطة نفسه، فهو لم يختبر فيما مضى حالة مماثلة. هو يعرف، بل يشعر من دون أن يفكّر بالأمر أنّه لا يخطئ، الرجال لا يخطئون في بيوتهم، أليسوا أرباب البيوت؟ هل يخطئ الأرباب؟

اندفع نحو الباب يهمّ بالخروج كي يبحث عنها، فلاقاه قرعٌ متواصل على الباب، فتحه، فوجد عارفًا أمامه مرتبكًا، ومنفعلاً، أخبره بأنّ زوجته هناك، وأنّها ولدت صبيًّا، وهي الآن ترقد منهكة في بيتهم.

صار حمّود أكثر ارتباكًا، فبالإضافة إلى غيظه وغضبه من عدم وجود زوجته في البيت، شعر بخجلٍ كبير مبطّنٍ بالإهانة. لم يستطع أن يتقبّل فكرة أن تلد زوجته في بيت غريب، كيف يمكن لها أن تصرخ، وتتوجّع، وتنزف دمها في بيت الغرباء؟ حتى لو كان بيت الداية أمّ عارف، أليس ابنها الماثل أمامه الآن شابًّا؟ ألم يسمع صراخ دنّورة؟ ترى هل ساعد أمّه في تدبير الولادة؟ هل انكشفت عليه دنّورة، هل شاهد شعرها، بل أكثر من ذلك، أيمكن أن يكون قد اطّلع على نزيفها؟ راحت الوساوس تنهشه، والغيظ يملأ

صدره، لكنّ ولادة الصبي خفّفت قليلاً من غلوائه، هدأ نسبيًا وأخذ يفكّر بتدبّر الموقف، طلب من عارف أن ينتظره حتى يجهّز الطنبر وسيترافقان معًا، الطنبر ضروري من أجل إحضارها والوليد، لا يمكن أن تمشي تلك المسافة ولم يمضِ إلّا قليل من الوقت على ولادتها.

جاء الولد نحيلاً، فقد تركت حالة دنّورة في حملها نتائجها الواضحة عليه، أدركت منذ البداية أنّ عليها تعويضه عمّا حرمته منه وهو في بطنها، فاندفعت ترعاه كما لو أنّها تقوم بطقوس العبادة. هي لم تنسَ عزّو بعد، ولن تنساه، هذا ما كانت تعرفه تمام المعرفة، حتى لو حاولت تناسيه. إنّه مقيم في أعماقها، تعذّبها صورة مرضه واحتضاره، وهذا ما كان يزيد في إصرارها على التشبّث بولدها الثاني، كما لو أنّ هناك يدًا خفيّة لها خفّة اللصّ، وسطوة جبّارة تتربّص به من خلف أبواب مخفيّة. صارت دنّورة تجترّ الطعام مثل أيّ عنزة، بدون شهيّة، فقد كانت فقدت الرغبة بأيّ شيء منذ تلك الفترة العصيبة، إنّما شعورها بأهمّيّة أن يتغذّى ولدها الثاني، من أجل تعويضه، وتقويته، كي تبثّ فيه الحياة بقوّة، جعلها تأكل وتأكل، والجارات ينصحنها من أجل أن يدرّ ثدياها بالحليب كي يشبع الصغير: كلي قدّ ما فيك يا دنّورة، حشّي. خلّيك عم تحشّي كلّ النهار، لا تتركي شي، خاصّة البقدونس، البقدونس هو وحده يدرّ الحليب. اشربي حليب، اعملي عرايس زيت وزعتر، هذا كلّه يجلب الحليب يا دنّورة.

عندما أكمل عامه الأوّل، جاءها أبوه يخبرها بأنّه سيطلب

الختّان من أجل عبد الرحيم، انتفض الحذر والخوف في أعماقها، لم يستطع حمّود أن يلمس الداء الذي خلّفه طهور عزّو في وجدانها، كانت ترزح طيلة الفترة الماضية تحت ذلك الشعور الرهيب الذي يقضّ مضجعها، بل كان مجرّد ذكر الختّان أمامها يثير هلعها، فدنّورة تدرك أيضًا أن لا مفرّ من الختان، ولن يقبل حمّود، أو غيره من الرجال بوجود صبي غير مختون عنده، حتى ولا الشيخ يحيى الذي لا يخطر لها أن تعرض القضيّة عليه، وإن حدثت المعجزة وعُرضت، فهي واثقة من ردّ الشيخ، وفتواه الملزمة التي لا تخضع للنقاش.

بعد صمت صاخب ردّت عليه: دخيلك يا حمّود طوّل بالك عليه شويّ، تطلّع عليه، الصبي نحيف وصحّته محروفة؟ خلّنا نؤجّل الطهور حتى يربّي صحّة، والله حرام. الآن لا يحتمل.

عندما قبل حمّود بأن يتأجّل الطهور لبعض الوقت، كانت دنّورة قد دخلت متاهة السؤال عن الغد، الغد البعيد، كيف يمكنها تأجيل الأمر، وتأجيله إلى ما لا نهاية، لتحمي صغيرها وتبعده عن مصير لم تعد قادرة على التكهّن بغيره؟ صار هاجسها الوحيد هو تدبير الحيل، كلّ مرّة بطريقة مختلفة، مرّة تدّعي أنّ الصغير مُصاب بالحمّى، ترجو أباه أن يؤجّل الأمر حتى يتعافى، ومرّة تدّعي أنّه مُصاب بالإسهال، ومرّات تحتال بادّعاء المرض وأنّها غير قادرة على رعايته. وعندما كانت تعييها السبل، وتنفد الحيل من بين يديها، كانت تتوسّل أنوثتها، تخنق في أعماقها كلّ المشاعر التي تضمرها تجاه زوجها، وشبقه الذي لا يرتوي، وتغرقه بين فخذيها،

هو يغرق في لجّة متعته، وهي تغمض عينيها وتهوي إلى قيعان العدم.

كانت دنّورة تقضي معظم الليالي وهي تفكّر، تبدأ خيوط الفجر بالتسلّل إلى المخادع، وهي تتوه في دوّامتها، كلّ ليل تترك لخيالها العنان كي يبتدع حيلاً جديدة تستطيع بواسطتها أن تجنّب صغيرها المصير الذي ينهك روحها بالخوف. كان الخوف من الفقدان هو ما يسيطر عليها، فيفقدها الطمأنينة وراحة البال ومعها العافية. لقد خانها جسدها، لم تستطع التحايل عليه كي تكتسب قليلاً من الصحّة. بقيت نحيلة، وظلّ حمّود يعيّرها بنحافتها، وهي تتعلّم كيف تصمت مدّخرة طاقاتها كلّها من أجل الهدف الأغلى، حماية عبدو الصغير. دنّورة لا تحتمل فاجعة أخرى، والموت لا يعرف الرحمة.

إلى أن جاء ذاك اليوم، أوائل كانون الأوّل، والصغير لم يتجاوز أعوامه الثلاثة إلّا منذ أسابيع قليلة، كان يلعب أمام البيت، يدخل إلى الفناء، ويخرج خارجه، دنّورة تضع قدرًا كبيرًا على موقد في الفناء، تغلي الغسيل فيه، وتقوم بغسل بعض الثياب بين يديها في طشتٍ على الأرض، وهي تجلس على مقعد خشبي واطئ، كلّما انتهت من وجبة، تقوم بنشرها على الحبال المنصوبة خارجًا، وتسترق بعضًا من وقتها في تقطيع الخضرة من أجل تحضير الطعام، لأنّ حمّود يأتي جائعًا، وحمّود رجل يتعب، يجب أن يكون الطعام جاهزًا ساعة حضوره، وإلّا تنتابه ثورة من الغضب تحسب دنّورة لها حسابًا.

مع رتابة حركاتها الآليّة وهي تدعك الثياب، انجرفت نحو الماضي، راحت تتوالد في بالها ذكريات صارت بعيدة، أضرمت حنينها إلى بيت والدها، إلى إخوتها، إلى ذلك الزمن البعيد الذي طوى معه السكينة وغاب. لم تكن تعرف ما هو الموت، ولا الأمومة، حتى إذا شعرت بالأمومة لم يمهلها الموت، وجاءت ضربته موجعة، شرختها ولم يندمل الشرخ بعد. لم تعوّضها ولادتها الثانية، برغم كلّ الحبّ، وكلّ اللهفة اللذين ملآ كيانها على صغيرها الثاني عبد الرحيم، السكينة المفقودة من روحها. كانت دائمة السؤال عن الموت، سؤال كان ينخر بكيانها كالسمّ، وهي تبحث في سراديب الحياة المظلمة عن ومضة تهتدي بها لتفهم الموت.

توغّلت دنّورة كثيرًا في أعماقها، حتى إنّها غابت عمّا حولها. كان صوت البابور الذي يشخر تحت قدر الغسيل، برتابته، ودفء الماء الذي تدعك الثياب به، يبثّان فيها دغدغة ناعمة تمشي كالخدر في جسدها. لم تنتبه إلى انخفاض درجة الحرارة المفاجئ، ولا إلى صوت الريح التي أخذت تصفر في الخارج، لم تنتبه إلى أنّ السماء اكفهرّت، وأنّ عاصفة صارت على الأبواب. البحر يعربد قريبًا جدًّا من البيت، والأمواج تعلو، والريح تهجم على وجه الأرض، إنّها العاصفة. عند أوّل قصفٍ من السماء، تردّد صدى الرعد معه مختلطًا مع زمجرة الريح. أفاقت من شرودها، هبّت لتلحق حبل الغسيل قبل أن تطيّره العاصفة، نادت على عبدو وهي تجري باتّجاه حبل الغسيل، مرّة وأخرى، لكنّ عبدو لم يظهر، انطلقت خارجًا مكشوفة الرأس من غير ملاءة، وقفت أمام الباب

وراحت تنادي عليه وهي تمسح الفضاء حولها، كان المطر ينهمر بغزارة، ورذاذ البحر يعربد معه تحت السماء القاتمة، ممّا جعل الرؤية غير واضحة، وصوتها يضيع مع صوت الطبيعة الغاضب. راحت تركض كالممسوسة في كلّ الاتّجاهات، تصرخ، وصوتها يتبدّد، ابتعدت عن البيت أمتارًا قليلة، ثم اندفعت تركض باتّجاه أقرب البيوت إليها، كانت أجسام تتطاير في الجوّ، تنخلع من كلّ مكان، ودنّورة تركض غير آبهة بأيّ خطر يهدّدها أمام الخطر الكبير الذي تتوجّس منه: إنّه الموت، الموت المقيم في كلّ مكان.

فجأة لاح لها لوح من الصفيح يقطع الطريق، وهو يرتفع من أحد جوانبه، يقرعه المطر الغزير الذي ينسكب بغزارة باتّجاه الطرف الآخر، ليأخذ لون الدم. كانت الزوبعة تلتفّ بالدنيا حولها، سماء تتشرّب بالرمادي المتجهّم، يستنفر بين ومضة وأخرى، يتشبّث بسواد يرمي بذيله وينتفض مزمجرًا، فتتهاوى السماء إلى الأرض بطوفان رهيب، كأنّ السماء قد تفجّرت بغضب مخزون منذ طوفان نوح، وراحت دنّورة تقفز كما لو أنّها تطير، اندفعت بقوّة جبّارة فوق لوح الصفيح، ورفعته لترى صغيرها يرقد في دمائه، ارتمت فوقه، أطاشتها المفاجأة، لم تستوعب ما الذي يجري، ارتمت فوق صغيرها لتداريه من المطر، لتحميه من البرد، لتهدّد الموت: إيّاك أن تقترب من هنا! أما اكتفيتَ بالأوّل؟ تريد أن تأخذ صغاري أضاحِيَ؟ مكتوب عليّ أن أحبل وأنجب أطفالاً حتى تخطفهم؟ لن أسمح لك. سامع؟ سوف أمنعك. اختطفت صغيرها وأخذت تركض وهي تصرخ كالمجانين، تضمّه إلى صدرها، تغتسل بالمطر والدماء الطازجة، تركض تحت سماء أكبر عاصفة شهدتها

المدينة منذ سنوات، تركض وتصرخ، تبكي وتضحك، حافية تلتصق ثيابها الغارقة بالماء والدماء على جسدها النحيل، إلى أن وصلت بيت الداية أمّ عارف، خبطت الباب وارتمت على عتبته، كان الصغير مفارقًا الحياة بذلك اللوح الصفيحي الذي خلعته العاصفة عن أحد البيوت وحملته إلى عنق الصغير يذبحه. ثلاث سنوات من الحيل والكذب والمواربة لتحميه من الموت، مات في غفلة منها.

ـ ٦ ـ

كانت هناك أنقاض بناء قديم على الطرف الآخر للحرج الذي يتاخم الحيّ، بقي في ذاكرة جمعة منذ أيّام اللهو، عندما كانوا يلعبون صغارًا، وبعدها لمّا كان يلتقي بجميلة. كان آخر لقاءٍ عندما هربت ذات عصرٍ صيفي من البيت لموافاته على موعدهما، كانت أمّها صحبة بعض النساء في زيارة أحد الأولياء، انسلّت في وقتٍ كان إخوتها الأصغر قد دبّ فيهم الكسل والنعاس بعد وجبة البرغل التي أطعمتهم إيّاها. قالت لهم: سوف أذهب لعند أمّ محمود لأسألها عن العجين. لا تغادروا البيت حتى أعود.

هناك كان جمعة في انتظارها، ولسوف يحكي لها عن أحلامه، كيف سيتزوّجان بعد أن يجمع مبلغًا يمكّنه من استئجار غرفة وفرشها، سينجبان أطفالاً، ويدخلانهم المدارس، سيشتغل ويجمع مالاً كي يجلب لهم كلّ ما يشتهون، سوف يجعلهم سعداء، وسيسكنها بين جفونه، سيبقى يحبّها، ويحميها من الشرور، سوف.. وسوف.. يضطرب وهو يحلّق مع أحلامه، ويعيد الأحلام في باله، كلّ مرّة يزدهي الحلم أكثر، ويضيف أشياء

وأشياء على أمنياته، يُعيد ما سيقوله لها ويحلم. وكان قد سبقها إلى الموعد بوقتٍ طويل، ربط الحمار إلى جذع شجرة قريبة، ودخل الخربة، جلس على الأرض متّكئًا على الجدار الأعلى فيها، كانت السحالي تنسلّ مسرعة وخائفة من بين الشقوق خلال العشب المعربد فوق الأحجار المكوّمة، لم يأبه بها جمعة، هو يعرف أنّها مخلوقات مسالمة، لا تطمح بأكثر من وكرٍ صغير تلجأ إليه، وبضع حشرات تلعقها بلسانها وتبتلعها.

راح يغمض عينيه، ويتنشّق روائح المكان، فتهجم عليه الذاكرة. ها هما طفلان، يقترب منها أثناء اللعب، ينضح من جسدها عرق يتبخّر ناشرًا رائحة تشبه رائحة الزعتر المعتّق التي تفوح في أركان بيتهم، تعلق بالجدران والأرض والفرش وثياب أمّه وإخوته. يقترب أكثر حتى يلاصقها فتلفحه تلك الرطوبة الدافئة المتبخّرة من وجهها العابق بلون الجمر. تتوسّط خدّها الأيمن بقعة بحجم ربع الليرة، هو يتذكّر كم عانت جميلة من تلك الحبّة اللعينة التي تُسمّى حبّة حلب عندما كانوا يلعبون، وتنزّ تلك الحبّة التي تتوسّط وجهها، يلتصق الغبار بنزيزها، وتقف عليها الذبابات التي كان جمعة يساعدها في طردها عن وجهها. لم يكن ينفد من تلك الحبّة غير القليلين من أطفال الحيّ، فقد كانوا معظم الوقت في الزواريب يلعبون تحت رحمة البعوض المتكاثر فوق مياه المجارير والمياه الراكدة في الحفر. حتى ساحة لعبهم القريبة من البحر، والتي تتاخمها من الجهة الأخرى بقعة يلتفّ عليها دغل من النباتات البرّيّة، والأشواك والشجيرات المتسلّقة، يدخلونها لقضاء حاجاتهم أثناء اللعب، إذا لم يكونوا في غمرة الماء. كان الذهاب إلى

المستوصف يشكّل حالة ذعر لدى الأطفال، لم يبخلوا بالحديث عن تلك الإبر المؤلمة التي يغرزونها في المستوصف ضمن الحبّة، كان كلّ طفل يذهب تحت الضرب والتقييد من قبل الكبار ليأخذ الإبرة كلّ أسبوع، بينما تترك تلك الحبّة اللئيمة حفرة واسعة على أجسادهم، مثل الأختام التي يطبعونها في المسلخ على أجساد الذبائح الصالحة للاستهلاك. لم تكن الحبّة تعني لجميلة في حينها أكثر من محنة وألم وانقطاع عن اللعب يوم مراجعة المستوصف، لكنّها عندما كبرت، وأخذت أنوثتها تتفتّح، صارت الحبّة جزءًا من وجهها، وقدرًا بائسًا يستحضر ذكريات تلك المرحلة البعيدة بكلّ ما حملت من ألم وبهجة في الوقت نفسه.. هكذا تركت شعرها يطول، وعوّدت نفسها على أن تتفقّد غرّتها الطويلة كلّ حين، كي تغطّي وشم الألم والقبح هذا، حتى صارت هذه الحركة ملازمة لها، وملمحًا يميّزها، اعتاد كلّ الذين حولها عليها.

يتحرّك شيء ما في داخله، شيء يشبه اللذّة الناعمة في دفء الفراش، إذ يتمكّن منه الكسل الجميل. يميل برأسه إلى الجدار المهجور، تخترقه رائحة الحجر، تئنّ في أعماقه صورة جميلة بشعرها الطويل المتموّج على كتفيها، تفوح منه رائحة غامضة تدغدغ نقطة عميقة، هناك في البعيد، في ظلام لا يدركه، يلامس الحجارة أكثر، ينحشر بينها وبين جسده الجائع، يختلط عواء جسده مع أنين رغبة مكبوت ينطلق من بين شقوقها، أين جميلة؟ تأخّرت عليه، والحنين المكبّل برغبات تلهو به، تعتصره شوقًا ولهفة، يلسعه بلهيبه، تحوم حوله رائحة احتراق، أبخرة تملأ الجوّ، تجعل العشب اليابس، وأوراق الشجر حول الخربة، والسحالي، تتلظّى.

سمع وقع خطواتها، قفز قلبه فقفز معه وانطلق لملاقاتها، لم يعد يطيق الانتظار. أمّا جميلة، فقد كان قلبها لحظة وصولها يدقّ كحصان يخبط على الأرض بحوافره، يكاد يحطّم ضلوعها. كان الخوف والارتباك قد أنهكاها وهي تقطع الطريق كلصٍّ ملاحق، وصدى صوت والدها يلاحقها وهو يهدّدها فيما لو فكّرت مجرّد تفكير بهذا السّقط. كان يأبى أن يسمّي جمعة باسمه.

وصلت جميلة إليه. مدّ ذراعيه نحوها، فمدّت يديها وتشابكت أيديهما. كانت جميلة تتلهّف لأن ترتمي في حضنه، وكان شوقه إليها يدفعه لأن يحوطها بذراعيه، ويغمرها بجسده، يشبكها إلى صدره حتى يصير وإيّاها جسدًا واحدًا، لكنّ جميلة أعطته كفّيها وبقيت منفصلة عنه، تكاد الدموع أن تطفر من عينيها. حاول جذبها إليه لكنّها مانعت:

ـ دخيلك يا جمعة! والله قلبي سيتوقّف، لو درى أبي أنّي أراك يذبحني. أنا جئت لأقول لك إنّي سأنتظرك، أنا لن أتزوّج من أحد غيرك.

ـ ماذا يريد أبوك يا جميلة؟

ـ لا أعلم. لكن أعرف أنّه لا يريدك، قال: أنت فقير، وقال أيضًا..

ـ ماذا قال أيضًا؟

ـ قال: أنت لست رجلاً، كيف بإمكانه أن يزوّج ابنته لرجل ناقص؟ يكفيه ساقه المعطوبة حتى يكون نصف رجل.

غصّت جميلة مع كلماتها الأخيرة، لم تكن تريد أن تجرح جمعة بكلام والدها، إنّما أرادت أن تقول له الحقيقة. صمت جمعة، لكنّ غيظًا راح يغلي في صدره كالمرجل فوق نارٍ تزداد اضطرامًا، تراخت يداه قليلاً عن يدي جميلة، ضاقت عيناه وأخذ ينظر بعيدًا. لم تستطع جميلة كبح دموعها، فراحت تبكي وتشهق، وبعسرٍ قالت له:

- دخيلك لا تزعل يا جمعة. أبي هكذا، عقله صعب، ولا يعرف غير هذا، المهمّ أنا يا جمعة، أنا سأبقى أنتظرك. وقت ما تأتي وتقول لي يا جميلة أنا جاهز لأخطفك وأطير، سأكون بانتظارك.

عندما دخلت البيت، كاد أن يُغمى عليها من هول المفاجأة، لم تقدّر أنّ والدها يمكن أن يعود قبل موعده، كما لم تنتبه إلى الزمن الذي استغرقه مشوارها المسروق. كانت نهب شتّى أنواع الانفعالات، والخوف يلجمها عن أن تشعر بخفقان قلبها في آخر لقاء لها مع جمعة. كانت عينا والدها تتطايران شررًا، وإخوتها يلطؤون متلاصقين في زاوية الغرفة، يأكلهم الخوف. هم لا يعرفون ما الذي يجري، إنّما يستطيعون أن يفهموا الغضب الثائر في وجه والدهم، يرتجّون تحت سياط صوته الهادر وهو يتوعّد. كانوا خمسة، ثلاث بنات، وصبيّين هما الأصغر، فبعد جميلة وفترة انقطاع أمّها غير المفهومة عن الإنجاب، فلت الحبل لدى دنّورة التي تحوّلت إلى آلة إنجاب وخدمة. حتى خوفها من الموت وحزنها على صغيريها، تكوّرا في داخلها، ونمت عليهما قشرة سميكة مع الزمن، ولم يبقَ لدى دنّورة غير رتابة الأيّام التي لا تنتبه

إليها كما لم تكن تعنيها. صارت الحياة بالنسبة لها استيقاظًا ونومًا، كأيّ مخلوق آخر في الطبيعة، لا يدرك من الزمن غير دورته هذه.

لم يسألها أبوها شيئًا، لم يقل لها: أين كنتِ، هي تعلم تمامًا أنّه لا يسأل، بل ينفّذ قراره فورًا. أظلمت الدنيا أمام وجهها، كادت أن ترتمي على الأرض، ثم بدأ الشرر المنطلق من عيني والدها يصطدم بعينيها، فتتوهّج الدنيا أمامهما، اختلطت الأحوال عليها، لم تعد تسمع أو ترى، هي فقط تنزلق في دهليز متعرّج مظلم مليءٍ بالحفر والحجارة الناتئة، تنسحب على أرضه، وتتلقّى الخبطات من كلّ صوب، صراخ، تهديد، شتائم، وبكاءٌ هلعٌ ينطلق من أفواه جوقة كادت أن تلتحم بالحيطان لو استطاعت. إخوتها تحوّلوا إلى كتلة من الفزع، ينفلت عويلهم من بين صخور الصمت الذي تدثّروا به في البداية. أخيرًا غابت جميلة عن الوعي، عندما وصل الألم إلى الدرجة القصوى، انتهت إلى كتلة هامدة، ينفلت خيط من الدم من بين شفتيها المتورّمتين، ليس لها ما يشي بالحياة إلّا صدرٌ يعلو ويهبط مع تنفسّها المضطرب. شعر حمّود أنّ عليه أن يتوقّف، ومضة خاطفة أبرقت في باله وهو في ذروة هياجه، توقّف قبل أن يقضي عليها، تطلّع نحو الكتلة المذعورة، كأنّما يريد أن ينبّههم إلى ألّا ينسوا درسًا كهذا حتى تكون حياتهم مستقيمة في المستقبل. وقبل أن يفتح الباب ليخرج إلى فناء الدار، ركلها بقدمه متوعّدًا: إذا لم تنسي اسم السقط سيكون لي شغل ثانٍ معك، إيّاك ثم إيّاك أن تفكّري بعد اليوم بأن تفتحي باب الغرفة، والله إذا شممت نسمة فائتة منه لأجعل الله ما خلقك.

وصل جمعة مع حماره إلى الخربة، دخلها وإيّاه، كان كلّما تكوّمت لديه حمولة من علب المياه الغازيّة، وبعض القضبان الحديديّة، وقطع الخشب، وأشياء أخرى كان يخمّن أنّه سيحتاجها، يأتي إلى هنا ويكوّمها. أخذ يفرغ حمولة الحمار، وينظر إلى الكومة التي تراكمت حتى تلك اللحظة. خمّن أنّه لم يبقَ أمامه الكثير حتى يبدأ بعمله، سوف يباشر أخيرًا بتحقيق حلمه، وإنجازه على الواقع.

كان الوقت مساءً، ضوء القمر يضفي على الأشياء سحرًا خاصًّا أضرم مشاعر جمعة، فجلس مسترخيًا وأشعل سيجارة، وأخذ يسرح بخيالاته. كانت رائحة المكان في المساء تدغدغ أنفه، تسري في جسده كالخدر الناعم، مدّ يده يتلمّس الأرض تحته. برودتها تعبق بعبير غامض يتسلّل إليه من أعماق ذاكرته، يحاول التقاطه قبل أن يفلت منه. يركّز انتباهه أكثر، يلحّ على التذكّر، تهجم عليه الصور مجتمعة، جميلة، الشاطئ، الموج، الحصير التي كان ينام عليها في الحوش، السماء البعيدة والنجوم الملتهبة فوق رأسه، الأزقّة التي تتلقّفه مع حماره برائحة العفن والبقايا والرطوبة، تلال الزبالة التي يمرّ بها وينبشها بين أكوام الذباب النافرة، أبخرة زنخة وروائح الحموضة والتخمّر تحت شمس تمّوز الملتهبة. تتداخل الصور، يبحث عن جميلة فتفرّ منه، تحتلّ ساحة مخيّلته صورة والدها. رح خلّيك تشوف يا أبو العزّ أنّ جمعة الذي لا يعجبك، وتقول عنه سَقَطْ، جمعة هذا سيقدّم لجميلة أحلى بيت بكلّ الحارة، بيت ما في رجل عرف أن يعمله، سيكون حديث الناس كلّهم، منذ سنين وأنا أنبش بالزبالة وأجمع، رأيت الذي لم

يره أحد، غرقت على مدى عمري بروائح لم يحتملها بشر قبلي. لم يكن يعجبك عملي وأنا أدور طيلة النهار على قدميّ، أجرّ خلفي هذا المخلوق الطيّب، كان صابرًا أكثر منّي على تلك الروائح، لم يتأفّف يومًا، ليس لأنّ نفسه لا تعاف الروائح، بل لأنّه الوحيد الذي شهد حياتي، ورافق طموحاتي، واحترم أحلامي، بل ربّما هو يعرف أكثر من ذلك، وعكس ما يقال عنه، ها هو يخبّئ لي في خرجه كتابي الذي لم أجرؤ على قراءته وقد اشتريته منذ عدّة أيّام، تدوير النفايات! ترى كم يخبّئ هذا الكنز الذي بين أيدينا يا أبو طافش من الأعاجيب؟ كنت معي منذ أوّل عهدي بهذا الشغل، أكيد عانيت مثلما عانيت أنا، وتمنّيت مثلما تمنّيت، ألم تحلم ولك أبو طافش بطرائق أخرى لرمي الزبالة؟ ألم تكن تتخيّل مثلي أوضاعًا أرحم بنا وبالأرض، والناس؟ الناس ترمي زبالتها، كلّ واحد بطريقته، لكنّ كلّ كيس زبالة، وكلّ حاوية قدّام مطعم، أو مكتب، أو شركة، أو معمل، كلّ واحد يحكي قصّة مختلفة، لم يكن يزعجني شيء مثل خلط الزبالة بعضها مع بعض. شفت يا أبو طافش كم كنت أتعب حتى آخذ ما ينفع من بين الأكوام المتلتلة؟ شفت كم كنّا نشوف العجب أنا وأنت؟ أتذكر قناني شراب السعلة المكوّمة بالحاويات، هذه المكتوب عليها سيمو؟ هل نصف العالم يسعلون على مدار السنة ولك أبو طافش؟ أم المطاعم التي ترمي نصف الأكل الذي يطلبُه الزبائن إلى الزبالة؟ هو ليس نصفه، لكنّهم يرمون الكثير، مثلما قال لي أسعد الذي يشتغل في المطعم، ويعرف البير وغطاه، أنّ الحكومة تجبر أصحاب المطاعم على أن يرموا كلّ شيء يبقى على الطاولات وراء الزبائن، حتى لو بقي

الأكل مثلما هو، لكنّهم يعودون ويُنزلون على الطاولات قسمًا منه، والقسم الذي لا يمكن تصحيحه، كانوا يبيعونه لبعض الناس بنصف السعر، حتى الأكل صار مثل سوق البالة. ومع هذا يا أبو طافش كان في زبالة المطاعم ما يشبع كثيرًا من الجوعانين. المهمّ أنا أريد نفسي الآن، شايف؟ لا ينقصني الكثير حتى أبدأ الشغل، لازم حضّر الغراء، وبعدها أجلب كم كيس إسمنت وشويّة رمل وبحص. والله لأعملّك يا جميلة أحلى بيت. يا ترى ما زلت تنتظرينني بعد ما تأخّرت عليك كلّ هذه السنين؟ لا تظنّي أنّي نسيت أو بطّلت حبّك. أنت بعدك الوحيدة بقلبي يا جميلة.

عندما كان صغيرًا، في بداية عهده بالشغل، كان التجوال مع والده بمثابة مشوار يفرحه، يتعرّف على المدينة، يرى الغرائب والأعاجيب، كلّ شيء كان يبهره، يفكّر كم العالم كبير، وكم من المتع تختبئ فيه، الحكايات والسحر والأعاجيب، كلّها تجمّعت في ذاك الهناك البعيد، حيث يمشي ويمشي مع والده ولا ينتهي هذا العالم، كلّ يوم فيه جديد، حتى الزبالة كان فيها ما يدهشه، لكنّه يلعن في سرّه أولئك الذين يرمون الأغراض، مختلطًا بعضها بالبعض الآخر. عليه نبش الأكياس والحاويات ليجد فيها مفاجأة تفرحه، لماذا لا يرمون المفاجأة معزولة عن غيرها؟ كان يرى أطفالاً كثيرين مثله، إمّا مع آبائهم، أو يتجمّعون على شكل فريق يستأثر بحيّ كامل، ينبشون ويلعبون، ومنهم من كان يمدّ يده يتسوّل من المارّة. كانوا صبية وفتيات، ينزوون بعد النبش في زاوية متنحّية ويشعلون السجائر التي يخفونها في جيوبهم، حتى إذا تركه والده يذهب للمرّة الأولى وحده مع الحمار، كان في نهاية المرحلة

الابتدائيّة، في أيّام الصيف والحرّ، كانت المدارس مغلقة، وأترابه من النبّاشين يملؤون الحارات والأحياء. لم يستلطف جمعة صحبتهم، كان طبعه الصامت والانعزالي يستثير مشاكستهم، فينهزون الحمار بما تقع عليه أيديهم من أدوات مدبّبة، أو يشدّون ذيله، وقد يجتمع أكثر من واحد، ليشدّوا أذنيه كلّ واحدة بعيدًا عن الرأس، وذيله بعيدًا عن عجيزته، ويتضاحكوا وهم ينظرون إلى قفاه مكشوفًا، وقد يشيرون بأيديهم بحركات فاحشة، مثلما يفعل الكبار، بل ويحاولون إيذاءه في هذه المنطقة، لا مكان يستوعب تلك الطاقات المتدفّقة لديهم سوى الشوارع التي يقضون جلّ وقتهم فيها، وهم يعرفون أنّ عليهم تأدية الغلّة في نهاية النهار، قبل أن ينحشروا كالدواجن في الخمّ عند المساء. كان الحمار يرفس بقائمتيه الخلفيّتين، ممّا يُثير ضحكهم بقوّة أكبر وهم يرونه يميل حتى يكاد أن يقعي عندما يرفس بقائمته السليمة في الهواء، فتنوء تلك المصابة تحت ثقل جسمه، وهذا ما كان يشعل ثورة جمعة، يستشيط غضبًا، يلعنهم ويمضي مبتعدًا فيجتمعون عليه وهم يهدّدونه ويقذفونه بالحصى، ويقلّدون مشيته العرجاء. تركهم جمعة بدايةً وصار يتّجه إلى أماكن أخرى، صارت ساحة الشيخ ضاهر وما يتفرّع منها أو يصبّ فيها من شوارع وأزقّة هي المكان الذي يرتاده. بعد أن ينهي جولته على محيط الساحة، حيث تكثر محلّات الأكل والحلويات، وكراجات سيّارات الأجرة قبل الالتفاف باتّجاه شارع القوتلي، كان يدخل إلى جامع الشيخ ضاهر، يربط الحمار بعمود كهرباء من تلك الأعمدة الخشبيّة، التي كان يبهره منظر عامل الكهرباء يتسلّقها وهو يلْبس في قدميه حذاءً حديديًّا، تحمل كلّ فردة

منه في جانبها الداخلي قوسًا بأسنان كبيرة، يضربها بجسد العمود فتنغرز بقوّة، ويصعد بالقدم الأخرى ليضربها أيضًا، ويفكّ الأولى وهو يتسلّق على العمود مثل قطّ أبو عرس الذي يشاهدونه يتسلّق أشجار الغابة المتاخمة لحارتهم. وكان يسحر جمعة أن يبدّل العامل مصابيح الإنارة المحترقة، ثم ينزل بخفّة، تحت أنظار الناس الشاخصين نحوه بإعجاب وحماس، ثم يدخل جمعة إلى الجامع، يشرب من سبيله، ويقترب من قبر هذا الولي الذي لا يعرف عنه شيئًا، غير أنّ الناس يكنّون له احترامًا ومهابة. كان القبر في صحن الجامع، يقترب منه جمعة، ويقف متأمّلاً بقلبه الصغير آنذاك، يصغي لرجع ضميره هو، لصدى أفكاره وهمومه وأشجانه، ربّما كان يدعو في سرّه أدعيته الخاصّة، وربّما لحماره أيضًا الذي أسّس لوجوده في حياته منذ تلك الفترة. وسرعان ما يعود إلى حماره، يفكّه ويلتفّ حول الساحة من جديد، ليجلس أمام سور ثانويّة جول جمال، وتبدأ شجونه بالتداعي وهو يتأمّل البناء الكبير الذي خلّفته فرنسا مع الأبنية التي تركتها وراءها بعد الاستقلال. بناء كبير خارق بالنسبة إلى جمعة، الذي لم تكن بيوت حارته أكثر من أكواخ هشّة، وكان يسحره امتداد بناء الثانويّة بجناحيه الكبيرين على جانبي المدخل، والنوافذ الرشيقة التي تعلوها أقواسٌ كتاجٍ فوقها، تصطفّ على طول الجدران، بحديقتها المطلّة على ساحة الشيخ ضاهر تعلو فيها أشجار السرو والكينا. وسورها الطويل، تتوسّطه بوّابة عريضة، مقابل درج عريض يؤدّي إلى الباب الرئيسي الذي ينفتح على بهو البناء. كان جمعة يجلس هناك حالمًا باليوم الذي يستطيع فيه دخول هذه المدرسة، وإتمام تعليمه فيها، وكان يتورّط في حلمه

أكثر ليصل في خياله إلى عوالم يبنيها على أسس لا يعلمها غيره، ثم يتنهّد كرجل مسنّ خبر قسوة الحياة التي صارت وراءه تمدّ له لسانها هازئة من عجزه، فينظر إلى صدر الساحة حيث يتربّع جامع العجّان والساحة الكبيرة أمامه، ويستغرق أكثر في أحلامه.

خلف تداعيات ذاكرته انساق من دون أن ينتبه إلى الوقت. كان أبو طافش يتململ من ضجره، راح يلوّح بذيله بطريقة تنمّ عن نفاد صبره، ينظر إلى جمعة السارح مع أفكاره والسيجارة تحترق بين شفتيه، ويعجب من أمره: الله يعينك يا صاحبي، أنت لا تشعر بالزمن، شُفْ كم مرّ عليك وأنت ما زلت تلمّ من الزبالة حتى تحقّق حلمك، أما كان بإمكانك أن تحلم بطريقة ثانية؟ طريقة أسرع وأحسن؟ أنا زعلان عليك، خائف من أن تكون التي تحبّها طيّرت من زمان، قُم خلّنا نمشِ، القعود هنا لا يأتي بشيء عليه القيمة، أنا تعبت ومللت. بودّي أن أصل وأسترخي في زريبتي، أحلم قليلاً، وأسمع أصوات أولاد عشيرتي، والله صوت حمار ينهق وقت المساء يعادل نصف عمري. كلّ النهار ماشي خلفك، سايرني قليلاً. أم نحن الحمير والبغال ما لنا حقّ؟ يعني إذا أطعمتمونا وشرّبتمونا، ورميتمونا بالزرائب، صرتم متفضّلين علينا؟ ألا ترون كم نتعب؟ أنا أعرف أنّه لولا حاجتكم لنا ما كنتم مهتمّين بأكلنا أو شربنا، أنتم تحتاجوننا من أجل مصلحتكم. وزيادة أنت تتركني أنتظر حتى ترجع من أحلامك، والعمر يمرّ وأنت لا تشعر بأيّ شيء، أمّا أنا لأنّي حمار بالنسبة إليك، فأنت لا تعترف بأنّ عندي أحلامي، أنا لا يحقّ لي أن أحلم. لكن انتبه! أنا أحلم وأنت لا تعلم، لا تؤاخذني هذا حقّي، لأنّي من لمّا وعيت فجأة وشفت

الدنيا بطريقة ثانية، أدهشتني وبلبلتني، وشعرت أنّي صرت حمارًا آخر، سوف يجيء يوم أحقّق فيه أحلامي، لكن الآن خلّنا نمشِ ويكفيك تضييع وقت.

عندما بقي جمعة سارحًا، غير منتبهٍ إلى الحمار، أخذ هذا الآخر يتململ في مكانه، ازدادت حركته، وصار يصدر أصواتًا خافتة تشبه الهمهمات: لا تؤاخذني يا صاحبي، كلّ واحد يبحث عن حاله، أنا لا أطالب بأكثر من أن أرتاح، وأنت غائب عنّي وعن الدنيا، لازم صحّيك، لكن لن أكون كثير الوقاحة، هي مزحة خفيفة حتى تصحو، ثم كيف ما كان أنا حمار، بالكثير سترفع عصاك وتنزل بي كم ضربة، أنا معتاد على الضرب، انظر إلى بوزي، صحيح ليس لدينا مرايا نحن الحمير، لكنّي أشعر بالخراب الذي طاله بسبب الماء الذي وضعته أمامي مرّات عديدة كي أشرب منه، لأنّني عطشان من الدوران تحت الشمس كنت أضطر للشرب منه، أغطس بوزي في السطل وأعبّ الماء منه، كانت رائحته لا تعجبني، أقول لنفسي ربّما هي رائحة المسلخ، فأنت كنت تغرف الماء من بركته يا صاحبي. أنا كنت كلّما شربت منه أعاني من المغص في أحشائي مساء بعد أن تدخلني زريبتي وترحل، ويتهيّج وجهي ويحكّني. لم تلاحظ أنت آثار الدم على حيطان زريبتي، الدم الذي ينزّ من جلدي وأنا أحكّه بالجدار، ها هي الخدوش والدمامل تملأ وجهي، والذباب لا يعتقني لحظة واحدة. دخت من كثرة تدوير رأسي ورجّه، ونتر أذني كي أبعد أسراب الذباب الأكول عن وجهي، وأنت تزيد الطين بلّة فتأخذني إلى بركة المسلخ مرّات أخرى بغرض غسلي هناك، الله يسامحك، علّتي الأساسيّة هي بركة

المسلخ، فأبعدني عنها أعدك بأنّ بوزي سيُشفى، وقروحي ستندمل.

لوّح أبو طافش بذيله يمينًا ويسارًا بسرعة كبيرة أمام وجه جمعة الذي يمجّ السيجارة بين شفتيه، فسقطت في حضن جمعة الذي انتفض من لسعة النار وأخذ يطفئ الجمرات الصغيرة التي هوت على الأرض، لاعنًا الحمار وغباءه، مهدّدًا إيّاه فيما لو عاد إلى فعلته ثانية. أمّا أبو طافش فقد كان راضيًا تمام الرضا عن فعلته، لكنّه نظر إلى البعيد ببلاهته المعتادة حتى لا يتمادى صاحبه في عقابه أكثر. وتحسّس جمعة الكتاب في خرج الحمار، والتمعت عيناه وهما تغزلان للكتاب موعدًا.

ـ ٧ ـ

أبكر من عادته، أسرج حماره وانطلق عازمًا على أن يقرأ في الكتاب قبل أن ينخرط في شغله الذي لا ينتهي، حتى لو كان معه الوقت لنبش حاويات المدينة كلّها، بل والوصول إلى المكبّ الكبير، حيث تتراكم النفايات على شكل تلال كبيرة، تتبعثر في الأرض حولها، إلى أن يأتي من يشعل فيها النيران بعد أن تكون قد تعرّضت للنبش حتى لم يعد هناك احتمال أن يوجد فيها ما يأكله الذباب.

توقّف في ساحة اليمن، يفكّر أيّ طريق يسلك في هذا الصباح الباكر، كانت نسمات الصبح اللطيفة تحرّض فيه عزيمة متّقدة، شعر معها وهو يسرح ببصره في الأنحاء أنّه يحبّ هذه المدينة، كم لامست قدماه وقوائم أبو طافش إسفلتها وترابها، وحجارة أزقّتها! وكم اشتكت إليه، وهي تئنّ بروائحها، جمالَها المهدور تحت هذا الركام من الأوساخ والردم والحفريّات التي لا تنتهي! اجتاز الشارع الأوّل ثم انعطف يسارًا حتى صار أمام الإطفائيّة، لفته منظر السيّارات الكبيرة بصهاريجها الحمراء تبيت منتظرة أمرًا بتشغيلها،

وانطلاقها مع بوقها المنذر بأنّ أمرًا كبيرًا يحصل، تشقّ الآفاق مسابقة إيّاه. يكره أصواتها التي تنبش حزنه على الأرض المحروقة، على الغابات التي ظلّت تنمو مئات السنين فوق هذه الأرض، شاهدة على تحوّلات الإنسان، من بدائيّته النبيلة إلى مدنيّته البربريّة. لماذا تُنتهك الأرض بهذه الطريقة؟ سؤال ما زال يشغله ويقضّ مضجعه، على الأخصّ عندما يستلقي على حصيرته أو فرشة الإسفنج في فناء الدار، لا يفصله سقف عن السماء ورحلة نجومها. أمران كانا يشغلانه، جميلة التي يكاد لا يذكر ملامحها بعد آخر لقاء حين افترقا على أمل انتظارها له، وعودته إليها ليخطفها، يحلّق مع ذكراها عاليًا، ثم يهبط كطير جريح من عليائه، واللاذقيّة أيضًا كانت تشغله، بشوارعها وأزقّتها، وحدائقها، وغاباتها البعيدة. اجتاز الشارع وهبط نزولاً خلف نادي حطّين، كانت محلّات الفول والحمّص قد بدأت تفتح أبوابها، فتعبق روائحها في الجوّ، مع صوت القرآن الكريم يسري بسكينة الصباح في النفوس. وصل جمعة إلى شارع القوتلي، اجتازه ودخل باتّجاه سوق التجّار، كانت المحلّات مغلقة، حركة السوق تبدأ بعد العاشرة صباحًا، ما زال هناك كثير من الوقت، مرَّ أثناء عبوره أمام سوق البالة. كانت الأرصفة رحبة فلم يبدأ بعد الباعة بفلش بضاعتهم على بسطات الرصيف، أو على العربات التي تتكوّم متلاصقة في مدخل السوق المقبي، لكنّ الرائحة التي تفوح من مدخل هذا السوق المكتظّ بالعادة، اخترقت أنف جمعة، فكأنّها تلتصق بالجدران والحجارة، وخشب الأبواب العريضة لتلك المحلّات القديمة المتاخمة بعضها لبعض في سوق البالة. حالة

الأسواق، والمحلّات المغلقة، والأرصفة الفارغة، والسيّارات المركونة بجانبها، الشوارع الخالية إلّا من قليل من المارّة، والهدوء الباكر، كلّ ذلك جعل جمعة يشعر بأنّ مدينة أخرى ما زالت تتمطّى متنعّمة بدفء فراشها، مدينة غير لاذقيّته، بل هي لاذقيّتك يا جمعة، لكنّها كانت تتمنّع أمامك في أيّامك الماضية. هل أتيتها يومًا تاركًا نيّة الشغل خلف ظهرك، طالبًا ودّها بأريحيّة من يحلم بغدٍ، مخلّفًا وراءه همّ الماضي وعذاباته؟ هي مثلك يا جمعة، تطنّ فيها أفواج البشر مثل خلايا النحل المنفلتة، تتوه معهم في دوّامتهم وتنسى نفسها، أنت فقط لم تعتد عليها بهذا الحسن وهذا الهدوء الصباحي المنعش.

تابع مستعجلاً يتلهّف للوصول إلى الكورنيش الغربي حيث سيدخل المنشيّة ويجلس في جوار البحر الذي لم يعد ممكنًا الاقتراب منه، بعد أن طغى عليه المرفأ ببواخره وآليّاته وحديده وبقاياه، لكنّ جمعة يستطيع أن يشعر ببرودته النديّة عند الصباح، كلّما استعجل، وازداد عرجه مع حماره الذي كان محتارًا بأمر صاحبه. فهو منذ أن دخل عليه في الزريبة هذا الصباح، ونهره كي ينهض، مرتبكًا في تأدية الأعمال الروتينيّة اليوميّة، شعر بأنّ هذا الجمعة رجل غريب الأطوار. ما الذي دهاك حتى صرت لا تعرف أين هو شوال التبن والمغرفة التي تغرف بها وتعبّئ معلفي يا صاحبي؟ كانت الأشياء أمام وجهك وأنت لا تراها، أمرك عجيب. ثم ها هي الحاويات أمامك، والقطط استيقظت باكرًا تسبقك إليها، أمّا أنت فيبدو أنّها لا تعنيك اليوم، ما الذي جاء بنا إلى هذه المناطق وقد عوّدتني على غيرها في أيّامنا الماضية؟ أعترف أنّ

أمري هو الغريب، ما لي وهذا الفضول الذي لا طائل منه؟ أعرف أنّك لا تسمعني، ولن تلتفت إليّ. فليكن، أنا ما زلت عبدك المأمور.

لم يتوقّف جمعة عند باب مدرسة الأرض المقدّسة كما كانت المدارس تجتذبه للتوقّف أمام حاوياتها، كما لم يتوقّف عند مدرسة الكرمليت. اجتاز شارع الكورنيش متوجّهًا إلى الحديقة فورًا. دخلها وحنين يستفيق لديه إلى أيّام خلت، كان الكورنيش فيها مختلفًا عنه اليوم، صحيح أنّه كان صغيرًا حينها، لكنّه يتذكّره كصور محفورة على ذاكرته.

على أحد المقاعد جلس، بعد أن ربط حماره إلى جذع شجرة قريبة من مدخل الحديقة بحيث يستطيع أن يراه من مكانه. استرخى من مشيه السريع بضع دقائق، ثم مدّ يده داخل سترته المضمومة في السروال، وسحب الكتاب بلطف. كان مرتبكًا، فهذه هي المرّة الأولى التي يمسك فيها كتابًا جديدًا. أوسده ركبتيه المضمومتين، وبدأ بالقراءة:

أصبحت مشكلة النفايات من القضايا البيئيّة الملحّة في عالم بدأ يتزايد فيه حجم النفايات بصورة مطّردة نتيجة للزيادة السكّانيّة وزيادة معدّلات الاستهلاك، فضلاً عن تزايد أنواع النفايات وخاصّة الخطرة منها، لذلك أصبح التخلّص من النفايات قضيّة تؤرّق المسؤولين والعلماء الذين يسعون إلى التعامل معها بما يحقّق الأمن البيئي، ويحدّ من المخاطر البيئيّة والصحِّيّة التي يمكن أن تسبّبها تلك النفايات التي باتت تهدّد مستقبل الحياة على الأرض.

طوى الكتاب فوق أصابعه المضمومة على الصفحة وأشعل سيجارة، راح يمجّها بين شفتيه، وملامح وجهه تتبدّل، يجول بنظره على زوايا الحديقة، يراقب البحر المختبئ خلف هياكل المرفأ، ويعود إلى الكتاب:

النفايات قد تكون صلبة، أو سائلة، أو غازيّة. وتقسم من حيث خطورتها إلى نفايات حميدة، ونفايات خطرة. الحميدة هي مجموعة الموادّ التي لا يصاحب وجودها مشكلات بيئيّة خطيرة، ويسهل التخلّص منها بطريقة آمنة بيئيًّا، وتشمل النفايات المنزليّة، ونفايات المصانع غير الخطرة. قدّرت كمِّيّة النفايات الحميدة في البلدان النامية عام ١٩٩٠ بحوالى ٣٠٠ مليون طنّ، بينما أصبحت في عام ٢٠٠٥ حوالى ٥٨٠ مليون طنّ، وهذا يشير إلى أنّها مشكلة متنامية بصورة مطّردة وتحتاج إلى حلول سليمة بيئيًّا، خاصّة أنّ حوالى ٢٥ ـ ٤٠٪ من النفايات الصلبة التي تتولّد في المراكز الحضريّة للبلدان النامية تُترك دون معالجة، لتتراكم في الشوارع والأراضي الخالية والمهملة ممّا يخلق الكثير من بؤر توالد الميكروبات والروائح الكريهة، ويؤثّر سلبيًّا على البيئة وصحّة الإنسان.

البلدان النامية؟ هل نحن من البلدان النامية يا جمعة؟ ماذا يعني بلدان نامية؟ إذا كان الموضوع هو موضوع الزبالة، فنحن بلدان نامية جدًّا، يعني الزبالة التي أراها في الشوارع أكثر من الحاويات بكثير، ليس هذا فقط، بل طريقة تعاملنا معها غريبة وعجيبة. إلى متى سنبقى هكذا يا جمعة؟ صحيح أنا أشتغل

بالزبالة، هذا عملي الذي أعيش بواسطته، لكنّ الشغل في هذا المجال جعلني أنتبه إلى أمور لا تعني الآخرين. حتى المسؤولون الجالسون وراء مكاتبهم، حبّذا لو ينزلون إلى الشوارع والحارات ليشاهدوا بعيونهم ما نحن فيه، لكن ليس المسؤولون وحدهم يا جمعة، نحن أيضًا جماعة لا نعرف كيف نعيش، والله كنت أسمع أقوالاً كثيرة منذ الصغر، وأفكّر فيها، الآن صرت أفهم ما تعني: هناك فقر أبيض وفقر أسود، لماذا فقرنا أسود دائمًا؟ لماذا يصومون ويصلّون، والزبالة تحيط بهم من كلّ صوب، ولا يفقهون ماذا يعني أنّ النظافة من الإيمان؟ هناك خطأ ما، أتمنّى أن أعرف أين يختبئ، يعني لو قامت الحكومة بتمديد مجارير صحّيّة للحارة، هل سيتعلّم الناس هناك عادات أفضل؟ هل ستنتهي حبّات حلب ويأتي جيل جديد من الأولاد لا يحملون على أجسادهم أو وجوههم حبّات مثلها؟ ما هذا؟ أنا خائف من القراءة أكثر في هذا الكتاب، أيّ لعنة جلبتها يا جمعة إلى نفسك؟ كان حالك ماشيًا مع الكتب والمجلّات التي تلتقطها من جوانب الحاويات. ما الذي دهاك حتى دخلت هذا المعرض، وتورّطت بكتاب لن يزيدك إلّا يأسًا؟ المشكلة أكبر منك، وأنت مكتوب عليك أن تبقى في هذا الميدان، ترى وتتألّم من عجزك.

حالة إحباط تمكّنت منه، أزاحت لهفته وإقباله على قراءة الكتاب ومباشرة يوم مختلف، ليدخل في منزلق اليأس. حالته تنبئه أن لا فائدة من جهوده، لكن أيّ جهود هذه يا جمعة؟ هل أنت مجنون حتى تظنّ نفسك قادرًا على تغيير الواقع وتشكيله كما تحلم، آن لك أن تعترف بأنّك تحلم كالمجانين أحلامًا لن تطالها، ثم من

أنت حتى تستطيع تغيير هذا الواقع؟ لست أكثر من فرد يمرّ بين الناس كالخيال، لا أحد يكترث بك، ابقَ كما أنت أرحم لك يا جمعة. هيّا قم فكَّ الحمار وعد إلى دنياك بين الحاويات والزبالة أنفع لك. ومع كلّ الإحباط الذي شعر به، إلّا أنّ الرغبة في عمل شيء ما، بقيت مثل جذوة في أعماقه، تلسعه به بين حين وآخر.

كان دائم التخيّل، حتى إنّ تلك الملكة كانت تلازمه أثناء تجواله، وهو ينبش أكوام الزبالة، كلّما صادف شيئًا استثنائيًّا أو غريبًا. هكذا اكتشف أنّ الزبالة لا تقلّ أهمِّيّة عن جوانب أخرى في الحياة، وها هو يدين لها بالكثير ممّا يعرف. البداية كانت مع تلك الكتب والجرائد والمجلّات التي عثر عليها في الحاويات. كان يتناول الكتب حزينًا، وكان يتناول كلّ ورقة مرقّشة بحبر الطباعة أو بقلم بخطّ اليد، بحرصٍ ومهابة، وشيء من الأسى العميق، ويودعها جانبًا خاصًا من خرج الحمار.

ثمّة أشياء كثيرة، تعرّف جمعة عليها من الزبالة، حيث كان لكلّ حيّ أو حارة أحيانًا، ملمحاهما الخاصّان لجهة إنتاجها وطريقة التخلّص منها. لكنّه بعد الحماس الذي أجّجه في دخيلته ذاك الكتاب الوحيد الذي اشتراه بنفسه، قرّر أن يلجأ إلى البلديّة، ويقدّم اقتراحاته أمام المسؤولين. ألا تفرض الحكومة رسومًا على الناس لقاء الخدمات والنظافة؟ فلتضطلع بدورها إذن. ثم هناك حقائق لم يكن مطّلعًا عليها قبل قراءته الكتاب، حقائق تتحدّث بلغة الأرقام، بلبلته وجعلت النقمة في صدره تزداد من دون أن يعرف على من يصبّها، لكنّه يكاد أن ينفجر غيظًا وهو يفكّر أحيانًا فيما

قرأ، فإذا به يفكّر في زبالة الحيّ الذي يسكنه، صحيح أنّها قليلة إذا ما قورنت بالأحياء الأخرى في المدينة، لكنّه يعرف أنّ السبب ليس حرص سكّان ذاك الحيّ على النظافة، ولا على حماية البيئة، فمياه المجارير وحدها تشكّل كارثة بالنسبة لهم، إذ تسرح بين البيوت، في الأزقّة والزواريب، ليتلاشى ما يبقى منها بعد أن تمتلئ الحفر الكثيرة بها في المساحات المتربة بين البيوت المزروعة بالبقدونس والنعناع، والبصل الأخضر، أو بالهندباء والخبّيزة اللتين تشكّلان أطباقهم الرئيسيّة في مواسمهما، وتنتعشان بحياة جديدة مع بواكير الشتاء في محيط الحيّ، حيث يبوّلون مع الحمير والبغال والقطط التي تعيش بينهم، وترتع القوارض والحشرات حول مكبّات الزبالة الخاصّة بهم، ما دامت سيّارات مصلحة النظافة لا تدخل الحيّ، لكن يمكن أن يمرّ تراكتور بين أسابيع وأخرى ليجمع ما تبقّى وتخمّر، وربّما جفّ. كان جمعة قد قرأ في الكتاب، مرّة بعد مرّة، أنّ استرجاع الكثير من الموادّ الملقاة في النفايات يفيد في تدويرها في صناعات أخرى تخفّف من التلوّث، وتقلّل من هدر الموارد الطبيعيّة. هل يمكن أن يوفّر تدوير طنّ من الورق طنّين ونصف الطنّ من خشب الغابات؟ لماذا إذن نحرق الغابات ولا نكتفي بهدرها؟ وهذا البلاستيك اللعين، عدوّ البيئة الذي عشقناه في كلّ مجالات الحياة، هل يعقل أنّ تدوير كلّ طنّ منه يوفّر سبعمائة كيلو من النفط الخام؟ لكن ما أروعنا نحن النبّاشين ولك جمعة! فليكثر الله من أمثال الشلّا الذي يشتري منّا كلّ ما نجمعه من البلاستيك، ها هو يقوم بما لا تقوم به الحكومة. كانت تلك الأفكار هي التي تلهمه وهو متّجه ذات يوم مع أبو طافش إلى مبنى البلديّة، متحمّسًا

لأن يشتكي ويجعل المسؤولين هناك يستمعون إلى اقتراحاته بعد خبرة سنوات عديدة أمضاها في هذه المصلحة، استطاع من خلالها أن يكوّن فكرة موسّعة عن المدينة كلّها، وطريقة تعاطي الساكنين والجهات المسؤولة، مع بيئتهم ونفاياتهم. لكنّهم عند الباب استوقفوه:

ـ إلى أين أنت ذاهب مع ها الحمار؟

ـ أريد أن أدخل إلى البلديّة.

ـ ألا تعرف أنّ الحمير ممنوع دخولها؟

ـ سأتركه في الحديقة، سأربطه إلى شجرة وأدخل.

ـ من الحمار أنت أم هو؟ هذه الحديقة تابعة للبلديّة، ممنوع دخول الحمير إليها.

كظم جمعة غيظه من إهانة ذلك الشخص المتعالي والوقح، وهو لا يعدو أن يكون حارسًا على الباب، إنّه لا يعرف من يكون أبو طافش. لو كان يعرف مدى ودّه وطاعته، وما قدّم إلى البلد من خدمات في مجال النظافة لما أهانه بهذه الطريقة.

ـ لكن أين تريدني أن أتركه، وأنا مضطرّ إلى الدخول؟

ـ اتركه بعيدًا، بعيدًا جدًّا من هنا، هل سمعت؟ هذا مقرّ البلديّة، ومجلس المدينة، هل تعرف ما معنى مجلس المدينة؟

ـ لا والله لا أعرف، لكنّني أعرف أنّ عندي مقترحات يمكن أن تفيد المسؤولين هنا، وأريد أن أطلعهم عليها.

ـ أمّا خبريّة! واحد مثلك لديه مقترحات؟ من كلّ عقلك تتكلّم؟ والله أضحكتني، رح يا زلمة. رح تدبّر حمارك في أيّ مكان بعيد عن هنا، وبعدها تعال وقدّم مقترحاتك الخارقة، لأنّ البلد ينقصها الكثير من الفهلويّين أمثالك.

قال الحارس جملته الأخيرة وهو يكاد يختنق من الضحك، عندما لاحظ عرج جمعة وحماره أثناء التفافه إلى الخلف مبتعدًا عن البوّابة. ولم تفلح بعدها محاولات جمعة في الوصول إلى أيّ مسؤول في البلديّة. لكنّ مشكلة الزبالة ظلّت شغله الشاغل.

في محاولته الأخيرة ازدرد خيبته من عدم وقوعه على أذن صاغية، ومشى متثاقلاً باتّجاه الشرق، إلى حديقة المارتقلا، حيث ربط حماره إلى جذع شجرة في الطرف الشمالي منها. لم تكن لديه رغبة في أيّ شيء، كان إحساس باللاجدوى يملؤه فيجعل خطواته متثاقلة، لا يعرف في أيّ اتّجاه يسير. اجتاز الشارع وانحرف يمينًا باتّجاه الكنيسة الصغيرة المقامة في الطرف الجنوبي للحديقة. كان البناء الذي تعلوه إشارة الصليب قد بُني حديثًا، وجمعة يتذكّر أنّه لم يكن موجودًا منذ بضع سنوات، لكنّه الآن يعطي الحديقة منظرًا أجمل ممّا كانت عليه، يمنحها ألفة خاصّة. استدرج السلّم الهابط جمعة إليه، نزله بتؤدة، درجة فدرجة وهو يستند بيده إلى الجدار الجانبي، وصل ساحة صغيرة مبلّطة ونظيفة. إلى يساره كان الباب مفتوحًا، وقف مرتبكًا في الباب، رهبة المكان جعلته يتسمّر في فرجة الباب من دون أن يعرف هل عليه اجتيازه أم الرجوع إلى الوراء وصعود السلّم مرّة أخرى؟ كانت برودة منعشة تتسرّب منه إلى

الخارج، لامست أعماق جمعة فشعر بسكينة تسري في دمه. بينما هو على هذه الحال، ناداه صوت من الداخل: تفضّل يا أخي. ارتبك جمعة أكثر، لكنّه دخل وتقدّم خطوات قليلة، ثم توقّف أمام شابّ يقارب الثلاثين من عمره، يقف خلف طاولة، عليها كثير من الأيقونات الصغيرة، والقطع يدويّة الشغل، من خواتم وعقود وحمّالات مفاتيح وغيرها. كان الشابّ يلبس عباءة رماديّة يُحيط خصره بزنّار أحمر، تبدو عليه أمارات الطيبة. حيّاه جمعة، رحّب به سائلاً عمّا يريد؟

ـ هل تريد أن تزور؟

ـ نعم هل يمكنني النزول إلى تحت؟

ـ طبعًا، لكن قبل أن تنزل، هل تريد أن تسمع حكاية القدّيسة تقلا؟

شرد جمعة، وفي داخله غصّة. هات يا أخي، هات أيّ حكاية تغسل الروح من كدرها.

قال الشابّ:

ـ القدّيسة تقلا، تلميذة بولس الرسول، وأولى شهيدات المسيحيّة، أصلها من مدينة أيقونية، تنتسب إلى عائلة من أشراف المدينة، عدا كمال خلقها، كانت من الجميلات الفاتنات، خطبها شابّ وهي في الثامنة عشرة، لا يقلّ عنها جاهًا ونسبًا. قُبيل زواجها منه، مرّ بولس الرسول بمدينتها في جولته الرسوليّة الأولى يبشّر بالإنجيل. سمعته تقلا، وتغلغلت تعاليمه إلى روحها، فآمنت

به واعتنقت المسيحيّة، وصرفت النظر عن زواجها، فلجأت أمّها إلى حاكم المدينة مستعينة به كي يثني ابنتها عن قرارها، فلجأ الحاكم إلى التهديد والوعيد، وأنذرها بالحرق، ثم أضرم نارًا وطرحها فيها، لكنّ تقلا لم تعبأ، بل تقدّمت بكلّ شجاعة ورمت نفسها بالنار وهي تصلّي وتبتهل إلى الله، فانهمر المطر فجأة بغزارة كاد معها أن يتحوّل إلى طوفان، هرب الناس إلى بيوتهم، وانطفأت النار وخرجت تقلا سالمة منها. بعدها تركت مدينتها وتبعت بولس الرسول، إلى أن عاد إلى أنطاكية، فتركها لتخدم المؤمنين وتبشّر بالإنجيل. هناك، في أنطاكية، افتتن بها واحد من وجهاء المدينة، وعندما أعيته الحيلة في الوصول إليها، وشى بها إلى الوالي الذي حكم عليها بأن تُطرح إلى الوحوش الكاسرة فعرّوها من ثيابها وأطلقوا عليها لبوة جائعة، لكنّ اللبوة ربضت عند قدميها، ولم تمسّها بسوء. أعادوا الحيلة بضوارٍ أخرى في اليوم الثاني، وكانت النتيجة نفسها، فربطوها في اليوم الثالث إلى زوج من الثيران الهائجة وأطلقوها تجري، وتقلا تتضرّع وتبتهل إلى الله، فأفلت الثوران ولم تصب بأذى، ألقوها في حفرة مليئة بالأفاعي، لكنّ الأفاعي لم تدنُ منها، فذهل الحاكم والناس، واستجوبها الحاكم عن حقيقة سحرها، فأجابته بشجاعة وإيمان: أنا تقلا أَمَةُ الله وخادمتُه وهو الذي أنقذني.

كان صوت الشابّ شجيًّا، وكان جمعة يصغي بكلّيّته، تسري في جسده قشعريرة، يرتجف معها قلبه، بل يرفرف كما لو أنّه يريد الانفلات من قفصه، بدت عليه اللهفة لسماع المزيد، وكان الشابّ مستمتعًا برواية الحكاية التي يحفظها غيبًا، من كثرة ما يردّدها على

الزوّار، مثلما لو أنّه يحكيها للمرّة الأولى.

ـ عادت تقلا إلى مدينتها أيقونية تبشّر سكّانها بالإنجيل، ولمّا رأت قلوبهم موصدة في وجه رسالتها، اتّجهت إلى سورية، وقد مرّت باللاذقيّة وهي في طريقها إلى جبال القلمون التي اتّخذتها معقلاً لها، وحقلاً لنشر رسالتها، فكانت تتردّد بين معلولا وصيدنايا، وتطوف على القرى، فآمن برسالتها جمع غفير من الناس.

لم يكن في الكنيسة غير القائم على خدمتها، والذي يروي تاريخ القدّيسة، وجمعة، فالوقت وقت دوام رسمي، وما زال باكرًا على الزوّار المقيمين في المدينة، وربّما لذلك بدا الشابّ مقبلاً على أن يقدّم إلى جمعة أيّ خدمة يطلبها، مترفّعًا عن المفارقات في منظره، كما يبدو له، بثيابه الرثّة، وحذائه المثني إلى الداخل في مؤخّرته، وساقه القصيرة.

قال الشابّ:

ـ الآن يا أخي يمكنك أن تزور المغارة التي كانت كنيسة تتعبّد فيها القدّيسة تقلا منذ ألف وتسعمائة عام. لكن انتبه إلى الدرجات فهي درجات حجريّة قديمة، تشبّث جيّدًا وأنت تنزل، ثم نسيت أن أخبرك يا أخي بأنّك لو نظرت إلى الأسفل، في قاع المغارة، فسوف ترى مياهًا ما زال مصدرها مجهولاً، لكنّها تأتي من رافد بالتأكيد، ربّما كان هذا سرًّا من أسرار المكان المقدّس، فصاحبته كانت شهيدة في سبيل الرسالة، وكان لها كثير من الآيات، يتوافد الناس إليها لينالوا بركتها، ويقصدها المرضى فيشفون على يدها

المباركة. توفّيت عن تسعين عامًا في سلوقية، وما زالت ذكراها في نفوس الناس إلى اليوم.

ـ هل أستطيع أن أشعل شمعة؟ سأل جمعة مرتبكًا، فقد كان مهنّا أخبره مرّة وهو يقصّ عليه حكاية جارتهم التي تذهب كلّ يوم إلى الكنيسة تشعل شمعة وتصلّي للسيّدة العذراء كي تشفع لابنها المُصاب بداء الساعة، وقد كبرت بالعمر وما زالت تفي نذرها.

ـ بالطبع يمكنك.

اتّجه إلى أوّل السلّم، بسطة صغيرة، ثم هبط عدّة درجات حجريّة إلى اليمين، ملاصقة لجدار المغارة، تنتهي بمصطبة أخرى تلتفّ حولها على شكل مربّع، ينتهي ضلعه الثالث عند الضلع الذي ينفتح عليه باب الدخول المؤدّي إلى الدرجات. يفصل هذه المصطبة عن قاع المغارة حاجز خشبي، على الجدران رفوف محفورة فيها، تتّقد عليها الشموع، وتصطفّ أيقونات مختلفة. أشعل جمعة شمعته، وراح يلتفّ حول المكان، تتغلغل البرودة النديّة في جسده، تخيّم على روحه سكينة. أغمض عينيه وراح يتنفّس عميقًا من منخريه، للمكان رائحة غريبة، يحاول أن يلتقطها، أن يعرف ماهيّتها، بماذا يشبّهها؟ بالرّغم من السكينة التي أدخلها المكان إلى نفسه، للحظة استفاقت فكرة في داخله، أقلقت عليه سكينته. لماذا نفتقد الأولياء والقدّيسين في أيّامنا هذه؟ لماذا الحكّام ظالمون منذ القدم؟ ما الذي ارتكبته تلك المسكينة غير إيمانها؟ هل هي جريمة أن يعتقد شخص بدينٍ غير دين السلطان؟ لكنّها بالنتيجة صارت قدّيسة، الناس يذكرونها إلى اليوم،

والسلاطين الذين آذوها وحاربوها نسيهم الناس. نسيان الجريمة سهل على البشر على ما يبدو يا جمعة.

تاه جمعة عن الرائحة بتأثير هذه الأفكار، وعندما فتح عينيه، دوّمت في سمعه كلمات بولس الرسول وسلوقية، وأيقونية، وصيدنايا ومعلولا، والإنجيل، وصارت الشموع تتراقص بلهيبها الناري، تومض في قاعدة اللهب موجات زرقاء ساحرة، تضفي على رهبة المكان لمسة من الطمأنينة. وطاف جمعة حول قاع المغارة، ورجع يصعد الدرجات كالمنوّم وهو يومي برأسه إلى خادم الكنيسة، مفارقًا عالمًا من الحلم إلى الواقع الصاخب الذي ينتظره في الخارج، يرصده أبو طافش من تحت شجرة في آخر الحديقة.

* * *

قبل ما يقارب مائتي المتر من بسطة مهنّا القطرنجي، في الجهة المقابلة، كان يلفت جمعة بيتٌ قديم يتألّف من طابق وحيد، بيت كبير يتوسّط حديقة شاسعة، يحوطه سورٌ عالٍ يمنحه نوعًا من الخصوصيّة المبطّنة بالغموض. كان البيت يبدو كالحصن متمنّعًا عن المحيط حوله، كما كان جمعة يلاحظ أنّه لا يوجد ما يشي بوجود ساكنين فيه، وكان غياب ملامح الهجران التي تبدو على البيوت المهجورة هو ما يثير فضوله ليعرف حكاية ذلك البيت، فالبيوت المهجورة تشيخ بسرعة، تمشي إلى الموت بعد أن يغادرها ساكنوها تاركين خلفهم صدى الخواء، كأنّما هناك كائنات غير مرئيّة تهاب الحياة، فتبقى مختبئة في ظلمة ما إلى أن تنسلّ الحياة من بين

الجدران، فتنفر من مكامنها وتهجم على الحجارة.

في إحدى المجلّات التي كان يلتقطها من بين أكوام الزبالة، أو ربّما أعطاه إيّاها أحدهم بعد أن فرغ من حلّ الكلمات المتقاطعة، قرأ مرّة أنّ هناك مخلوقات لا تراها العين، موجودة في العالم في أماكنها الخاصّة، تنتعش في حضور الموت، ولفته اسمها: الجراثيم الرمّيّة، تلك التي تعيش على الجثث، تنمو على أنقاض الحياة. تخيّلها مخلوقات غريبة، شيطانيّة، تعربد منتشية كلّما ازدهر الموت. هي ليست بحاجة لأن تشتغل أو تكدح من أجل بقائها، كلّ أسباب وجودها متوفّرة من دون عناء، ما دام الموت أسهل من الحياة، بل ما دام الموت هو غاية الحياة. من المؤكّد أنّ تلك المخلوقات الجبّارة تقوى على الجدران والأبواب والنوافذ، بل حتى على الحديد عندما تغيب الحياة. لا بدّ أن يكون للحجارة عواطف تترفّع عن البوح بها، فتبقى تئنّ بصمتٍ تحت ثقل الغياب الذي يتدحرج على أزمنتها إلى أن تتهاوى وتصبح أطلالاً.

كان هذا الأمر يشغل بال جمعة المتوحّد في حياته، وكان عندما يدخل تلك الغرفة المهجورة التي يجمّع فيها خردواته الخاصّة، يلتقط رائحة غريبة لا يعرف أن يصفها، لكنّه يشعر بها بكلّ كيانه، تولّد لديه رهبة تجعله يمعن في التأمّل والتفكير في تلك الأسرار التي لا يفهمها، وهو يحدّق في الحجارة، والجدران المتهاوية، يحاول أن يرسم حياة في باله يُسكنها في تلك الخربة، يُعمل خياله بطرق مختلفة، ينسج الحكايات عن أناسٍ سكنوها. كان عندما يصحو من خيالاته ويعود إلى نفسه، يكتشف كم تُعاش

الحياة بأشكال لا نهاية لها، ويُحزنه أنّ العمر يمرّ وهو لم ينجز حلمه بعد. يتساءل في دخيلته إن كان ما بقي من العمر سوف يكفي لأن تكون له حكايته الساحرة بين الجدران التي سوف يبنيها، تحت السقف الذي سيجمعه بجميلة، مع الأولاد الذين سينجبانهم؟

المهمّ أنّ ذاك البيت الغريب كان يلفت جمعة كلّما مرّ من أمامه، ويُثير فضوله، إلى أن ينساه أثناء انهماكه بعمله، والفضول الذي تولّده بعض الغرائب التي يصادفها، تذكّر مؤخّرًا أن يسأل مهنّا عنه. مهنّا يعرف كلّ شيء عن الناس، عن أحوالهم الخاصّة والعامّة، لا يفوته شيء، لا بدّ أنّه يعرف أشياء عن ذلك البيت، سأله:

ـ ذاك البيت فوق، بعد الكازيّة بقليل، ما في أحد يسكنُه؟

ـ لمَ تسأل؟ ماذا تريد منه؟

ـ لا شيء، إنّما لفتني كبرُه، والحديقة التي تُحيط به، لكن كأنْ لا أحد يعيش فيه، على طول شبابيكُه مغلقة.

ـ هذا البيت يا سيّدي تسكنه واحدة عازبة، عمرها بالأربعينيّات، كان أبوها مقتدرًا، اسمُه عزّام الحلواني، يملك أكثر معامل الحلاوة في اللاذقيّة، ألم تأكل ولا مرّة حلاوة العلمين يا جمعة؟ هذه الصنعة كانوا يتوارثونها أبًا عن جدّ، لكن عزّام كان وحيدًا على أربع بنات، ورث كلّ شيء يملكه أبوه، راضى أخواته البنات بكم ليرة، وكوْحَشْ على كلّ شيء. عزّام مات باكرًا، ما أنجب أولادًا غير بنت وصبي، الصبي راح ليدرس بأميركا وما رجع، أخد نصيبه من ورثة أبيه، ترك أمّه وأخته وراح وما رجع.

الأمّ مرضت من زعلها عليه، أتتها جلطة بعيدًا عنك، صارت مشلولة، والبنت نذرت حالها لخدمة أمّها، ماتت الأمّ من كم سنة وبقيت البنت وحدها، عمرها فوق الأربعين، لا يراها أحد، هذه العائلة من الأساس مترفّعة كثيرًا عن الناس، لا يعاشرون أحدًا من حولهم، لهم عالمهم. يُقال إنّ البنت رفضت كثيرًا من العرسان لأنّها لم تجد أحدًا يناسبها، هكذا يقولون.

بينما كان مهنّا يقصّ على جمعة حكاية البيت، تنبّه جمعة إلى الاسم: الحلواني. تذكّر الكيس الذي أخذه من حاوية قريبة، يوم فتحه فوجد رسالة وحيدة موجّهة إلى الآنسة دلال الحلواني، عليها خاتم بريدي مؤرّخ بمنتصف الثمانينيّات. فتح المغلّف المقصوص في إحدى نهايتيه، فوجده فارغًا، كانت الرسالة آتية من دولة خليجيّة، أمّا بقيّة الأوراق فكانت مرتّبة بعضها فوق بعض، كما لو كانت تكدّست على أزمنة متلاحقة، لم يقرأها جمعة، بل خبّأها مؤجّلاً قراءتها إلى حين. لكنّ الحديث الذي دار بينه وبين مهنّا حرّضه على فتحها، وفكّر بأنّ يوم الجمعة قريب، بعد الغد، سوف يأخذ الأوراق إلى مكان عزلته، سيربط الحمار بعد أن يقدّم له وجبة كافية حتى لا يزعجه في استكشاف عالم أخذ يفكّر فيه، قبل أن يقرأ شيئًا، ويرسم في مخيّلته حياة له.

ـ ٨ ـ

لم يستطع جمعة الانتظار حتى يوم الجمعة. حديث مهنّا وحكاية ذلك البيت أثارا فضوله، وتلهّف لأن يفرد تلك الأوراق ويعرف ماذا تخفي بين طيّاتها. حين فكّر في الوقت، وأنّه سوف يصل مساء إلى الخربة، ولن يستطيع قراءة شيء، قرّر أن يختصر مشواره في هذا اليوم، كما تنازل عن مشوار البحر، واتّجه إلى الحيّ باكرًا، وسط دهشة إخوته. قال لأمّه إنّ لديه شغلاً خاصًّا، انسلّ بخفّة إلى حيث يخفي أغراضه، أخذ كيس الأوراق، ومضى مع حماره، الذي تمنّى أن يتركه في الزريبة، ولكنّه اصطحبه معه حرصًا على عدم إثارة الفضول. كان الحمار يتذمّر في دخيلته، فقد استطابت نفسه القيلولة في زريبته، ولم يعد يذكر آخر مرّة استطاع أن ينعم بخدر القيلولة فيها. ربّما كان يخمّن أنّ زمنًا طويلاً قد انقضى، فحتى في أيّام الجمعة كان صاحبه لا يعفيه من دورته تلك، لأنّ جمعة اختار عملاً لا علاقة له بالعطل، الناس في هذه المدينة يمكن أن يتعطّلوا عن أيّ شيء إلّا إنتاج الزبالة، بل تزداد كمّيّتها في مثل هذه الأيّام، خاصّة أنّ معدّل الأكل يزداد. أكثر

مجالٍ للترفيه لديهم هو مجال الأكل، عدا أنّ علاقة غامضة تربطهم مع الطعام، فالحصول عليه، وتخزين المؤن للمواسم الفقيرة، همّان أساسيّان يشترك الجميع فيهما. أفراحهم يعيشونها بحضور السيّد الأكل، حتى أحزانهم الجماعيّة، وبالأخصّ مآتمهم لا تلبّي الغاية منها إلّا بالطعام، وكأنّ الطعام هو أمانهم الوحيد في الحياة، يعبّرون عن امتنانهم له بالمبالغة بالاحتفال به في شهر الصوم، فتعمر الموائد بأصناف وكمّيّات تفوق الحاجة والاشتهاء، مستجدين المتعة الغائبة عنهم في أيّامهم الأخرى، في الأطباق التي تقضي النساء معظم أوقاتهنّ خلال النهار في تحضيرها. كان أبو طافش يعرف هذه الخاصّيّة لديهم، من كثرة ما انهمك في السنين الماضية مع جمعة في الشغل أيّام الجمعة والعطل وشهر الصوم والأعياد، لذلك كان يحلم بأن تتحقّق معجزة في بعض الأحيان، ويتركه صاحبه مسترخيًا في زريبته وقت القيلولة.

لم يكن جمعة يمتطي حماره حتى لو لم يكن لديه حمولة. إذ اعتاد المشي، بل صار السير على قدميه، بالرّغم من عرجه، وهو يجرّ حماره خلفه، علامة مميّزة له. نادرًا ما رآه أحدٌ بدون حماره، وأكثر ندرة أن يراه أحدٌ يمتطيه، كما أنّ كلّ الذين يعرفونه، اعتادوا على طبعه، فهم يلقون عليه التحيّة، من دون الوقوف معه وفتح أحاديث كعادة الناس في الحيّ. لذلك لم يسأله أحدٌ ممّن التقوا به عن وجهته، بالرّغم من استغراب البعض من وجوده في الحيّ في وقت باكر كهذا، ممّا منحه نوعًا من الراحة الضمنيّة.

وصل الغرفة المهجورة. كانت السحالي كعادتها تنسلّ مسرعة من بين العشب، وتدخل أوكارها. لم يأبه بها جمعة، بينما أخذ أبو

طافش يتأمّلها مستغربًا: أمركم عجيب أنتم يا حراذين، تعيشون في البرِّيّة، وعلى حدود البشر، وبينهم، وتبقى حياتكم كما هي. لا البشر استطاعوا أن يسيطروا عليكم، ولا أنتم قرّبتم منهم. عندما يشاء واحدكم، يستطيع أن يدخل إلى أيّ بيت، من أيّ فتحة أو شقّ يصادفه في طريقه، ينام، يفيق، يسرح، يأكل، ولمّا يلمح بني آدم ينسلّ ويختفي بلمح البصر، يا ترى القوّة بدهائكم ومكركم، أم لأنّ البشر لا يريدون منكم شيئًا؟ الآن سيربطني صاحبي إلى جذع أيّ شجرة، ويتركني واقفًا منتظرًا إيّاه حتى ينتهي من عاداته الغريبة، كأنّي قطعة حجر لا تحسّ ولا شيء من هذا. يا الله، هذي هي حياتي من يوم ما فقت على ها الدنيا.

جلس جمعة في مكانه المعهود، بعد أن ضاق المكان عليه بسبب الأكوام التي يأتي بها كلّ مدّة تحضيرًا لمشروعه. أشعل سيجارته، ثم مدّ يده إلى الكيس يتلمّسه بمهابة هو نفسه لا يفهم سرّها.

كان مغلّف الرسالة فارغًا، لكنّه استطاع أن يتعرّف على اسم المرسل، وتاريخ الإرسال، والبلد الذي أتت منه الرسالة، وتريّث قبل أن يفترض سببًا لاختفاء الرسالة، ثم وضع المغلّف بجانبه، وتناول أوّل ورقة، وأخذ يقرأ:

غسّان: أكتب رسالتي إليك وأرجّح مسبقًا أنّني لن أرسلها، فبعد ردّي على رسالتك لم يصلني منك شيء بالرّغم من مرور أكثر من ثلاثة أشهر على ردّي، أعرف أنّك لم تستلطف ما جاء فيها، ولكن كان لا بدّ من وضع النقاط على الحروف. أنت يا غسّان

ادّعيت أنّك ذاهب كي تعمل وتجمع ثروة من أجل أن تتقدّم لخطبتي، هذا ما أخبرتني به قبل سفرك، أعرف أنّ الحالة في البلد كانت خانقة، وأنّ الذين يعملون بالتجارة والمشاريع منذ مدّة يعانون اليوم، ومنهم أبي، الذي كما تعلم المال بحوزته، لكنّه يعاني بسبب فقد الموادّ من الأسواق، وعدم قدرة الناس على مجاراة الغلاء. وافقتك على أن يكون غيابك لمدّة معلومة، تعود بعدها، وأستطيع أنا حينها مواجهة أسرتي من أجل ارتباطنا، لكنّ ما فهمته من رسالتك وامتناعك عن الردّ أنّ أسبابك غير المعلنة كانت مغايرة تمامًا. بدا لي كما لو أنّك تنتقم منّي بسبب أمور عديدة، أوّلها أسرتي الغنيّة التي لم أضعها أنا في الميزان بيننا، ثم اعتراضك على نمط علاقتي بك. أنا هكذا منذ تعارفنا، لم أعدك بأنّني سأتغيّر، كنت واضحة معك منذ البداية. أنت الوحيد في حياتي، الوحيد الذي أحببت، الأوّل والأخير، لكن نحن نشأنا وتربّينا هكذا. أنا عندما دخلت الجامعة، كانت توصيات أبي وأمّي مستمرّة بأن أحافظ على تربية بيتنا، وأنا لم أعترض عليها. كنت حريصة على ذلك، وعندما رأيتك أوّل مرّة، شعرت بشيء يختلج في أعماقي، لم أعرف ما هو، لأنّ الحبّ لم يكن واردًا في بيتنا. أنت تعرف، وقد حدّثتك كثيرًا عن هذا الأمر، بل كان الزواج عن طريق الاستدلال والعلاقات بين الأسر هو الأمر الطبيعي في الحياة. أنا بصراحة كنت أشعر أحيانًا كثيرة بأنّني خنت أسرتي وبيئتي، وأشعر بالذنب لأنّني أحببت. كنت دائمًا أشعر أنّ أمّي تلاحقني بنظراتها، وأنّها تعرف ما في دخيلتي، وهذا ما كان يسبّب لي الاضطراب والتوتّر. لم أكن أستطيع الصمود أمام نظراتها، كما

كنت دائمة الخوف من أن يعلم والدي. أعرف أنّه لن يكون عنيفًا معي، ولكن سيكون حازمًا، وسوف يمنعني عن الجامعة، وهذا ما كنت أخشاه. مع كلّ ذلك بقيت على عهدي معك، لكن ليس بالطريقة التي كنت تريدها. كان لك مفهومك عن الحبّ، ولم أكن أستطيع مجاراتك بأكثر من لقاء بين جموع الطلبة. كنت أتهرّب من محاولات انفرادك بي في زوايا منعزلة، واعدة إيّاك بأن تكون لنا حياتنا الجميلة في المستقبل، عندما نتزوّج. أتذكّر تلك الأيّام، أشعر بالحنين، وأتساءل: لماذا لم ترسل لي بعد رسالتك الوحيدة؟ هل الشغل يلهيك إلى هذا الحدّ؟ ما زلت أنتظر ردًّا منك.

طوى جمعة الورقة، وأخذ يستعيد صداها، يرسم صورة لتلك الفتاة في خياله، يعيد تشكيلها، تتغيّر ملامحها، يحاول أن يمنحها هويّة، يستعيدها كلّما خطرت بباله، لكنّها كانت صورة فتاة حزينة. تذكّر جميلة، تلامحت له نظراتها من بعيد، كما لو كان يتعرّف إليها للمرّة الأولى. لماذا لم ينتبه إلى ذلك الشيء الغامض المستبطن عينيها منذ تلك الأيّام البعيدة، عندما كانوا صغارًا، يلعبون في الساحة الترابيّة التي يجتمع فيها أولاد الحيّ؟ لماذا سحره هدوؤها منذ أوّل عهده بها وهما بعدُ طفلان؟ كانت لها رائحة تأسره، أغمض عينيه وأخذ يستحضر تلك الرائحة، متنهّدًا بعمق وشراهة، رائحة تضيع بين التوابل والقرنفل، بل هي قريبة من رائحة النار عندما كانا يلعبان ويتقافزان ويشدّان الحبل مع بقيّة الصغار، تنبثق من وجنتيها المشتعلتين، تبدو البقعة بجانب خدّها الأيمن مثل بركة ماء وسط النار. كان يلتقط تلك الرائحة بكيانه، يضطرب معها. لم يكن يدرك في البداية ما يحصل معه، أو ذاك الاضطراب الذي تثيره

في جسده، لكنّه صار مع الوقت ينتبه إلى تلك الإثارة التي تتمكّن منه، وأنّ شيئًا له فعل النار يشتعل في كيانه منطلقًا من جزئه السفلي، بل كان يحمرّ وهو يشعر أنّ شيئًا يتحرّك وينتأ أسفل بطنه، بين فخذيه، كلّما اقترب من جميلة، وكلّما سرت رائحتها أكثر في كيانه، حتى صارت تلك الإثارة تنتابه كلّما تذكّر بقعة وجهها التي تداريها بغرّة فوضويّة تتركها تنسدل على وجهها، فتغطّي نصف عينها اليمنى، ممّا يزيدها فتنة وإغواء في عيني جمعة. هل كان ما قرّبهما في ذلك الزمن هو تعاطفها معه عندما كانوا يلعبون بشدّ الحبل، ويتذمّر منه بقيّة الأولاد، إذ يرفض أيّ من الفريقين أن يكون جمعة معه، وتصرّ جميلة على أن ينضمّ إلى فريقها، وإلّا خرجت من اللعبة التي كانت تحتاج إلى قسمة بالتساوي بين الفريقين، وخروجها من اللعبة يعني إلغاءها؟ كانت صامتة على الدوام، وإذا تكلّمت فهي قليلة الكلام، جملها قصيرة، وقاطعة. ربّما كان هذا ما لفت جمعة الذي كان هو أيضًا منذ طفولته هكذا، كأنّما ابتدأ بينهما حديث بلغة باطنيّة، قرّبهما أكثر، وأخذت اللهفة بعدها تنمو في أعماق كلّ واحد إلى الآخر. حتى أيّام الأعياد، عندما كان عبد الرازق وأولاده ينصبون المراجيح الخشبيّة، والمقاعد التي تُربط من جانبيها بحبالٍ إلى دائرة كبيرة من كلّ جانب، تدور حول محور كالعجلات الضخمة، تلك التي يسمّونها قلّيبة، كان جمعة وجميلة يجلسان متقاربين متلاصقين من دون أن يخبر أحدهما الآخر بما ينوي. لم يعرف في البداية ما هو ذلك الإحساس الذي يشعر به عندما يلتصق جسده بها، أو عندما تنحشر به، حين تهوي القلّيبة من علٍ فينكمش قلب جميلة في صدرها،

كانت تخاف هذا الهبوط السريع، وتخاف أكثر وهي في الأعالي، تلجأ إلى جمعة وتنحشر به، فيدغدغها شعور ناعم مبهم، يرتبط برائحة جسده، وتبقى تحت تأثير ذلك الشعور أيّامًا، تستحضره في بالها كلّما أوت إلى فراشها، تتذكّر تلك الرائحة وتحلم باللقاء الثاني.

تلك الذكريات كانت تحضر جمعة وهو يدور كلّ يوم في شوارع المدينة، يمرّ أمام بعض مدن الملاهي الحديثة التي تكاثرت في اللاذقيّة، ويتحسّر على ذلك الزمن الموشّى بجمال له طعم الحنين. لم تكن المراجيح كالتي يراها اليوم، ولا القلّيبات، عندما يقف ليتأمّلها، ويصدمه علوّها، يتذكّر جميلة وانحشارها بجسده، يتخيّل أنّها تركب فيها، يرتفع ساعده من دون أن يشعر ليحوطها، ليضمّها إلى صدره. يخفق قلبه، ويطبق الخواء على صدره، لا جميلة، ولا ولدان صغيران يتأرجحان على وقع الفرح أيّام العيد، يكويه الحنين. ويزداد عزمه وحماسه على إنهاء عمله في أسرع وقت، حتى يطير إليها، يخطفها ويغيب إن لم يوافق ذلك العنيد والدها على تزويجها منه.

انتبه جمعة إلى أنّ الوقت تأخّر، وأنّ الغروب خيّم على الأرض، وأبو طافش يرفس الأرض بقوائمه، ويلوّح بذيله بحركة دؤوبة. لا بدّ أنّ شيئًا يزعجه، هو يعرف طباعه تمامًا، ربّما كان جائعًا، أو لعلّه تعب من وقفته الطويلة، لذلك نهض، وضع الرزمة في خرج الحمار، أشعل سيجارة وفكّ حبل الحمار، وطفق راجعًا يعيد في باله ما قرأ في تلك الورقة تارة، ويحلم بغدٍ تعمّره الأحلام بجميلة.

- ٩ -

في غفلة منه كبر الأولاد، صار حمّود يعود إلى البيت في آخر النهار، يحمل كلّ يوم أربع ربطات من الخبز، لم تكن تشبع تلك الأفواه الفاغرة على الدوام، لتكبح نهم أجسادٍ تكبر ويزداد حجمها. طلباتهم لا تتوقّف عند حدّ، وهو يرحل منذ الصباح الباكر ليتصيّد رزقه، لكنّ الشغل يقلّ كلّ يوم عن الذي سبقه. صار يذهب إلى البازار الذي تغيّر، ازداد عدد المحلّات والدكاكين، ازدادت البضائع، ودخلت بضائع أخرى لم تكن موجودة من قبل. تنوّعت المحلّات بأشكالها وبضائعها، كثُر الازدحام، تزايد عدد الناس، لكنّ الشغل داقر كما كان يصرخ في وجه أمّ عزّو عندما تتلقّفه كلّ يوم عند عودته، وهي تكرّر الأسطوانة نفسها عن طلبات البيت والأولاد. كان يذهب إلى السوق، ويعرض نفسه بأرخص من الماضي، لكنّ تلك الآليّات الدخيلة التي تسلّلت إلى الحياة راحت تزاحمه، تلك السيّارات الصغيرة التي يسمّونها سوزوكي، تجيد التحميل والسرعة وهي غير متطلّبة، لا تنتظر من سائقها شيئًا غير قليلٍ من الوقود. تحمل أكثر من قدرة البغل على الجرّ بكثير، كما أنّ صاحب الحمولة ليس مضطرًّا لأن يمتطي ظهر البغل ويشمّ

رائحة بوله، وتلفحه أنفاسه الساخنة الزنخة، ولا أن يجلس بين الأكوام على عربة البغل، طالما هناك وسيلة أجدى وأكثر راحة.

حتى لو باع حمّود بغله، وهو يعرف أنّ الطلب على البغال قد قلّ، لو باعه لا يستطيع تأمين ما يلزم من مال فوق ثمنه من أجل شراء واحدة من تلك السيّارات الدخيلة. وهل يستطيع بعد هذا العمر أن يتعلّم السواقة؟ كان يفكّر ويتساءل، ويحكي همومه في قهوة أبي تحسين التي جدّدها صاحبها، وأحاطها بواجهات زجاجيّة، ووضع في صدرها تلفزيونًا، يستأثر بأكبر عدد من الروّاد، وهو يصمّ سمعه عن تنبيهات الشيخ يحيى التي انقلبت إلى تحذير له، ودعوة صريحة لمقاطعة مقهاه أثناء خطبة الجمعة في الجامع الذي بُني منذ عدّة سنوات بجهود الشيخ يحيى والدعم المالي الذي أتاه من خارج الحيّ، فهذا الجهاز الخبيث سوف يخرّب عقول المراهقين الذين بدؤوا بالتردّد على المقهى، ويلهي الشباب عن واجباتهم، والرجال عن مسؤوليّاتهم، ويُبعد الجميع عن صلواتهم، وعباداتهم. هذه البدع التي يبثّها التلفزيون مغرضة، وهدفها تفتيت الأسر، باختراقها حياتهم وجعلها عرضة للتغيير. هذه البدع تمثّل حياة أمم أخرى تعيش بطرق بعيدة عن ديننا، وعاداتنا وتقاليدنا النبيلة. هكذا كان يتحدّث الشيخ يحيى في خطبة الجمعة، ولم يوفّر زيارة واحدة أو أكثر في الأسبوع بحجّة إقناع أبي تحسين بالتي هي أحسن. يشرب عنده كوبًا من الشاي، ويسترق نظرات مواربة مترعة بالرغبة والاشتهاء إلى صور النساء التي تتحرّك على الشاشة، يستمتع بغناء المطربين، وهو يزورّ عنها أمام العيون الشاخصة إليه تنتظر مواعظه، ويتمتم بالتعاويذ بين وقتٍ وآخر.

كان أبو تحسين يفرط في الترحيب بشيخ الحارة، يكرمه

بضيافته، ويخصّه باهتمام لافت أمام أعين الجميع:

ـ السلام عليكم يا شيخنا، والله نوّرت المحلّ، هات أحلى كأس شاي للشيخ يحيى يا ولد.

ويسحب كرسيًّا، ويجلس قبالته باشًّا ومكرّرًا الترحيب.

ـ نريدك يا شيخنا أن تشرّفنا على طول، صحّ إطلالتك علينا أبهى من إطلالة القمر، لكن ليس بالشهر مرّة، الله يخلّيك لنا، أنت بمجيئك لعندنا تبارك المحلّ والله.

ـ يكتّر خيرك يا أبو تحسين، أنت تعرف أنّ كلّ رجال الحارة قريبون إلى قلبي، وكلّهم أولادي وتهمّني مصلحتهم، وأوّل المصالح هو الإيمان والتقى، والعمل بما يرضي الله ورسوله، وأنا جئتك من أجل هذا الموضوع. يا أبو تحسين ضروري هذا الجهاز الملعون في محلّك؟ ألا ترى مثلي أنّ هذا التلفزيون يؤثّر على عقول الرجال بالحارة؟ يخلّيهم يطّلعون على أشياء غير موجودة في حياتنا، وعادات غريبة عن عاداتنا؟ بماذا يلزم هذا الجهاز يا أبو تحسين، يعني قهوتك ما شاء الله شغّالة، ودكّانك فيه بضاعة كثيرة، وكلّ الحارة تشتري من عندك، ارمِ هذا التلفزيون من قهوتك وأرح لي بالي.

ـ إيه يا شيخنا! والله لا يوجد ما يستدعي الخوف، الرجال تعّيبة، خلّهم ينبسطوا قليلاً عند المساء بكم حكاية، أو أغنية، خلّهم يسمعوا خبرًا غير أخبارهم، ملّوا من أخبارهم وحكاياتهم. يوجد في الدنيا عالم ثانٍ يا شيخنا، لا تبتعد كثيرًا، بعد حارتنا توجد حارات وحارات. إلى متى سنبقى نظنّ أنّ العالم كلّه موجود ضمن حدود الحارة، بينما الدنيا خارجها تتغيّر وتتطوّر ونحن نجهل ماذا يحدث؟

ـ شو صاير عليهم يا أبو تحسين، ها هم يأكلون ويشربون وينامون في بيوتهم، وربّ العالمين يبعث لهم ذرِّيّة، خلِّ الذرِّيّة تكون صالحة، تعرف ربّها، والإيمان معمّر قلوبها.

ـ لكن يا شيخنا التلفزيون ليس ضدّ الإيمان. من قال إنّه إذا شفت التلفزيون سيصاب قلبي بالعمى، وما عاد رح أتذكّر ربّي؟

ـ هذا التلفزيون يربك الرجال يا أبو تحسين، أنا أنصحك، وأتمنّى لك التوبة.

يضحك أبو تحسين، ويقول للشيخ:

ـ الله يجعلنا من التائبين يا شيخي.

اقترب أحد الرجال مرتبكًا من الشيخ يحيى، كان مضطربًا، يتلعثم بكلامه، قال له:

ـ شيخنا! أدامك الله فوق رؤوسنا، وبارك بحكمتك. أريد أن أستفتيك بأمر يشغلني.

ـ تفضّل يا ملحم.

ـ شيخنا، الحقيقة أنّي حاولت أمنع التلفزيون عن البيت، لكنّ أمّ العيال رفضت وقاتلتني كثيرًا، ما قدرت آخر الأمر أن أمنعها، لأنّ حجّتها كانت قويّة، قالت لي: أنت كلّ النهار خارج البيت، تلتقي بالناس، وترى دنيا غير التي نعيش فيها، تتحادث مع أناس غير الذين نتحادث معهم، أنا والأولاد محبوسون بين أربع حيطان، خلّنا نرَ عالمًا آخر حتى لو كان بالتلفزيون، ما هو الخطأ في هذا؟ لم أمتلك بعدها حجّة يا شيخنا، قبلت. لكنّ ما يقلقني هو أمر آخر أريد فتواك بخصوصه.

ـ ما هو هذا الأمر؟

ـ هل المرأة التي تجلس قبالة التلفاز بملابس البيت ويراها المذيع هي آثمة؟ كيف يمكن تدبّر وضع كهذا؟

ـ عليها أن تتدثّر جيّدًا يا ابني، وأن تجلس بزاوية تضمن لها ألّا يراها المذيع، أو أيّ ذكر يظهر في التلفاز، حتى لا يكون هناك مجال لخلوة غير شرعيّة، والأفضل أن تفرض عليها ألّا تشغّل التلفاز إلّا بحضورك، طالما لم تستطع أن تمنعه من دخول البيت.

كان أبو تحسين يستمع إلى الحديث، بسبب قربه من الشيخ يحيى الجالس إلى طاولته، ويبتسم في سرّه وهو مطمئنّ إلى بقاء التلفاز في محلّه. كان يعرف أنّ الشيخ يحيى لن يصعّد الصراع بينهما أكثر، لأنّه أكبر متبرّع للجامع، لا ينسى أن يدفع كلّ شهر مبلغًا مرصودًا للجامع من أجل المساهمة في تأمين احتياجاته ليقوم بالدور الرائد الذي يضطلع به، عدا مساهماته الخيريّة في الأعياد من تبرّعات للأسر المستورة، وزكاة لشيوخ الجامع، من الشيخ يحيى إلى البقيّة.

كانت تنتاب حمّود نوبات من الغضب والاستثارة، لأتفه الأسباب، يتذمّر من أيّ شيء، وعلى الرّغم من أنّه تجاوز الخمسين بعدّة أعوام، إلّا أنّ فحولته ما زالت تتّقد، وتهوش عليه غريزته، التي لا يستطيع ترويضها وجعلها تتمهّل إلى أن ينام الأولاد. كان، بعد أن ازداد عددهم وكبروا قليلاً، قد قطع الغرفة الكبيرة بحاجز خشبي إلى غرفتين، تحت إلحاح دنّورة التي صارت تخجل من أولادها، خاصّة جميلة الصامتة الشاردة بشكل دائم، والتي عندما تنتبه، تكون نظراتها كالسياط الحارقة على كلّ من حولها. كان في عينيها قسوة فظيعة، وفي نظرتها سخط يختلط مع

حنقٍ ورفضٍ وشيء آخر مبهم. ولم يكن الحاجز الخشبي قادرًا على أن يكتم لهاث جمعة وشخيره وهو ينتفض من اللذّة فوق دنّورة التي ازداد نحولها، وازداد استسلامها.

في الليالي المترعة باللذّة في الجزء الداخلي من الغرفة، كان الأولاد يستيقظون على الأصوات المنفلتة من خلال الحاجز. ربّما لم يكونوا نائمين، إنّما النوم يأتي بقرار من أبيهم، فيندسّون متلاصقين تحت أغطيتهم على الإسفنجات الممدودة على الأرض، تعتلج دواخلهم بهموم ومشاعر شتّى، فترتعش الأجساد الصغيرة، ويتحرّك شيء ما فيها، شيء غامض يسيح في الجسد كلّه ثم ينسحب بخفّة إلى جزء يختفي بين الفخذين، تبدأ المداعبات، كلّ بطريقته، وتمتدّ الأيدي إلى الجسد الملاصق تستكشفه، وتدعوه للمشاركة في أحاسيس لذيذة تدعو الآخر إليها، ومع الوقت يزداد الكشف، وتتطوّر الخبرات، إلى أن تصبح تلك العادات السرّيّة جزءًا من حياتهم، في الليالي الطويلة التي تبدأ من المساء، وهم محشورون في ذلك المكان الضيّق، الذي لا يفسح مجالاً لأيّ نشاط آخر.

كلّما ضاق الأفق أمام وجه حمّود، صار متطلّبًا أكثر، نهمًا أكثر، حدّ الإفراط في طلب اللذّة، وكانت دنّورة تتحجّر مع الوقت، منساقة خلف رغبته التي لا تعرف اللجام، مسلوبة الإرادة. حتى استبدّت تلك الحالة به. كان يأتي من السوق، يحمل ضيقه وغيظه المتفجّر في صدره، هاربًا من مواجهة واقع صار أكبر منه، يدخل البيت مزمجرًا، شاتمًا من يطلع في طريقه من الأولاد، لاعنًا جميلة التي لا شغل لها إلّا العلف كالنعجة، بعد أن ازداد وزنها، وصار الأكل وسيلتها الوحيدة في تزجية الوقت. هي تساعد أمّها

في كلّ أشغال البيت، لكنّ الوقت طويل، والخبز له رائحة تشي بالحياة التي كانت غافلة عنها، يدغدغ رغبتها بطريقة ماكرة، وتتخفّى الرغبة في فضاء ملوّن، يحرّضها على سلوك لا تستبينه، فيمْثل رغيف الخبز يناديها بجاذبيّة آسرة، تلفّ الرغيف على حفنة من حبّات الزيتون، وتلتهم بهياج واستثارة لافتين. الوقت طويل، والخواء في داخلها يزداد ضراوة على وقع خطواته الثقيلة، والرغيف يغوي، والشهيّة تتحوّل من شكل إلى آخر، واللذّة المرجوّة لا تأتي، تتمنّع بطريقة تعذّبها، وجمعة صار ذكرى، وآلام دورتها الشهريّة تلهب أحشاءها، وتفجّر غثيانها.

دخل أبوها البيت يتّقد في عينيه شررٌ لا يحتمل لهيبه، وبريق يلمع على حوافّ أجفانه، مع لعاب يتطاير في كلّ الجهات فيمطرهم به مع شتائمه ولعناته، يزفر كالثور بعدها ويأمر دنّورة بأن تدخل إلى الغرفة وتحضّر له ثيابه الوحيدة التي يملكها لأجل المشاوير الخاصّة. دخلت دنّورة مستسلمة لقدرها. هي تعرف تمامًا ما الذي ينتظرها، وصارت تخجل من أولادها، بالرّغم من سحنتها الجامدة. أغلق الباب خلفهما، دفعها من كتفيها وألقاها أرضًا على الفراش الممدود دائمًا، والذي صارت تخاف من طيّه بعد الاستيقاظ كما كانت تفعل سابقًا. لقد هدّدها فيما لو فكّرت بطيّه، فهذا الفراش يجب أن يبقى على الدوام جاهزًا، عندما تداهمه غريزته التي لا تعرف المواعيد، ولا يطيق صبرًا عليها. ألقاها أرضًا، وانبطح فوقها، لم يخلع ثيابه، اكتفى بفكّ أزرار سرواله، سحب قضيبه النافر، اقتحمها، وانتهى بعد نوبة عنيفة من الهياج والارتعاش خلال دقائق قليلة، ثم أمر الكتلة الهامدة التي خلّفها على الأرض أن تقوم وتعطيه ثيابه، لأنّ لديه مشوارًا هامًّا.

عندما خرج من الغرفة بهيئة مختلفة، وملامح وجهه فيها شيء ما، يشبه تلك التي يوحي بها وجه حصل صاحبه على الشبع. لم تكن ملامح رضا، بل شبع خلَّف وراءه هدوءًا أصمَّ جعل جميلة تنظر إليه من طرف عينها، فتتملّكها أحاسيس مقزّزة تغلّف خواء بدأ يصرخ في أحشائها. خافت أن تهرع إلى المطبخ أمام عينيه المتطلّعتين نحوها. كان ينظر إليها بعينين تخفيان حديثًا طويلاً، لكنّه لم يتكلّم، بل أطال النظر إليها، وهي تنتفض تحت ضربات قلبها، لم يكن الخوف منه في تلك اللحظة هو ما حرّض توتّرها، بل أشكال الأرغفة التي راحت تتراقص بإغواء لعين في خلدها. كانت تستعجل خروجه من أجل أن تهرع إلى المطبخ، هناك فوق خزانته الخشبيّة المنخورة بالسوس، تضع أمّها الخبز في طبق من القشّ، تغلّفه بقماش أبيض، تتكدّس الأرغفة برتابة مثيرة، سوف تأخذ واحدًا تغرقه بالزيت، وتحشوه بالبصل، سوف ترشّ عليه الملح الذي يعطيه طعمًا لذيذًا، وتأكل حتى الامتلاء، فليخرج. لماذا لم يخرج بعد؟

عاد مساءً أكثر هدوءًا، وأقلّ شراسة، كانت بعض علامات الراحة ترتسم على وجهه، نادى على جميلة، فأتته مطأطئة رأسها، ليس بدافع الخوف وحده، بل كي لا تلتقي نظراتها بنظراته، بعد تلك السنين، وبعد أن اعتادت على حجب عالمها عن الآخرين. وقفت قبالته تنتظر أوامره. قال لها:

ـ غدًا سنذهب أنا وأنت إلى الريجي، نجهّز أوراقك، وتقدّمينها من أجل الوظيفة، أنتِ اعتبارًا من يوم السبت ستباشرين بالوظيفة، سامعة؟ أنا رحت اليوم لعند الشيخ يحيى، وأعطاني الردّ بعد ما كنت قد كلّمتُه بشأن الوظيفة من كم يوم، وعدني أنّه سوف

يتوسّط لي مع واحد مسؤول بالفرع. اليوم جاء الخبر، وأنا وعدتُه بأنّ أوّل معاش تأخذينه سيكون هديّة له.

فرحت جميلة في سرّها، فرحها المباشر كان بسبب حلمها اللحظي بخروجها أخيرًا من البيت، بعد أربع سنوات لم تطأ عتبته خلالها. لكنّ الفرح تلاشى فجأة كفقاعة الصابون عندما تخيّلت العالم الخارجي، أصابتها حالة من الخوف بمجرّد التفكير به، هذا العالم الغريب المليء بالبشر الغرباء، وجميلة تهاب الاختلاط. منذ أن كانت صغيرة تلعب مع الصغار، لم تختلط مع أحد، حتى النساء اللواتي كنّ يأتين لزيارة أمّها كانت تتوارى عن أنظارهنّ، تكره أن تدخل عليهنّ واضعة يدها على خدّها الأيمن، ولا تحبّ أن تقدّم القهوة وغرّتها مرفوعة إلى قمّة رأسها، بل تكره النظر في عيونهنّ المراقبة المتفحّصة، مثلما لو كانت عربة خضراوات، أو بسطة بالة يفلشنها كما يحلو لهنّ. لم تفلح ملاحظات أمّها لها، تلك التي لم يكن لديها الحافز أساسًا لأيّ موضوع، إنّما نزولاً عند رغبة الضيفات اللواتي يسألن عن ابنتها الصبيّة، حتى امتنعن عن السؤال بعدما عرفن أنّ جميلة لها مزاج صعب، وهي انطوائيّة، ولا تحبّ الناس، عدا نعوت أخرى كنّ يصفنها بها. لذلك لم يتقدّم العريس الذي كان ينتظره أبوها، بعدما هدّدها ورفض زواجها من جمعة.

صباح السبت المنشود، نهضت جميلة باكرًا تحت إلحاح والدتها، وصيحات أبيها. كان النوم قد جافاها طيلة الليل، وهي تترصّد الغد، وترسم لشغلها أشكالاً في خلدها، الشغل الذي لا تعرف عنه شيئًا، إنّما كان يريحها قليلاً استعراض الطريق الذي اجتازته مع أبيها عندما ذهبا من أجل استكمال أوراق الوظيفة. لقد قطعاه عدّة مرّات خلال الأسبوع، من أجل الحصول على الأوراق

المطلوبة، وانتظار الدور بين الجموع المكدّسة في الدوائر المعنيّة. كانا يدوخان بين الأماكن، فالحصول على ورقة السجلّ العدلي استغرق يوم دوام كاملاً، بعدها الوقوف في الطابور من أجل الإحالة إلى الجهات الطبّيّة المختصّة بمنح التقرير اللازم، ثم الوقوف المديد أمام مبنى لجنة الفحص حتى تصل جميلة إلى دورها من أجل الخضوع إلى الفحص، كلّ هذه المعاناة ومكابدة التعب والإنهاك من أجل قبول أربعين عاملة فقط، من بين تلك الجموع الكبيرة التي فاق عددها الألفين. هذا ما عرفته جميلة فيما بعد، بعدما التحقت بعملها.

هذا الصباح سيوصلها والدها أيضًا، فهو لم يقتنع أنّها حفظت الطريق، وعند العودة، ستعود في باص الشغل الذي ينزلها على مفرق الطريق النازل باتّجاه الحيّ، بعدها سيصبح مشوارها اليومي إلى الوظيفة روتينيًّا. عليها فقط انتظار الباص عند الساعة السابعة صباحًا، والنزول منه عند الرابعة مساء في المكان نفسه، ما كان يمنح أباها نوعًا من السكينة، فهو يعرف كم يستغرق اجتياز الطريق من المفرق إلى بيتهم، ولن يكون لدى ابنته مجال لأن تزوغ هنا أو هناك.

عند باب المبنى الضخم توقّفا، قال لها:

ـ فوتي من هنا، هذا هو الباب الأساسي، ستشاهدين العاملات مجتمعات بالداخل، قفي معهنّ وانتظري حتى ينادوا عليكنّ، هيّا، سأتركك، وفي نهاية الدوام ستعودين وحدك بباص الشغل.

في الداخل، لفيف من النساء بأعمار متفاوتة، منهنّ القديمات

في العمل، ومنهنّ الحديثات مثل جميلة. كانت العيون تراقب، كما تترقّب، بنات ونساء بأزياء مختلفة، حركة مضطربة، وضجيج ثرثرة مختلطة بأصوات آلات تدلف من الخارج، مع رائحة التبغ والرطوبة. بعض النساء كنّ يتّجهن إلى باب كبير في مقدّمة البهو، يدخلن إلى مكان آخر من دون توقّف، أولاء هنّ العاملات القديمات، أمّا الأخريات فبقين في البهو بانتظار ما سيُطلب منهنّ. معظم الموجودات كانت تبدو عليهنّ علامات الارتباك والحيرة. أمّا جميلة فكانت متنبّهة إلى حدّ القلق، تمسح المكان بنظرها سريعًا، تخطف نظرتها أسرع إذا التقت بعيني إحداهنّ، ويزداد خفقان قلبها. أيّ احتكاك لها مع الآخر حتى لو كان مجرّد نظرة عابرة يجعلها متوجّسة من أمر لا تدري ما هو، لكنّه الخوف يبقى هو المسيطر على كيانها، ما يجعلها لا تستقرّ على حال. كانت في حوصة مستمرّة، ترفع قدميها بالتناوب عن الأرض، كأنّها لا تستطيع الوقوف على قدمين معًا مثل بقيّة البشر، تضمّ أصابع يديها وتبسطها، وتتلفّت في جميع الاتّجاهات. تمدّ يدها بين وقت وآخر إلى أطراف قميصها الذي يغطّي ردفيها وتسحبها إلى الأسفل، كمن يريد أن يستر شيئًا خاصًا عن العيون، ثم تهرع إلى غرّتها، تغلغل أصابعها فيها لتضمن أكبر مجال تنفرد معه الغرّة فتغطّي خدّها ونصف عينها اليمنى.

بعد قليل ظهر رجل يوحي بأنّه تجاوز الأربعين، وقف قبالة الجمع من النساء ونادى عليهنّ: كلّ العاملات الجديدات، الحقن بي. ثم استدار ومشى باتّجاه الباب الذي غابت خلفه الدفعة الأولى من النساء.

بعد اجتياز ممرٍّ واسعٍ، تنفتح عليه أبواب عديدة، نزلت النساء

على سلّم عريض نسبيًّا. كانت رائحة التبغ الرطب تزداد كثافة، والإنارة تخفت، والنساء يهمهمن أثناء نزولهنّ، تصطدم الهمهمة بالجدران ويعود الصدى كطنين كومة من الذباب الحائر.

وصلن القبو أخيرًا، صالة واسعة بسقفٍ عالٍ، تعلو جدارها اليميني واليساري نوافذ قليلة الارتفاع تنفلت من تحت السقف، عليها شبك من الحديد الثخين، تتوزّع الجدران العالية نيونات معظمها مُطفأ، وبعضها يصدر عنه صوت أزيز رتيب يخترق الآذان ليتضاعف في الرأس مع صداه، وبعضها يومض وينطفئ بالتناوب. أمّا الجدران فقد كان لونها حائلاً، قد تكون مدهونة سابقًا باللون الأصفر، أو ربّما بالأبيض الذي اصفرّ مع الزمن، وترسّب غبار أوراق التبغ عليه، واخضرّ قليلاً بسبب الرطوبة. الأرض مفروشة على شكل مربّع ناقص بأكياس الخيش، ملاصقة للجدران، وأمام الأكياس توزّعت أكوام من أوراق التبغ المجفّفة.

وقف الرجل الأربعيني في الوسط، وأخذ يملي عليهنّ التعليمات:

ـ أنتنّ تسمَّين عاملات فارزات، يعني شغلكنّ هو أن تقعدن أثناء الدوام قدّام هذه الكومات من ورق الدخان، تنقّين وتفرزن الأوراق حسب حجمها، ولونها، ورائحتها، يعني إذا كان في ورقة مبقّعة اعزلنها إلى جنب، أو ورقة لها رائحة غير رائحة الدخان، أيضًا ضعنها إلى جنب..

وراح يتلو عليهنّ تعليمات الشغل وهنّ منصتات، ولمّا انتهى من التعليمات، انتقل بعد فاصل قصير إلى البند الثاني، فباشر بنبرة مختلفة:

ـ الدوام من الساعة ثمانية، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، معكنّ نصف ساعة استراحة أثناءها، التي تريد أن تأكل سندويشة، أو تشرب فنجان قهوة أو كأس شاي، أو تقضي حاجة، وبعدها ترجعن إلى الشغل. طلعة من الشغل ما في إلّا بإذن رسمي موقّع من رئيس القسم، عن طريقي أنا، لأنّي أنا المراقب عليكنّ. اسمي سليمان، مراقب الدوام سليمان، وغرفتي فوق، أوّل غرفة قبل الدرج، كلّ يوم ستدخلن مكتبي صباحًا، وفي آخر الدوام من أجل التوقيع. آخر شيء أحبّ أن أقوله هو أنّه سيمرّ عليكنّ كلّ يوم مراقبون على الشغل، بدون موعد، وسيختبرون شغلكنّ، العاملة التي يتكرّر عندها الخطأ ثلاث مرّات بعد التنبيه، ستأتيها عقوبة، هي عقوبة التنبيه بالبداية، هذا في أوّل شهرين، وبعدها إذا تكرّر الخطأ ستتوالى العقوبات. غدًا ستعرفن تسلسل العقوبات، من البداية أنبّهكنّ. أيّ سؤال؟

بعدما أنهى تعليماته، بانتظار الأسئلة، تغيّرت تعابير وجهه قليلاً، وراح يجول ببصره عليهنّ، تبدّلت نظراته، والتمع في عينيه بريق غامض، يومض بين فينة وأخرى، عندما تصطدم نظرته بمؤخّرة إحداهنّ، أو تتسلّق ثدي أخرى، أو تنزل أسفل بطن ترتدي صاحبته سروالاً من الجينز الضيّق.

انتظر سليمان مراقب الدوام أن تُطرح عليه الأسئلة، لكنّ جمع النساء المستوحشات، والحذرات في أوّل يوم لهنّ في الشغل، بقي صامتًا، ربّما كانت لدى البعض منهنّ أسئلة، غير أنّ مهابة الجوّ الجديد التي زادتها سطوة تعليمات المراقب، لَجمتهنّ، وبَدون حائرات أمام تساؤلات عديدة، لكنّها مبلبلة، يزيد الخجل من بلبلتها. قبل أن يستدير منصرفًا، بعدما كان قد تأكّد أن لا أسئلة

لديهنّ، انبثق صوت مغناج قليلاً، فيه نبرة من التلاعب الأنثوي، والتحدّي المبطّن:

ـ إيه ما أدرانا نحن بالورقة المعطوبة؟ شو كلّ عمرنا نشتغل ها الشغل؟

انتبه ناحية الصوت، كانت صبيّة تلبس سروالاً من الجينز الحائل، يضيق عند ردفيها، وسترة قطنيّة فوقها، تنفتح أزرارها عند النحر، فيبرز ملتقى النهدين العارمين بطريقة مغرية. يسترخي شعرها المصبوغ بالأشقر على كتفيها، وكانت تمدّ يدها إلى خصلة انسدلت أمام عينيها، وتردّها للخلف مع حركة سريعة من رأسها. بدت له شديدة الإغراء، في عينيها مكرٌ خاصّ يمنحها سحنة قطّة بريّة. أمام سؤالها ارتبك، إنّما ليس بدافع الخجل، بل الشهوة التي انبثقت في داخله. قال بنبرة أقلّ صرامة من سابقتها:

ـ سنفرز لكنّ عاملتين من القديمات يعلّمنكنّ في الأسبوع الأوّل. أيّ سؤال آخر؟

لم تسأل الأخريات، بقي الوجوم مسيطرًا على الوجوه، كأنّ النساء ينتظرن تعليمات أخرى، بل كأنّهنّ لم يعتدن على السؤال، مثلما اعتدن على التلقّي.

بعدما غادر مراقب الدوام، اضطربت الحركة، وعمّت الفوضى بينما كنّ يأخذن أمكنتهنّ، سيطرت حالة من الهياج على الجوّ، وهنّ يتنافسن على الأمكنة، بالرّغم من حداثتهنّ بالشغل، وأنّهنّ لا يعرفن المواقع الأفضل، بينما بقيت جميلة واقفة. لم تقترب إلّا بعدما خمدت الحركة، وخفتت الأصوات قليلاً، وابتدأت التعليقات على كيفيّة البدء بالشغل، والارتباك الواضح على

بدايتهنّ. بعدها اتّجهت جميلة إلى آخر الصالة، في الزاوية الشاغرة، جلست إلى يمين الأخيرة في الصفّ.

كانت المحاولات الأولى لهنّ غير جدّيّة، مقابل التدفّق الذي بدأ ينبثق من أعماقهنّ، ومحاولة هدم الحواجز بكلّ أشكالها، تحت تأثير حاجة كلّ واحدة إلى الأخريات من أجل أن يردمن حفرة الخوف والاستغراب التي كنّ جميعًا على حافّتها، يعشن المشاعر بتواطؤ خفي، وكلّ واحدة تصطنع التماسك والجرأة. في الحقيقة أكثرهنّ جرأة كانت صاحبة السؤال، التي ارتفع صوتها فجأة:

ـ خلّونا نبدأ ثم نتعلّم فيما بعد، يعني سوف يخنقوننا؟ إذا لم نخطئ كيف نتعلّم؟ ثم هو قال: العقوبة إذا تكرّر التنبيه ثلاث مرّات، والله أنا لست راغبة بأن أبقى طويلاً في الشغل، أنا جئت إلى الشغل غصبًا عنّي، إذا أعجبني الوضع سوف أبقى، وإذا لم يعجبني سأغلط كثيرًا حتى يقلّعوني، وقتها أقدر أن أقول لأبي إنّي جرّبت الشغل لكن لم أعجبهم.

ردّت عليها أخرى بنبرة حزينة:

ـ هنيًّا لك يا عمّي، أنت بإمكانك أن تتركي، لكنّ التي ليس بإمكانها أن تشبع الأكل، من أين لها أن تشبع اللبس، وتشوف حالها مثل الصبايا؟

كانت الأحاديث تخترق أذن جميلة، وتتجمّع في أعماقها. لم تكن قد استقرّ حالها بعد، ولا تخلّصت من ارتباكها، ولا الحذر الذي يحرمها من إمكانيّة الاسترخاء. مدّت يديها صامتةً إلى كومة الأوراق أمامها، مطأطئة رأسها، تنسدل غرّتها كستارة أمام

وجهها، فتحجبه عن الأخريات، ممّا يمنحها شعورًا بالأمان، وأخذت تنبش الأوراق بتمهّلٍ، تفردها وتلمّها، وتعيد المحاولة، ثم شيئًا فشيئًا راحت تفرزها، وترتّبها في مجموعات أمامها، تحت نظر البقيّة، اللواتي كنّ لا يكففن عن الثرثرة، والمراقبة في الوقت نفسه، بعد أن خلقن جوًّا من الانسجام، فبدون كما لو أنّهنّ يعرفن بعضهنّ بعضًا منذ زمن.

ـ ١٠ ـ

بعد قراءته للرسالة، والردّ الأوّل من دلال عليها، صار جمعة يأخذ الكيس معه عندما ينطلق وحماره إلى دورته اليوميّة، عازمًا على أن يقرأ ما يتيسّر له كلّ يوم، بشغف يضاهي شغفه بمتابعة مسلسل باب الحارة. كان ينسجم مع المسلسل حدّ التماهي مع أحداثه، والتعاطف مع أبطاله مثلما لو كان واحدًا منهم، أو مشاركًا بالأحداث كأيّ شخصيّة فيه، لكنّ سؤالاً كان يخزه في الصميم محدثًا ألمًا في وجدانه كلّما رأى تلك البيوت الشاميّة العتيقة التي ما زالت راسخة إلى الآن، والحكايات التي تُحكى عن ساكنيها الذين كانوا يومًا يتحرّكون ملء حياتهم فيها وفي الحارة. ها هو التاريخ يذكّرهم، صحيح أنّه ليس زمنًا قديمًا جدًّا، لكنّهم لم يعودوا موجودين، ومع هذا أوابدهم تخلّد ذكراهم. أمّا أنتم يا جمعة، أنتم الفقراء الذين لا تحلمون بأكثر من كم بلوكة ولوح توتياء تسقف جحوركم كالفئران، من الذي سيذكركم؟ نحن نعيش على حدود الحياة، مع أنّ الحياة لا تسير من دوننا، تخيّلْ يا جمعة لو لم تكن موجودًا أنت وأمثالك تنبشون الزبالة، وتنظّفون

الشوارع، وتحفرون في الأرض، وتعملون كلّ الأعمال التي يأبى الأغنياء القيام بها، ما الذي كان سيحلّ بالبلد؟ نحن الفقراء لا تستقيم الحياة بدوننا، ومع هذا نعيش على فضلاتها، حتى عندما نموت لا نترك أثرًا وراءنا، بل نحن الذين نقدّم كالأضاحي كلّما ثار البحر، أو جنّت العواصف، أو حتى اشتعلت الحروب، بيوتنا للسترة فقط، لا تحمي من برد أو حرّ، تموت معنا، هل هذه هي قسمتنا؟ كيف يمكن أن أفهم هذا؟

عندما بدأ يطّلع على قصّة تلك الفتاة المجهولة التي شغلته، وبدأ يرسم مشاهد حياتها في خياله، أخذ يتمهّل كلّ يوم أمام البيت، غالبًا على الرصيف المقابل، يرصده ويحاول سبر أغواره العصيّة، فالنوافذ غالبًا مغلقة، ولا توجد في الواجهة الأماميّة حبال غسيل ليعرف إن كان هناك أحد أم لا. والنهار لا يتطلّب إنارة المصابيح، كيف يمكن أن يتكهّن بوجود أحياء يسكنون فيه؟ لكنّه لأمرٍ ما، لم يكن مقتنعًا أنّ البيت خالٍ، فقرّر أن يأتي إلى الشارع مساءً. على الأقلّ سيكون ممكنًا أن يشفّ منه نور مصباح.

في نهاية مشواره، وصل إلى البحر، حيث تعوّد أن يخلو بنفسه هناك، ربط الحمار ووضع أمامه كيس عليقه، ثم أخرج الأوراق من خرجه، واتّجه إلى صخرته بعد أن خاض في المياه، وبيدٍ متلهّفة أخذ الورقة وراح يقرأ:

أصبحت الآن متأكّدة من أنّك لن تعود، وأنّك نسيتني. ألم نشرف على نهاية العام الرابع على غيابك؟ هذا يجعلني راضية عن علاقتي بك، وأنّ ما بدر عنّي من سلوك في علاقتنا كان سليمًا. أنا

لم أسلّمك نفسي، وكان منك أن أهملتني، ونسيت كلّ الكلام الجميل الذي كنت تردّده على مسمعي، فكيف لو أنّني ضعفت أمامك وتورّطت بعلاقة كانت ستقضي عليّ لو فعلت؟ أنا لست نادمة اليوم، ولن أندم غدًا، حتى علاقتي بك أتمنّى لو أنّها لم تحصل. كنت مغشوشة بك في تلك الفترة، لكنّني اليوم أمام مهمّة أسمى، نذرت لها حياتي. إنّها أمّي المريضة العاجزة. مهما قدّمت لها سأكون مقصّرة. أنا اليوم أشعر بالخجل أمامها لأنّني منحت مشاعري في يوم من الأيّام إلى شابّ، وكنت لاهية عنها، صحيح لم تكن مريضة حينها، لكنّني أهملتها وهي كانت بحاجة إلى اهتمامي بها. سوف أعوّضها عن تقصيري، وأنا كلّ يومٍ قبل أن أنام أطلب الغفران.

ثنى جمعة الورقة، أعادها إلى الكيس، وأخذ يقرأ أوراقًا أخرى بعدها، حتى تبيّن له أنّ الرسائل أخذت تتحوّل شيئًا فشيئًا إلى مذكّرات، وأنّ تلك الفتاة المخذولة صارت تتّسع دائرة عذاباتها. توقّف عند إحدى الأوراق، كانت أوّل ورقة يترأّسها عنوان:

الموت!

رحلت أمّي، صرت وحيدة. هي غابت، صارت ذكرى، تركتني لوحدتي وخوائي، من سيملأ أوقاتي بعدها؟ كيف سيكون الغد الذي ينتظرني، ولم يعد هناك أدوية تُعطى بمواعيدها، ولا إفطار يأتي إلى السرير، ولا حمّام صباحي لجسدٍ كان، برغم عجزه، يمدّني بالدفء عندما ألامسه؟ جسد مترهّل يذوي، ومع

هذا كان ينتشي إذ تلامسه يدي، كجسد طفلٍ تدغدغه يدُ أمّه. كنت أقرأ الرضا في عينيها وأنا أفرك جسدها بالصابون، تبتسم كلّما غمرتها برغوته، تشكرني بعينيها بعدما عجز لسانها. لمن سأقصّ النوادر بعدها؟ لمن سأقرأ الصحف، والروايات المترعة بالعواطف والمشاعر بعدها؟ كيف سأبدّد أيّامي بعد أن خلت من كلّ هذه التفاصيل؟ لماذا الموت؟ لماذا الحياة إذا كنّا سنموت؟ سامحني يا ربّ، أنا لا أكفر بحكمتك، لكنّ الموت قهرني. أنا لا أفهمه، فهل فهمه أحدٌ قبلي؟ أنا لا أعرف إن كانت هي التي ماتت أم أنا. هل غيابها الأبدي هو الموت؟ أم غيابي عن الحياة هو الموت؟ أشعر أنّ الحياة تغادرني. لم يعد لديّ ما أحيا من أجله. إلى متى أستطيع أن أحتمل؟ اشتقت إليك يا أمّي، ابتعدتِ كثيرًا، صار الوادي بيننا عميقًا، عميقًا يا أمّي، لم يعد بإمكانك سماعي، لم يبقَ لي غير هذه الجدران تحدّد عالمي، وتردّد صدى صوتي. وحيدة أنا يا أمّي . . وحيدة.

أعاد جمعة قراءة الورقة مرّة ثانية، وقد بلغ به التأثّر حدًّا كبيرًا. تعاطف مع تلك الفتاة الوحيدة حدّ الموت، وأخذ يتساءل في سرّه عن شكل حياتها. ترى كيف تعيش الآن؟ هل ما زالت كما هي أم استطاعت أن تتجاوز محنتها، وتبدأ الحياة من جديد؟ هل صار لديها ما يشغلها ويجعلها تتجاوز الموت، أم ما زالت تكابد وطأة عذاباتها؟ أسئلة كثيرة داهمته، فثنى الورقة، وأودعها الكيس، ثم نهض وراح إلى حماره الذي كان واقفًا بوجومه المعتاد، ينتظر أن ينتهي صاحبه من طقسه اليومي.

في طريق العودة، عندما لم ينعطف جمعة يمينًا إلى الطريق النازل باتّجاه البيت، بل اجتاز المفرق وتابع، حرن أبو طافش في منتصف الطريق، صارت السيّارات تطلق أبواقها، فقد اكتظّت الشوارع بها، بل فاضت عن قدرتها على استيعابها، ولم يبقَ حيّ واحد في المدينة لا يعاني من هذه الأزمة مهما بلغ من الفقر. لذلك كان توقّف السير لدقائق قليلة يخلق أزمة مرور مروّعة. ابتدأت الأبواق بالزعيق عندما حرن الحمار، أخذ جمعة يشدّه بقوّة ويحاول سحبه، لكنّ الحمار حرن أكثر، كأنّما استفزّته أصوات الأبواق المتعالية. استشاط جمعة غضبًا من حماره، وهو الذي لم يكن يدخل في نوبات الغضب إلّا فيما ندر. لكنّ الأبواق، والصراخ من نوافذ السيّارات، والشتائم التي كان السائقون ينهالون عليه بها، حتى لو لم تصل أذنيه كلّها، إنّما كانت تكفي حركات الاعتراض، والإشارة بالأيدي، والتهديد، حتى يفهم الموقف الحرج والعصيب الذي هو فيه. كلّ هذا جعله يسحب عصاه وراح ينهال بها على مؤخّرة الحمار ويشدّ الحبل ويحاول سحبه، وقوائم الحمار متصلّبة تنزلق رويدًا إلى الأمام تحت تأثير قوّة الجرّ التي يقوم بها جمعة، إلى أن نجح بسحب الحمار مسافة تتجاوز ثلثي عرض الشارع، حيث بدأت السيّارات بالمرور، واختناق السير يتراجع. تحت تأثير نوبة الغضب الذي انتابه، والشتائم التي تلقّاها، تابع جمعة ضرب الحمار بضراوة، وهو يسبّه: العمى بقلبك! ما الذي يحدث معك؟ أنت لم تكن هكذا سابقًا، ما الذي جعلك تنقلب بهذه الطريقة؟ لماذا تحرن؟ تراود نفسك حمارة ما؟ ما عاد لحّقلك؟ من أين آتيك بحمارة آه؟ والله ما تعيدها يا أبو

طافش بعد اليوم وتحطّني في موقف كهذا، لأجعل الله ما خلقك. احرُن بعد الآن وانتظر حتى ترى ما سيحدث لك.

كان الحمار ينتظر العودة المرجوّة إلى الحيّ، ليدخل زريبته، ويسترخي فيها، يحلم كما يشاء، أليس هذا من حقّه بعد عناء اليوم؟ في الماضي كان يدور تلك الدورة البلهاء، التي لم يكن ملتفتًا إليها، بل بدا كما لو أنّها هي الوجه الحقيقي لحياته، وكان راضيًا لا يتذمّر من أيّ شيء، كما لم يكن يحلم بشيء. يستيقظ عندما يفتح صاحبه باب الزريبة، فتبدأ مع انفتاح الباب عاداته الغريزيّة بالتتالي، تبدأ معدته بالصراخ، ويبدأ بطنه بالمغص كي يفرغه، ويتطاول عضوه بمجرّد نهوضه كي يتبوّل، ثم يشحذ قواه من أجل الشروع بعمل اليوم. يحني لجمعة رأسه بعد أن يرفع كيس التبن من أمام بوزه، ينساق خلف صاحبه إلى حيث يشاء من دون أن تعتريه أيّ ومضة استغراب. كلّ الأمكنة كانت متشابهة، وكلّ الأصوات تصنّف بالنسبة له بحسب المجموعات التي يتنبّه إليها. لم يكن يميّز بين طعام وآخر، حتى الروائح لم تكن تعنيه كثيرًا. كان قد روّض شمّه على روائح المزابل بكلّ تنوّعها وكثافتها. سلّم مهمّة إطعامه إلى صاحبه الذي يتدبّره على ذوقه، ويقدّمه له ليبدأ بالالتهام حتى تمتلئ معدته، وعندما يعود مساءً كان يشعر بغريزته أيضًا بأنّ النوم قادم، وأنّه سوف يطوي قوائمه ويجثو فوق القشّ، يغمض عينيه وينام.

منذ مدّة صحا صباحًا، مداهمًا بشعور غريب، أفقده بعضًا من سكينته. صار يشعر بالقلق، لأنّ حياة أخرى تلامحت له. اضطربت

مداركه، كما اضطرب وعيه لذاته، حالة من الاستغراب أو الدهشة، لا يعرف بالضبط ما هي، إنّما شعر معها أنّ هذه الدفقات الشعوريّة التي تنتابه، تجعل احتماله لحياته أمرًا مزعجًا، فبدأ اضطراب ما يظهر عليه من وقتٍ إلى آخر. لا هو كان يعرف ما الذي يحصل معه، ولا جمعة كان راضيًا عن هذا التبدّل المحيّر لدى حماره.

كان وعيه بحالته الجديدة قد بدأ يتفتّح عندما التقى ببغل برهوم المبيّض، بينما كان جمعة يتابع المسلسل من على الرصيف المواجه لمقهى الموعد في مشروع الزراعة. فجأة انتبه إلى أنّ إحساسه بحالته الطارئة التي لا يفهمها أخذ منحى جديدًا عندما تناجى مع ابن أخيه، البغل المقدام الذي عرف كيف يزعج صاحبه بخبثٍ ومكرٍ، جعلت ذاك الرجل يخسر جولة في معركة غير معلنة من دون أن ينتبه. وبالمحصّلة من قام بإهانته بتلك الطريقة المضحكة ليس إلّا بهيمة، أقصى ما يمكن أن يعاقبها به هو الجلد، مع موت الموقف في اللحظة، فليس بينهما صراع خاصّ حتى يحسب له حسابًا في المستقبل، والبغل تحت السيطرة فيما لو تكرّر الموقف، طالما هو يحمل الكرباج، يجلده به ساعة يشاء.

تذكّر أبو طافش ذلك اللقاء، بعد أن استسلم أخيرًا لقيادة جمعة له في مشوار استثنائي لم يكن واردًا قبل ذلك في برنامجه اليومي المكرّر. انتابت الحمار ومضة من الإحساس بالرضا والاعتزاز، وبالقوّة أيضًا، عندما ملأه شعور بالانتماء، وبأنّ قبيلته ما زالت على تواصلٍ بعضها مع بعض، وأنّه ليس وحيدًا في حياة

صارت تبدو له غريبة وغير محتملة. هان عليه مشواره المسائي الزائد هذا، وراح يحلم مرّة أخرى: رُحْ يا صاحبي رُحْ، ها أنا معك حتى أرى آخرتها إلى أين تنوي أن تصل بأفكارك العجيبة، وأفعالك الأعجب. مشوار زيادة لن يخرّب الدنيا، من يربح في الآخر هو من يملك نَفَسًا طويلاً ويتحمّل.

وصل جمعة قريبًا من البيت الغامض الذي شغله فكُّ أسراره. شعر باضطراب وحماسٍ مفاجئين. توقّف مقابل البيت يرصده من الرصيف المقابل. كانت هناك إنارة خافتة تنبعث من خلال شقوق الأباجورات. فرح عندما وجد شيئًا يشي بالحياة، وبأنّ نظريّته عن الهجران صحّت، فحجارة هذا البيت ما زالت تخزّن طاقة الحياة في متنها، ولن تستطيع جراثيم الموت أن تقترب منها. لم يفهم بالضبط عندما انتبه إلى سعادته الطارئة ماذا يعنيه أن تكون هناك حياة في هذا البيت! شيء ما انبثق في داخله، له نشوة تذكُّرِ الحبيب. داهمته صور الماضي، جميلة الصغيرة، تلك الفتاة السمراء، بشعرها الأسود الكثيف المنفلش في فضاء جاذبيّتها، العصيّ على الترويض، الشعر المتباهي بنفوره، وتمرّده على الرتابة، المتماوج كدروب الروابي، المخيّم على وجهها المكتنز، يلقي خيمته فوق عينيها المتّقدتين بنار حارقة تضطرم في عمقهما. جميلة الصامتة، البهيّة في صمتها من دون أن يعرف جمعة سرّه، هي هكذا، مستبدّة بصمتها، آسرة بغموضها، شهيّة بنفورها، عندما كانوا يلعبون، صغار الحيّ جميعًا، كانت الوحيدة التي لا تتكلّم، والتي اعتادها كلّ الصغار كما هي، تقارب الخرسان في طبعها، وإذ تتكلّم كان الكلّ ينصتون، ليس لأنّها في موقع يؤهّلها لأن

تكون لها القيادة، والأمر القاطع، بل لأنّها مهيبة بصمتها، فكيف لا يكون كلامها أكثر مهابة؟ حاول جمعة أن يتذكّر منذ متى ابتدأت جميلة تغزو أحلامه، وحضورها الآسر يطغى على عالمه؟ منذ متى استباحت لياليه، وجعلت النوم يطفر من عينيه، ليسكن في جحيم الأرق العذب؟ كيف تسلّل إليه شعور لم يكن يكابده من قبل، جعله يلتمس عذرًا لكلّ الخيالات والأوهام والهواجس التي كانت تراوده؟ بل اللذّة العصيّة التي كان يقطفها باكرًا بطرق باتت كأنّها لم تكن، كأنّما كان يمارسها في أحلامه، بل هي كانت أحلامه بالتحديد، أحلامه التي تغرقه في متعة مختبئة في عالم النوم القريب من الموت، بل هو الموت المتجدّد دائمًا، يمنحه فرح أن ينتظره مرّة أخرى وأخرى، وهو يستوضح الحقيقة في الحياة. هل ما يعيشه هو اليقين؟ أم أنّ كلّ حياته خدعة لا يفهمها، ولا يعترف بأنّها خدعة ما دامت تمنحه سعادة مبهمة، لا ينوي أن يفكّ أسرارها؟ يكفيه أنّها كانت الحلم الذي أسّس لمفترق حياته. بطيفها فقط تحوّل في غفلة منه إلى آخر، آخر نحّى الطفل في أعماقه، وتمادى في كيانه كلّه، مستبيحًا سكينته بعذوبة مربكة، جعلت أحلامه تلعب به كما يحلو لها، ويفيق في الليالي على بلله الذي أضاف رائحة أخرى إلى روائح جميلة التي تداهمه في سرّه. لقد تأخّر كثيرًا حتى فهم ما كان يعتريه، وعندما فهمه صارت جميلة حلمًا من الماضي يختبئ خلف أحلام الغد.

عندما تبيّن أنّ في هذا البيت حياة تتحقّق بطريقة أو بأخرى، انتابته ومضة من الفرح. يكفي أنّه تلصّص من دون أن يقصد على قصّة حبٍّ لم يخُض في تفاصيلها بعد، لكنّ ما قرأه كان كافيًا ليفرح

لأجل الحبّ ليس أكثر. هناك أشخاص يحبّون، وهو ليس وحيدًا. هناك من يعيشون مثله تحت وطأة تلك المشاعر الغريبة الممتعة، ويستمتعون بذلك الإحساس الملتبس الذي تختلط فيه السعادة بشجنٍ عذب، حتى لو أنّ قصصهم انتهت بالخيبة، من يدري؟ ربّما عاشت هذه البنت قصّة حبّ أخرى ملأت عليها حياتها. كانت تتشكّل في أعماقه نيّة على فعل شيء غامض، لا يدري ما هو، هو إحساس فقط جعله يدور على عقبيه، يجرّ الحمار خلفه في طريق العودة وهو مرتاح تمامًا.

ـ ١١ ـ

دخلت العاملات متزاحمات صباحًا من الباب الرئيسي، منهنّ من كانت تسرع وتدفع الأخريات للوصول إلى دفتر التوقيع، ومنهنّ من كانت تمضي بشكل عادي، لا يعنيها أن تصل قبل غيرها، المهمّ أن يصل إليها الدور من أجل التوقيع. جميلة كانت تمشي بتمهّل غير عابئة بما حولها، هكذا كانت تبدو، تتعرّض للّطم أحيانًا، عن قصد أو عن غير قصد، لكنّ تلك اللطمات الخفيفة لم تكن تجعلها أكثر انتباهًا، أو بالأحرى اكتراثًا بما حولها. مرّ أكثر من عامين على دخولها العمل، ولم تتغيّر. لا هي انسجمت مع بقيّة العاملات، ولا هنّ حاولن سبر أغوارها، بل كان مزاجها الخاصّ محطّ الغمز بين بعضهنّ، أولئك اللواتي لا يستطعن البقاء بلا مشاغبات في العمل لأسباب عديدة.

دخلن الصالة الكبيرة التي تكوّمت على أرضها أكوام أوراق التبغ التي تنتظر الأيادي التي ستفرزها إلى مجموعات. كلّ مجموعة لها سردابها الخاصّ الذي تنزلق فيه إلى مصيرها. توزّعن الأمكنة، وكانت الصالة تعبق برائحة أوراق التبغ الرطبة، والغبار

العالق عليها، رائحة تبدو كأنّها معتّقة، أو كأنّ الجدران قد طُليت بها، والرطوبة الحارّة تزيدها حضورًا، حتى بات هواء الغرفة يتلاشى تحت سطوتها. وبدأت الأيادي بالتفحّص والاستطلاع، ليس بدافع اللهفة على العمل، بل لأنّ تلك الحركات الاستهلاليّة لم تكن إلّا وصلة انتقاليّة من أجل الغوص في الواقع الحالي، ومحاولة الانسجام بالعمل الموكل إليهنّ.

بدأت الأحاديث بالتشكّل بعفويّة تامّة، كما كلّ يوم: جملة من هنا، وأخرى من هناك، تعليق من إحداهنّ، واستطراد من أخرى، ثم يأخذ الحديث عنوانًا محدّدًا، كأنّما هناك تواطؤ بينهنّ على الوصول إلى عتبة مرجوّة. تنهّدت إحدى العاملات بعمق من دون أن تنبس بكلمة، فانبثق صوت من الجهة المقابلة:

ـ سلامتك! ما هذه التنهيدة التي ستحرق كلّ شيء قدّامنا؟

ـ ما معنى سلامتي؟ من منكنّ ما عندها شيء يجعلها تحرق وتحترق أكثر منّي؟

ـ إيه طوّلي بالك! لماذا تقلبين الجوّ إلى غمّ؟

ـ كلّ الحاضرات يحقّ لهنّ أن يتكلّمن إلّا أنتِ آنسة منال، والله من يرك في هذه الأيّام يقل هنيئًا لأصحابها. كلّ كم يوم تأتينا بثياب غير شكل، وشعر غير شكل، كأنّ هذه الكمّ ليرة التي يعطوننا إيّاها تفرّخ. يا ترى فقط دجاجتك أنت بيّاضة، ونحن لا؟

ـ ما هو قصدك ستّ سعديّة؟ غرتِ؟ حتى ولو جئت كلّ يوم بثياب جديدة ما علاقتك أنت؟ هل تدفعين من جيبك؟

ـ مبارك عليك، لا أحسدك. لكن لا يجوز أيضًا أن تتركي الشغل علينا وتطلعي كلّ يوم بإذن شكل، لماذا لا يأخذ أحد أذونات مثلك؟ نحن تطلع أرواحنا حتى يرضى الأستاذ سليمان أن يعطينا إذنًا. أم الدنيا هكذا خيار وفقّوس؟

ـ أيوه ستّي الدنيا خيار وفقّوس. عندما تستطيعين أن تكوني خيارًا لا تقصّري.

ـ لو أرضى ما كان لك دور وحياة عينك.

هبّت منال مشتعلة بالغضب، وانقضّت على سعديّة وهي تمسكها من شعرها وتصرخ، وسط تجمّع بعض العاملات محاولات فكّ الاشتباك بينهما، ومنال ترغي وتزبد:

ـ وليه! من تظنّين نفسك آه؟ روحي تطلّعي إلى حالك بالمراية، روحي شوفي شعرك المنبوش الذي لا يدخل فيه المشط بالشهر مرّة، كيف مليان بالشيب، ولاّ وجهك الذي لا يعرف غير التكشيرة. أنت يحقّ لك أن تقارني نفسك بي وليه؟ لو صار لك رجّال يتطلّع فيك ما عنّستِ، كم صار عمرك قولي؟ خجلانة أنّك قطعتِ الثلاثين؟ اخرسي أحسن لك.

أجفلت جميلة عندما سمعت عبارة عنّستِ، التي طالما ردّدها أبوها على مسمعها، عندما كانت تخبره أمّها عن طباع ابنتها، وهي تشتكي من عزلتها، ورفضها الظهور أمام النساء اللواتي كنّ يسألن عنها في كلّ زيارة، إلى أن امتنعن عن السؤال. كانت دنّورة تلتمس لها الأعذار في سرّها. وكانت تشعر أنّ جميلة تغيّرت كثيرًا بسبب قسوة والدها، وعقوبته لها بمنعها عن الاختلاط بالناس والخروج

خارج البيت منذ سنوات. لكنّها لم تكن لتستطيع أن تغيّر شيئًا في الموقف، عدا استسلامها أمام الحياة بكلّ جوانبها. لم يكن أبو العزّ يوفّر مناسبة إلّا ويقوم بتقريع جميلة، وتذكيرها بأنّها ما زالت في مرحلة العقوبة التي لم يكن يضع أجلاً محدّدًا لها، بل كان يُفهمها على الدوام بأنّ هذه هي الحياة التي تستحقّها، وهكذا يجب أن تعيش ابنة مثلها تفكّر بطيشٍ، لا تعرف الاتّزان. وعندما كانت أمّها تشكو همّها وقلقها على جميلة التي لا تقابل أحدًا، كان أبوها يعنّفها، بل يصل حدّ ضربها وسؤالها باستنكار: بودّك تعنّسي؟ إلى متى ستبقين عنيدة؟ والله لأعرف كيف أكسر رأسك. وجميلة تزداد صمتًا، وجمودًا، ما كان يشعل ثورته من جديد. لكن بعد أن دخلت العمل، وصار دخلها دعامة أساسيّة في معيشة البيت، بعد أن باع والدها البغل منذ مدّة طويلة، والذي كان قد كبر ولم تعد قدرته على الاحتمال كالسابق، فباعه بثمنٍ بخسٍ، لم يستطع حمّود الاستفادة منه بأيّ شيء، بل صرفه على متعه الخاصّة. بعد ذلك تباعدت الحالات التي كان يعيّرها بها وبأنّ مصيرها العنوسة إذا استمرّت على هذه الحال من العزلة. حتى حمّود بدأ يتغيّر، فبعدما كانت تنتابه تلك الهجمات الشرسة من الشبق، انقلب فجأة إلى شخصٍ آخر، لم يبقَ في الأفق ما يدعو إلى التفاؤل بالنسبة له.

كان يذهب مساءً إلى قهوة أبو تحسين، يجالس الرجال هناك، ويشكو همومه إليهم، كما البقيّة. بعد أن تغيّرت ملامح الحياة، كان يشعر أنّ عدوًّا يتربّص به، عدوّ ماكر لا يعرف كيف يجابهه، فيقول:

ـ الشغل يا جماعة كلّ مانُه لَوَرا، ولاّ أنا غلطان؟

وكان يجيبه بيّاع الكعك الذي يدور بصينيّته كلّ يومٍ على قدميه، يرصد انصراف تلاميذ المدارس، ليعود إلى البيت يحمل لأسرته قوتها الذي يجب أن يكون على حجم غلّته في اليوم:

ـ والله هذه المحلّات الجديدة التي تفتح، ويبيعون فيها سندويشات الفلافل والشاورما، والأكلات الغريبة التي لا أعرف ما هو اسمها، ومحلّات العصير، صارت يا أبو العزّ لا تترك لأحد دورًا. تصوّر، لم يعد هناك من يقول لي: بكم الكعكة؟ لم يعد يعجبهم الكعك الذي تربّينا عليه كلّنا.

ـ ماذا أحكي أنا يا أبو أمين، ما في أحد قهرني مثل هذه السيّارات الصغيرة التي يسمّونها سوزوكي، قشّت الأخضر واليابس، كلّ سيّارة منها بقوّة عشرة بغال، تحمّل وتشيل، وتكرج كرجًا، أروح أنتظر وأنتظر في البازار، لا يطلبني أحد، صرت أرمي حالي على الناس، أنا حمّود الذي بعمري ما رميت حالي على أحد، لا ألاقي من يرضى بي، لا أنا ولا البغل؟ صرنا ننتظر من يريد متر نحاتة، أو بحص أو رمل، وما أكثرنا نحن الذين عندنا طنابر هنا، والله صرنا نتعارك على الزبون يا أبو أمين. يلعن ها العيشة من أساسها.

هكذا كانت تمضي سهراتهم، ليعود بعدها حمّود إلى البيت مترعًا بمشاعر الخيبة، واليأس، يطفئها بإرواء شبقه، إلى أن استسلم أخيرًا بعد أن صرف ثمن البغل، ومرّت السنون في غفلة منه، فإذا بالأولاد يكبرون، وطلباتهم تزداد، ولم يعد باليد حيلة.

انتفضت جميلة لسماع كلمة عنوسة، وراح شيء في أعماقها

يحرق. ازداد خفقان قلبها. تسارعت أنفاسها، شعرت بأنّها تختنق في هذه الصالة، لم تعد قادرة على سماع المزيد، ضجيج في رأسها يشغلها عن أصوات البقيّة، وهنّ أمامها يتحرّكن كالدمى. لم تنتبه إلى تلك المُصابة بالربو، وهجمة السعال التي انتابتها. كادت المرأة تختنق، اربدّ وجهها وانتفخت أوداجها وفاضت الدموع من عينيها اللتين تحوّل بياضهما إلى الأحمر، صدرها يعلو ويهبط مع صفير حادّ، يداها ترتجفان وهي تفتّش بهلع في كيسها عن بخّاخ الربو، إلى أن لاقته، وراحت تبخّ في فمها وتتنشّق الرذاذ. سكت الجمع، إلى أن هدأ سعال المرأة، وارتخت ساكنة أمام كومة الأوراق، وهي تتمتم: والله ها الشغل سيقتلني، ناقصة عمر.

صار الصخب يزداد ضراوة على صدغي جميلة، صخب شرس ينبثق من داخل رأسها، وأنفاسها تتلاحق. شعرت بأنّ الصالة باتّساعها وارتفاع سقفها تتقلّص حتى توشك أن تصير كالقبر. نهضت هلعة، أمام نظرات البقيّة المذهولات بما اعتراها، انطلقت خارج الباب صاعدة السلّم، حتى وصلت أمام باب غرفة سليمان مراقب الدوام، وقفت تلهث، طرقت الباب بسرعة، وفتحته قبل أن يأتيها الإذن بالدخول. عندما وقفت أمام سليمان كانت شاحبة عرقانة، أنفاسها تتلاحق، طلبت منه إذنًا لمدّة ساعتين:

ـ أريد إذن ساعتين أستاذ.

تأمّلها بسرعة، مسح جسدها كلّه بنظرة خاطفة، ابتسم لها وهي على هذه الحال التي التقطها، ثم قال:

ـ أنتِ أوّل مرّة تطلبين إذنًا، لذلك سأوافق عليه، لكن بعد

ساعتين تكونين هنا، وإلّا يصبح الإذن إجازة بلا راتب.

انسحبت مسرعة، هي تريد أن تخرج من القبر قبل أن ينغلق عليها، لم تفكّر لحظتها ماذا يمكن أن تعني الإجازة بلا راتب، وما يمكن أن تُترجم عند والدها الذي ينتظر راتبها أوّل كلّ شهر. تريد أن تهرب، فقط أن تهرب.

خرجت من الباب الرئيسي، أغاظها أكثر تفتيشها على الباب، هي اعتادت هذا الإجراء مع البقيّة، حيث يقفن بالطابور عند الانصراف، ليجري تفتيشهنّ، حرصًا على المال العامّ، وعدم تهريب التبغ تحت فساتينهنّ الواسعة، أو في جيوب ستراتهنّ، أو الأكياس التي يحملنها أحيانًا، يضعن فيها بعض الأغراض الخاصّة. اعترضت أمام محاولة تفتيشها، شعرت وهي على تلك الحالة بانتهاك إنسانيّتها، التي كانت تتخدّر في الأحوال العاديّة أمام هذا الإجراء ما دامت واحدة من الجميع. لكنّ البوّاب أصرّ وهدّدها إن لم تذعن، أذعنت وما زالت متلهّفة على الخروج، مدّ يده الخبيرة بالتفتيش إلى مؤخّرتها وهو يتطلّع كاللصّ في كلّ الاتّجاهات، أجفلت جميلة، لكنّه قرصها من مؤخّرتها قبل أن تفهم ما الذي يحدث. نترت نفسها من بين يديه، وانطلقت مهرولة لا تلوي على شيء سوى الابتعاد، الابتعاد حدّ الغياب. وراحت تمشي وتمشي هائمة في الشوارع، إلى أن أدركت أنّها في سوق التجّار. مرّت كالسهم أمام مديريّة المسارح، البناء الجميل ببوّابته الواسعة. كان الرصيف أكثر عرضًا من الرصيف المقابل، فذاك لا يكاد يتّسع إلى أكثر من شخص يمشي فوقه، عدا المحلّات التجاريّة

العديدة التي تفتح عليه، حيث تتجمّع النساء على الواجهات مانعات أحدًا من المرور على الرصيف الضيّق. معظم تلك المحلّات كانت محلّات أقمشة حتى وقت قريب، حيث أغرقت الأسواق الألبسة الجاهزة، وصارت خياطة الثياب مهنة تكاد تنقرض، أو يعيش أصحابها الذين فاتتهم إمكانيّة تعلّم حرفة أخرى، من الأجور الزهيدة، على إصلاحات عيوب الثياب فقط.

اجتازت جميلة سوق التجّار متقدّمة باتّجاه شارع هنانو، هناك تمهّلت. لفتتها الواجهات الزجاجيّة العارمة بالموديلات التي تلبس أزياء مختلفة، توقّفت أمام إحدى الواجهات، كانت كبيرة تنفصل إلى جزأين، على اليمين واجهة تعرض الأزياء النسائيّة، وأخرى مقابلها تعرض الأزياء الرجاليّة. وقفت مشدوهة أمام تلك التماثيل التي هي بحجم البشر، بوجوهٍ شمعيّة جامدة، ونظرات تائهة، وأوضاع غريبة، وراحت جميلة تنظر إلى تلك التماثيل، وتُعيد تشكيلها في مخيّلتها، ترنو إلى تماثيل الذكور، تمعن النظر في تلك الأجزاء المنتفخة قليلاً بين الفخذين، تتخيّل أنّها تمسك إزميلاً وتبدأ بنحتها وحتّها، بل بتكسيرها، لماذا يجب أن تُتعب نفسها بالحتّ؟ هي فقط تريد أن تقطعها، تمسح أثرها، تبتسم في سرّها وهي تتخيّل أنّها استطاعت أن تستأصل ذلك الجزء المهمّ، الذي لم يتنازلوا عنه حتى في التماثيل التي توضع من أجل عرض الثياب، تبتسم كمن أنجز عملاً مرضيًا، سعيدة بأنّها تخصي الرجال جميعًا.

وعندما انتقلت بنظرها إلى الواجهة الأخرى، وأقبلت تتأمّل موديلات الفتيات بالألبسة العصريّة الغريبة، تخيّلت أنّ كلّ واحدة

منها تحمل سلاحًا على كتفها يزيدها فتنة وبهاءً. وتمادى الخيال بجميلة أكثر، فبدأت تلك الوجوه الشمعيّة بشفاهها المفترّة عن ابتسامات بلهاء، تكتسي أقنعة تطمس ملامحها، ويتحوّل جمع الفتيات إلى جنودٍ تخترق الزجاج وتمشي كالعساكر في نظامهم المنضمّ. أجفلتها الصورة، وخافت من افتضاح أمرها. أخذت تتلفّت حولها، تقرأ الوجوه خوفًا من أن يكون أحدهم رآها متلبّسة بموقف خطير. فرقة الجنود تعني أنّ هناك هدفًا تسير إليه، فأيّ الأهداف عليها أن ترسلها إليه؟

ابتعدت عن الواجهة، وأسلمت نفسها للطريق، كانت تمشي على نبض قلبها، ترتعش من وجودها بين الناس، تتمنّى لو تستطيع التكوّر على بعضها وتشهر أشواكها كقنفذ تورّط بحاله أمام الخطر، لا تتحمّل التقاء نظرها بنظر أيّ وجه آدمي، لقاء كهذا يجعل قلبها يرفرف في صدرها خوفًا وتوجّسًا.

لا تعرف أين تتّجه، لم تكن ترغب بالعودة إلى العمل، تذكّرت ذلك البوّاب الذي تطاول على مؤخّرتها، شعرت بالنقمة، وانتابتها نوبة غضب حانق، تمنّت لو أنّه الآن بين يديها، لكانت صفعته على خدّه، ولكانت وضعت يديها على رقبته وأمعنت في خنقه، بل لكانت أمسكته من بين فخذيه وهصرت خصيتيه بين يديها حدّ استغاثته، وجعلته يعرف من هي، وكيف يتطاول بوقاحة عليها، لكنّها لا تستطيع الآن أن تفعل شيئًا. ما الدليل الذي تملكه فيما لو سُئلت عن السبب الذي يدفعها إلى الاعتداء عليه؟ هي لا تملك الدليل، لم يلحظه أحد، كانت وحيدة أمامه على الباب، ثم لو

عرف والدها أنّها خرجت أثناء الدوام، فسوف يعاقبها بقسوة. هي تعرف البوّاب، ولسوف تنتظر، لا بدّ أن تأتي الفرصة المناسبة وتنتقم من ابن الحرام هذا، كما كانت تردّد في سرّها. وأرعبتها فكرة أن يعرف والدها بخروجها من الشغل وتسكّعها في الشوارع. لن يتساهل بأمر كهذا، هو أبوها، وهي تعرفه كما تعرف قسوته، وهجمت عليها ذكريات السنين الماضية التي أمضتها تنفّذ عقابًا لم يتنازل عنه ولم يهمله حتى دخلت العمل. كان دائم التذمّر والغضب كلّما رآها، يعيّرها بشكلها، بأكلها، بعنوستها. ما زالت كلماته تطنّ في أذنيها: العمى بقلبك، ما عندك شغل غير الأكل، مثلك كمثل البقرة، علف ونوم، إلى متى سأحتملك؟ سوف تبقين همًّا على صدري طول العمر؟ بل لم يكن يكتفي بهذا القدر. كانت نوبات غضبه تدفعه أحيانًا إلى ركلها بقدمه، وجعلها تسقط أرضًا صامتة كصمت القبور، جامدة كحجر الصوّان، لم يكن دمعها يخرج من عينيها، كانت تبكي في أعماقها، ينهمر الدمع هناك غزيرًا ليجرف معه شيئًا لم تدركه، لكنّها تفتقده اليوم بمرارة.

هكذا استسلمت ليقينها بأن لا بدّ من العودة، وأنّ بقاءها خارج العمل، أو تأخّرها عن العودة، لن يجلبا لها سوى العواقب الوخيمة، فعادت أدراجها في الشوارع ذاتها، تمشي متباطئة الخطى، كأنّها تسير إلى قفص سوف ينغلق عليها بابه ويُدار بقفله مفتاح ضخم، يودعه أحدهم في خزانة سرّيّة. كانت تشعر أنّ العالم حولها غريبٌ موحشٌ.

ـ ١٢ ـ

نقل جمعة أكياس الإسمنت على ظهر حماره على دفعات. كان يضع في كلّ جهة من الخرج كيسًا، وينقل حاجته، صار يعود من الشغل أبكر من عادته معظم الأيّام، وهذا ما كان سيُفرح الحمار لو أنّه يعود به إلى الزريبة، إلّا أنّ جمعة كان يأخذه إلى مكان آخر، بين أشجار الحِرْج المتاخم للحيّ، يتوغّل بين الأشجار، حتى تنقطع أصوات الحيّ ولا يبقى إلّا الأصداء الآتية من بعيد. هناك ابتدأ جمعة مشروعه الذي أنفق سنوات خلت في التحضير له، إنّه حلم حياته وقد أوشك على تحقيقه. كان يمتلئ غبطة كلّما أنجز جزءًا منه، وسط اندهاش أبو طافش، بل زاد بسعادته، وشعوره بأهمّيّة ما يفعله بعد أن صار يقرأ في كتابه الخاصّ الذي يتحدّث عن تدوير النفايات، صحيح أنّ ما يقوم به لا يشكّل حجمًا ذا أهمّيّة بالنسبة للوضع المخيف الذي يغرق المدينة بفوضى النفايات، لكنّه أضعف الإيمان، لذلك عاد جمعة مرّة بعد مرّة إلى البلديّة لكنّ الأبواب كانت تُغلق في وجهه كلّ مرّة. لم يكن بالنسبة لهم أكثر من شخص وضيع لا ينمّ مظهره عن أنّه يمكن أن

يحمل عقلاً يفكّر، أو قلبًا يشعر، في الوقت الذي كان ينفطر فيه قلبه وهو يرى هذا الانتهاك للحياة في مدينته، كما أنّ حرصه وفضوله وضعاه في مواقف كانت عاقبتها وخيمة عليه، عندما كان في إحدى المرّات يمرّ في أوتوستراد الثورة. كان الوقت صيفًا قبيل المغيب، حيث اعتاد الناس المشاوير على هذا الطريق الطويل بأرصفته الواسعة، وقد علّقت على بعض الأعمدة سلال للنفايات. رأى عدّة أطفال يتعلّقون بإحداها ويهزّونها محاولين خلعها أمام أعين أهاليهم الذين لا يأبهون بأفعال أطفالهم، اقترب جمعة منهم وراح ينهاهم عن فعل الأذى بهدوء وهو يمسك حبل الحمار بيده خلف ظهره، لكنّ اقترابه من الأولاد أثار غضب الأهالي، هدّدوه وهزئوا من عرجه مع حماره. صار الأطفال يضحكون ويشيرون إليهما، يمدّون له ألسنتهم، ويركلون الهواء بأرجلهم، يزيد حماسهم تحبّب الأهل لهم. استدار يومها صامتًا، يريد أن يلعن أحدًا في سرّه، لكنّه عجز حتى عن اللعن.

كان يلصق علب المياه الغازيّة الفارغة بعضها على بعض بالغراء، وكلّما تشكّل لديه لوح منها بمساحة حائط غرفة، كان يلصقها على الألواح التي يصنعها من قطع الفلّين الاصطناعي البيضاء التي تغلّف الأدوات الكهربائيّة، تلك القطع الخفيفة كالهواء التي كانت تتكوّم أمام المحلّات، يطيّرها الهواء في كلّ الاتّجاهات بسبب خفّتها، يثبّتها جمعة على العلب، ثم يثبّتها على الأساسات التي ركّزها في الأرض من الإسمنت والرمل والحصى، وبعض قضبان الحديد التي كان يجمعها من بين أنقاض النفايات في الأبنية قيد الإنشاء، التي ينقلها على دفعات. ولم ينسَ جمعة الشبابيك

التي كان يتخيّل كيف ستجلس إليها جميلة، تتأمّل الطبيعة الفاتنة منها. سوف يضع عليها ستائر شفّافة، تسمح للضوء بالدخول حتى لا تخيّم العتمة على البيت، حفاظًا على مزاج جميلة. وكلّما انتهى من تثبيت لوح، كان يغطّيه بطبقة من الإسمنت من الداخل والخارج. كان يأتي كلّ يوم من أجل سقاية الإسمنت، كي لا يتشقّق، فيسمح للماء بالعبور لاحقًا إلى داخل البيت، ولم ينسَ جمعة أن يزنّر الشبابيك ببراويز الخشب التي كان يجمعها من أمام محلّات النجارة، أو من أمام الحاويات، عندما كان بعض الناس يرمون هناك ما استغنوا عنه بعد أعمال الصيانة لبيوتهم.

انقضت سنوات وجمعة يمضي في مشروعه، ويحلم بجميلة. لم يبقَ عليه إلّا السقف حتى ينجز بناءه الخاصّ. فكرة السقف كانت تثيره، كلّما سرح بخياله وأخذ يرسم شكل بيت أحلامه، كانت تصيبه رعشة خفيّة عندما يصل إلى السقف. هو بالعادة ينام صيفًا في فناء البيت، يمدّ حصيرًا يضع فوقه لوحًا من الإسفنج، ويستلقي ممعنًا في السماء وتقلّباتها، يرقب النجوم ويتهجّى أطوار القمر، يغمض عينيه ويتنشّق الهواء على مهل، يشعر أنّ للسماء رائحة تخصّها في كلّ طور من أطوارها، وأنّ النجوم ترسل عبيرها الخاصّ، والقمر تمتزج رائحته بجسد جميلة، قرنفل معتق، مع توابل مخمّرة، تختلط معها رائحة مبهمة بدأ يشعر بها تنطلق من مسامّ جلده الملتهب شوقًا إلى جميلة. يحلم مستيقظًا، ويبتعد في أحلامه، قبل أن يغفو ويتابع الحلم في نومه، يودّ لو يمتلك تلك الروائح، يخبّئها في مكان قريب من قلبه، بين ضلوعه. لم يكن يبرح فناء البيت ليلاً إلّا في الشتاء، بل في الأيّام الماطرة، لم يكن

البرد يثنيه عن النوم خارجًا، وهذا ما كان يثير قلق أمّه واحتجاج أبيه، وذهول إخوته، لكنّهم أذعنوا لغرابة طباعه. لم يكن متفرّدًا بطقسه هذا وحده، بل بأمور كثيرة غريبة عن المألوف. كان يشعر أنّ السقف يباعد بينه وبين نفسه، يمنعه من التواصل مع السماء بمداها البعيد، يقلّص أحلامه، ويقصّ أجنحتها، مع أنّه يعرف أنّ السقف مهمّ في البيوت، وأنّه لولا أهمِّيّته ما كان الناس جميعًا يبنون السقوف، حتى النَّوَر الذين يأتون بين موسم وآخر إلى أطراف المدينة كانوا ينصبون خيامهم التي تشكّل سقفًا بطريقة مختلفة. وجمعة، من شتاء إلى شتاء، يردّد ممّا حفظ من طفولته: سقف بيتي حديد، ركن بيتي حجر، فاعصفي يا رياح، وانتحب يا مطر، لست أخشى الخطر. وفي كلّ شتاء يبني في خياله قلاعًا تليق بتلك القصيدة، ثم يرحل بخياله إلى بيت ذويه والبيوت المجاورة. هم أيضًا لا يخشون الخطر، فالخطر يعيش بمحاذاتهم، بل بينهم. هم يعيشون كما لو كانوا في العراء، لا يملكون شيئًا فعلى ماذا يخافون؟ حتى الموت يحمل مفهومًا آخر لديهم، أناس يعوّلون على الطالع، ويحمّلون القدر كلّ مصيبة، وينتظرون وعْدَ الله، المؤمنون به، فلماذا يتبجّح شاعر مثل هذا بسقف بيته، وركن بيته، وهو لا يملك مثل أعشاشهم الهشّة، ولا مثل قدريّتهم الشافية؟

كان يستغرب تلك الأبنية الحديثة متعدّدة الطوابق، بل متعدّدة السقوف، ما الذي يجبر الناس على العيش بعضهم فوق بعض؟ ما الذي يجعلهم يدوسون بعضهم بعضًا، ويكابدون مشقّة صعود السلالم من أجل الوصول إلى أسقف غيرهم؟ هو يتفهّم أن يكونوا متلاصقين، كما البيوت في حيّه، التلاصق هناك هو مأمنهم الكبير،

يسند بعضهم بعضًا فيصمدون أمام نوائب الدهر، أمّا أن يكونوا مكدّسين بالطريقة هذه التي تزداد بشاعة ونفورًا، فهذا أمر فوق احتماله. ها هي الأرض واسعة، تستوعب الكثير من البيوت. ما الذي يضطرّهم إلى التجمّع في هذه المساحات المحدودة؟ صار سقف البيت أمرًا معطّلاً لتدفّقه في المرحلة النهائيّة، لم يعد لديه ذاك الحماس الذي رافقه طيلة السنين الماضية، وهو يحضّر لمشروعه، ثم يبدأ بتنفيذه بشغف وإقدام. كان يبدو كمن أفلتت الأفكار من يده، وهو عاجز عن لملمتها وإعادتها إلى رأسه، وها هو أخيرًا ذاك البيت المجهول، المثير الذي شغل تفكيره، والذي تيقّن من وجود أحياء داخله، يرسخ على الأرض منذ سنين طويلة، بسقف وحيد.

تذكّر الأوراق، شعر بحنين يختلط بفضول مبهم، تتداخل معه ذكرى جميلة، مع خيالاته الحاليّة. ما زال صوت مهنّا القطرنجي يتردّد في باله: ماتت الأمّ من كم سنة، وبقيت البنت وحدها. ترى هي ليست صغيرة، عمرها فوق الأربعين، لا أحد يراها.

لملم أشياءه، ورفع الخرج على ظهر الحمار المتذمّر في دخيلته وهو ينتظر، يرقب صاحبه ويرثي لحاله، فهو يراه مهمومًا، شاردًا، مضطربًا في عمله. لم يعهده هكذا من قبل، وهذا ما جعله يصبر، ويكفّ عن مشاكسته، بالرّغم من لهفته الشديدة للرجوع إلى زريبته. لم يكن يعلم أنّ جمعة ينوي على مشوارٍ إضافي. بقي معظم الطريق مطواعًا، يلحق بصاحبه من دون اعتراض، إلى أن وصلا إلى التقاطع الذي ينفلت منه طريق خارجي يلتفّ على الحيّ

من الجهة الأخرى، يصل إلى الأوتوستراد الذي يشكّل مدخل اللاذقيّة الجديد: كان يمرّ من أمام مكتب الدور، حيث كانت تصطفّ الشاحنات بأعداد كبيرة بانتظار دورها في التحرّك بمهمّتها. عندما التفّ جمعة يمينًا، حرن أبو طافش، هو لا يريد، بل ولا يحتمل أيّ تغيير للمسار الذي تحمّل ما تحمّل من أجله. صبر على مزاج صاحبه، بداعي الشفقة، فقد كان يرى من منظوره أنّ جمعة يهيم في الهواء بدونِ جدوى، هو شخص يطفو فوق الواقع، وليس هناك مجال لإصلاحه، فما كان من الحمار إلّا أن يسايره أحيانًا، إنّما ليس على حسابه بالمطلق. حرن ولم يرضَ أن يتقدّم خطوة واحدة. كلّ محاولات جمعة معه باءت بالفشل، فاشتعل غيظًا، غضبه مدّه بقوّة إضافيّة، راح يزيد من قوّة شدّه حتى بدأ الحمار ينزلق قليلاً، كانت مباراة في العند والرأس اليابس. لم يرضَ أبو طافش الهزيمة، فعندما شعر بأنّ جمعة بدأ يسيطر على الموقف، شغّل موهبة أخرى، أخذ ينهق بأقصى قوّته، ممّا جعل جمعة يجفل ويرخي من قبضته على الحبل، أمام نهيق قبيح سوف يلمّ عليه الناس فيما لو استمرّ بالضغط على الحمار الذي احتار بأمره. عدل عن فكرته، تلاشت عزيمته، وتراجع عن نيّته التي لم يطّلع عليها الحمار، وقفل عائدًا إلى البيت، يحتار بأمر الحمار، كأنّ همًّا أتاه في غير موعده.

ـ ١٣ ـ

وقفت دلال أمام المرآة، المرآة كبيرة، شاسعة، فضاء لا يقرّ له قرار، عالم آخر، يمتصّ ويعكس، يشظّي ويتشظّى، يومض وينطفئ، يلتفت ويهمل، يرتّب المسافات، ويمحوها، يدنو وينأى، يصرخ ويصمت، لا يقبل إلّا المواجهة، خادع يُجيد الحقيقة. مدّت يدها، اصطدمت بالسطح البارد وهي تلامس راحتها، أوّل مرّة تعرف كيف تلامس الراحةُ نفسَها، وتكتشف كم هي باردة، تكوّرت الراحة وصارت قبضة، القبضة تلامس السطح بنتوءاتها فتلاقيها النتوءات الأخرى من الداخل متوعّدة. تتراخى اليد، تفيق العينان، تنجلي الصورة كما لو أنّ الغيمة تنسحب. يسطع النور على صفحة الوجه، تفيق دلال على الحقيقة المختبئة في مرآتها منذ سنين، كلّ شيء خلفها كما هو: الخزانة، السرير، علّاقة الثياب، الطاولة، الكومودينة والفانوس القابع فوقها، كلّ شيء على حاله. انتفضت أمام صورة أمّها وأبيها، لا ليس كلّ شيء على حاله، الغياب لم يكن موجودًا، الغياب تسلّل إلى غرفتها وسكن زاوية مخفيّة، الغياب تسلّل إلى نفسها. من التي تحدّق بي؟ في عينيّ تمامًا؟ أنا

لست أنا! أين كنت لمّا مرّ الزمن، وترك أشياءه فوق وجهي، لا. فوق روحي؟ أين كنت ضائعة كلّ هذه السنين؟ سنون تمرّ، وأنا غرقانة. في أيّ شيء كنتِ غرقانة يا دلال؟ كنتِ بنتًا مطيعة، تمشين على الصراط الذي رسمه لك أهلك، ما كنت تحيدين إلى اليمين ولا إلى اليسار، وبقيت تكفّرين طول عمرك عن أنّك أحببتِ، فقط أحببتِ؟ راح العمر وأنت تدفعين الكفّارة، كم ركعت وصلّيت؟ كم أدركك الفجر وأنت تقيمين صلواتك، وتنشدين تراتيلك؟ بل كم هربت من شياطين نفسك في ليالي السهد، وكم أفقت محمومة تخنقين شهوة استبدّت بك في أحلامك وأنت ترين نفسك في حضن رجلٍ بلا ملامح؟ لماذا كنتِ تشلّين يدك وأنت تمدّينها مرتجفة إلى مناطقَ جفّت من كثرة صراخها، ثم تهرعين كالممسوسة إلى الدوش تغتسلين خاشعة تحت انهمار الماء الدافئ، مواربة أحاسيسك؟ من كنتِ تغالطين وأنت تستمتعين برعشة الدفء بدلاً من رعشة تتوقين إليها في أحلامك؟ على من كنت تكذبين، ومن كنت تقنعين بثوب العفّة الذي ترتدينه وأنت تضيقين ذرعًا به؟ بل كنتِ أكثر من ذلك، توهمين نفسك بأنّك تُعنين بأمّك هكذا، لوجه الله؟ ولكن على مَنْ تكذبين؟ هو ذا عمرك راح ثلاثة أرباعه، وصباك يذبل وينطفئ، وأنت تلاقين نفسك في غفلة منك، وحيدة. وحيدة يا دلال. وحيدة!

استدارت مخلّفة المرآة وراءها، أرخت لدموعها العنان، هي لم تبكِ بعد أن بكت أمّها. كانت تعيش حالة من الوجوم جعلتها كأيّ قطعة من أثاث البيت، لا تفرح ولا تحزن، لا تأمل ولا تيأس، حياة خالية من أيّ معنى، ومن أيّ جدوى. حتى شغل

البيت لم تكن لها أيّة علاقة به، تأتيها فتاة في السابعة عشرة كلّ يوم، وتقوم بتدبير أمور البيت، أمّا دلال فلم تكن تكترث بشيء. مرّت أيّامها متلاحقة، متشابهة، لم تغادر البيت. حتى في ذكرى وفاة أمّها لم تحاول أن تفتح بابه وتنطلق إلى الخارج، تشتري باقة ريحان وتضعها على قبر أمّها وأبيها، كان يرنّ منبّه الهاتف الذي برمجته منذ الوفاة على التذكير بالمناسبة، تسكته، تتلو الفاتحة بطريقة آليّة خالية من أيّ شعور، لا شوق، لا حنين، لا حزن، لا لهفة، لا حلم. فقط تتلو الفاتحة، وتعود إلى نومها، كان نومها مديدًا، بلا أحلام، حتى ولا كوابيس. أمّا مذكّراتها التي ابتدأت في البداية رسائل لم تُرسل إلى غسّان، فقد هجرتها منذ مدّة طويلة، بعد وفاة أمّها بمدّة قصيرة، ربّما كانت تلك المذكّرات يومئذٍ هي الثقوب السرّيّة التي تتدفّق منها خيباتها المقنّعة بلعب دور المضحّية، حتى أفاقت مؤخّرًا على حقيقتها، وأنّها استمرأت هذا الدور، لكن ما الفائدة؟ ها هي وحيدة لم تجنِ إلّا السأم، حياتها تدور على نفسها ضمن هذا البيت الكبير كطبل أجوف ملقاة في عمقه، يقرع عليه الزمن في كلّ لحظة، فيهزّها ويحطّم سكينتها.

دلال تبكي، بعمق غربتها عن الحياة تبكي، بهول صدمتها وهي تستيقظ على هذا الكمّ الهائل من الفقدان تبكي، ببعد المسافة بينها وبين مفردات الحياة تبكي. هي لم تقابل أيّ شخص منذ وفاة أمّها، بعد أن يئس كلّ أقاربها ومعارف أسرتها من إمكانيّة الإبقاء على الحدّ الأدنى من التواصل معها، منذ البداية حاكت شرنقتها، وحبكتها بإتقان ومنعت الآخرين من الاقتراب. ثم لم تكتفِ بحَبْك شرنقتها، بل رفعت السواتر بينها وبين نفسها، وراحت تدور في

ذلك الفضاء الضيّق المعتم، لتستيقظ الآن على دويّ الانفجار الكبير في أعماقها، الذي نسف الحواجز والسواتر، لترى نفسها يرقة تريد أن تتحوّل إلى فراشة، فتستحيل إلى دودة تحلم بأن تكون فراشة، فتصطدم بقبحها وعجزها، تفيق الرغبة في الحياة لديها، شيء ما يتحرّك، لكنّها قبيحة، قبيحة حدّ انتهاك الحياة لها. بكت، وبكت، حتى أنهكها البكاء.

وحيدة في غرفتها التي لا تدخلها الخادمة إلّا بإذنها، جلست على حافّة السرير، تجول في أرجاء الغرفة كأنّها تدخلها للمرّة الأولى. عالم غريب عنها، فيه بريق الدهشة اللامعة على العشب المبلول تحت الشمس الساطعة. عيناها تؤلمانها في العمق، لم تنتبه إلى النور قبل اليوم، كان البيت غارقًا بعتمته ليل نهار، فهي لم تكن تفتح النوافذ، ولم تكن ترفع الأبجورات. الستائر مسدلة على الدوام. تكتفي بإشعال بعض الفوانيس في زوايا قليلة من البيت. كان البيت فيما مضى فضاءً مليئًا بالضباب القاتم، تبدو الأشياء فيه كالأشباح الرابضة. أمّا الآن وهي مغمورة بهذا الكمّ من الضياء، تكتشف عالمًا جديدًا، عالم يؤسّسه الضوء، تتراقص فيه الألوان بكلّ أطيافها، بل هي ترى هالات تشعّ من بعض الأطياف، ألوان ناريّة صاخبة تبرّد أطرافَها أمواجٌ من الألوان الأخرى تزدهي ببرودتها. عالم الألوان كان غائبًا عنها، لم تنتبه إليه قبل اليوم. أخذت تذرع غرفتها مندهشة كغريب ألفى نفسه وسط غابة، تنقّل نظرها بين الأشياء، ثم تنظر إلى نفسها، مرّة في المرآة، وأخرى على ما تستطيع أن تراه عيناها، تمدّ يدها تلامس أرديتها، تقبض قماش ثوبها ثم ترخيه، كما لو كانت تبحث عن اليقين، صدرها

يتّسع إلى أقصى مداه يسحب الهواء بنهم الجائع، فتنفلت تنهيدة عميقة، تلتفت إلى يمينها، تفيق على صورة كأنّها حدثت في الماضي البعيد، كان هناك شيء ما على الكومودينة، ولم يعد موجودًا، صارت تغالط نفسها، تملّكها الارتياب بذاكرتها: معقول؟ هل جننت؟ أنا كنت وضعت الكيس هنا، أم أنا غلطانة؟ معقول أن أكون قد حلمت بذلك، وأنّي وضعته هنا في منامي؟ هبّت كالملدوغة تنبش الخزانة، والكومودينة، تفرغ الأدراج، تقلب الغرفة على رأسها، بهياج بالغ وتوتّر تنبش كلّ شيء في الغرفة، تنبطح أرضًا، وجهها ملاصق للأرض، ترفع غطاء السرير، تبحث تحته، تسحب الغطاء بقوّة، ترفعه عاليًا ملوّحة به في الفراغ، ثم تلقيه أرضًا، تجرّ طاولة الزينة، تمدّ ذراعها على طولها، تفتش تحت خزانة الملابس، تدبّ على ركبتيها فوق الأرض وهي ترتجف، تمسح الأرض فلا تجد شيئًا.

كان كيس أوراقها منسيًّا منذ زمن طويل، منذ أن نسيت كلّ شيء، وهجرت عادتها بتدوين خواطرها، منذ أن أودعته ذات مرّة أكثر زاوية مهملة من خزانتها، وأودعت بعدها كلّ ما يشي بالحياة القلقة في خزائن أعماقها. لكن أين الكيس؟ ما الذي يجعلها شبه واثقة من أنّها وضعته مرّة، لا تذكر متى كانت تلك المرّة، على الكومودينة بجانب الفانوس. انتابتها حالة من الرفض والارتباك، ألحّت عليها الحاجة لأن تفهم، هي لا تريد أن يضطرب إدراكها، فتحت الباب بسرعة ونادت على الخادمة التي كانت في المطبخ، أتتها الخادمة هلعة، فهي اعتادت على صمت دلال التي سألتها محتدّة:

ـ كان يوجد هنا، على الكومودينة، كيس. هل رأيتِه؟

ـ رأيت كيسًا مرميًّا على الأرض.

ـ منذ متى؟

ـ لا أذكر بالضبط، لكن منذ أكثر من أسبوعين.

ـ أين هو؟

ـ رميتُه في الزبالة.

انتابت دلال أشرس نوبة من الغضب، أخذت تصرخ في وجه الفتاة التي جمّدها الخوف، وربطت لسانها المفاجأة، أمسكتها من كتفيها وراحت تهزّها بعنف وتصيح:

ـ كيف ترمينه في الزبالة؟ من قال لك أن تفعلي هذا؟ ألا تفهمين؟ لماذا خرستِ؟ احكي، قولي أيّ شيء. تكلّمي.

ـ دخيلك يا ستّ دلال. والله ما كان قصدي أيّ شيء، أنا لا أعرف ماذا يوجد فيه، لكنّني رأيتُه مرميًّا على الأرض، قلت في بالي يمكن هي أوراق لستِ بحاجة إليها، وأنت قصدًا رميتها، شلتُه وألقيت به في الزبالة.

ثارت ثورة دلال، واندفعت تتوعّد، وصفعاتها تنهال على وجه الخادمة، حتى فتحت الباب ورمتها خارج الغرفة، وهي تصرخ:

ـ اليوم آخر يوم لك في هذا البيت، سامعة؟ روحي ولا ترجعي. لا تريني وجهك بعد اليوم.

اختفت الخادمة، وداهمت دلال نوبة أخرى من البكاء والغضب. واندفعت تنبش الخزائن، ترمي الثياب في كلّ صوب،

تركل بقدمها ما يعترض طريقها وهي تدور في الفراغ الضيّق للغرفة. وبعد لأيٍ انطوت على نفسها، أحسّت بألم أسفل بطنها، تلاه شعور برطوبة مفاجئة. انتصبت بجذعها، فشدّها الألم ثانية وجعلها تنطوي من جديد، أسرعت إلى الحمّام، كان هناك نزف يلوّث ثيابها، هالها أن ترى دمًا في غير موعد طمثها، لكنّ الألم استمرّ، ألمٌ يزنّر حوضها، لكنّه ليس مبرّحًا. لم تقلق، إنّما غزاها شعور مبهم على شكل سؤال كانت من دون أن تعي ذلك تدفنه في أعماقها، شعور لا تريد أن يستحوذ على اهتمامها، فالحالة التي تمرّ بها أكبر من استيعابها، وهي لا تريد أن يعرقلها أمرٌ آخر حتى لو كان أكثر أهمِّيّة، فكيف وهي لا تعرف، كما لا تريد أن تعرف شيئًا عمّا اعتراها، إنّما لم يغب عن حدسها بأنّ أمرًا استثنائيًّا يحصل معها.

انساقت دلال خلف هواجسها، لم تكن في حالة تخوّلها بأن تعرف ما يلزم، أو ما تريد بشكلٍ دقيق، إنّما تبعت بشكلٍ تلقائي إحساسها بأنّ عليها الآن أن تنصاع إلى ما يحتاج جسدها المنهك الضعيف الذي يعاني من أمرٍ فوق إدراكها. هي ضعيفة حدّ الاستسلام. جذبها السرير، ليس في أفقها ما يستطيع جذبها إليه سوى السرير، استلقت عليه، وبين استلقائها ودخولها ملكوت النوم لم يمضِ أكثر من رفّة جفنٍ من أجفانها المتعبة التي أنهكها البكاء قبل أيّ شيء.

ـ ١٤ ـ

رجعت جميلة إلى الشغل بعد إذن منحها حرّيّة الخروج إلى العالم الذي لم تكن قد تعرّفت عليه، أو ربّما غادرها قبل أن تكتشفه، إذ لم يسمح لها والدها في الفترة السابقة بمغادرة غرفتها إلى فناء البيت، وقد أذعنت لأوامره، كانت تعرف أن لا بديل لقراره، وهي إن لم تكن تنفّذه كعقوبة، كانت تنفّذه كخيار وحيد. ما هو البديل؟ ليست لقاءاتها بجمعة هي الخيار الوحيد لحياتها، ومع هذا ارتبطت حياتها به، فصارت رهينة ظرف ينبثق من خلال علاقتها به. لم تجادل والدها، هي تعرف أنّه لا يُجادل، ولم تشتكِ إلى أمّها. هي تعرف تمامًا أنّها محسوبة على الحياة بالخطأ، لمن تشتكي همومها؟ اقتنعت أن لا حلّ لهذه المشكلة التي تكابدها غير الصبر، لبست الصبر ثوبًا يقيها من تقلّبات طقسها في البداية. انتظرت شهورًا طويلة، والمسافة تبتعد بها عن العالم، لم يبقَ في أفقها عالم آخر سوى فضاء البيت الضيّق، يكتظّ بإخوتها الذين لم يكن حالهم أفضل من حالها، إلّا أنّ فارق العمر بينها وبين أكبرهم كان كافيًا لأن يزيد من توغّلها في عالمها الداخلي، فقد انقطعت

أمّها عن الحمل لأسباب مجهولة عدّة سنوات، هي لم تنقطع عن الحمل بإرادتها، أو بحيلٍ كانت تتدبّرها بالسرّ، لكنّ شيئًا لا تعرف سرّه تغلغل في كيانها بعد أن أنجبت جميلة. كانت قد أخذت تكتسي ملامحها الجديدة التي تسلّلت إليها مع الزمن الذي لفّها بحبال الفاجعة والحزن، لم تستطع أن تنسى قسوته وقد خطف منها طفليها، الأوّل في غفلة منها، والثاني من مأمنها عندما كانت تخاتل الموت وتواربه وتحتال عليه. أثناء إرضاع جميلة انقطع حيضها مثل أغلب المرضعات، لكنّه لم يعد إليها، استمرّت بإرضاعها برغم نحولها الشديد. كانت جميلة تمتصّ كلّ ما تأكله أمّها، رضيعة نهمة لا تكتفي، لكن دنّورة أيضًا لم يكن حليبها غنيًّا ليجعل الرضيعة تشعر بالشبع. أكملت جميلة العامين وهي ترضع، إلى أن شارت عليها الداية أمّ عارف بالفطام: افطميها يا دنّورة، يكفيها رضاعة، الله سبحانه يقول: حمله وفصاله ثلاثون شهرًا، لماذا تعارضين حكم الربّ. ثم انظري إلى حالك كيف صرت نصّ ما كنتِ، الصغيرة تأخذ كلّ غذائك، ولا تستفيد، صار يلزمها أكل ثانٍ، وهي طالما ترضع منك لن تتقبّل شيئًا آخر، ولا تنسي أنّه صار لزامًا عليك أن تحبلي وتنجبي لها أخًا. كانت دنّورة تصمت، تمور في نفسها أشياء كثيرة لكنّها لا تعرف كيف تبوح بها، ولا إلى من تبوح، صارت تنغلق على نفسها أكثر، فطمت جميلة، لكنّ الطمث لم يعاودها ثانية. مرّت الشهور، وتتالت سنوات وهي على حالها، تبدو مثل هيكل عظمي يكسوه جلد شاحب، تتحرّك في البيت كالشبح. حمّود الذي لا تكفي فحولته امرأة واحدة، فكيف بمن تجفّ أمامه كغصن تاه عن الماء لتغادره النضارة ويعاجله

اليباس؟ كان يأتيها في آخر الليل بعد أن ينفرط جمع الرجال في قهوة أبي تحسين، يقلبها على ظهرها، يضاجعها لاعنًا إيّاها بكلمات فاحشة، يعيّرها بنحافتها، ببرودتها، لاعنًا حظّه العاثر: عاجبتك حالتك هاه؟ أنام معك كأنّي أنام مع خشبة مبخوشة، لا فيك حسّ ولا فيك طراوة. أنا رجّال أريد امرأة وليس لوح خشب، أو فزّاعة طيور. العمى بقلبك شو أنّك بومة، والله إذا لم تبدّلي هذا التوب لخلّيك تشوفي بعينك النتيجة. ابقي مثل ما أنتِ، ابقي. ولم يستطع تحمّل شكواه طويلاً، فلجأ إلى الشيخ يحيى يستشيره:

ـ يا شيخي! عن ماذا أحكي لك؟ والله لا أعرف من أين أبدأ. ها المرأة التي عندي لا أفهم ما الذي يحصل لها، لا هي امرأة، ولا هي شيء، لا أقدر على وصفها، ما منها إلّا الهمّ والغمّ، شوفتها تجعلني أشعر أنّ الدنيا قرّبت من النهاية، لا تحكي، ولا تضحك، ولا تبكي، وزيادة صايرة مثل العود الواقف، لمّا أنام معها كأنّي أنام مع قطعة حجر، أنا رجّال ولا ينقصني شيء، أعطني مشورتك، ماذا يمكن لي أن أفعل؟

ـ تزوّج يا حمّود، هذا حقّك الذي منحك إيّاه الشرع والقانون.

ـ من أين يا حسرة؟ أنا بالكاد أقدر أشيل فيها هي وبنتها.

ـ اشتغلْ أكثر يا حمّود، أنت لم تزل قادرًا على الشغل، ثم ماذا تريد المرأة الجديدة أكثر من لقمتها وفرشتها، ورجّال يسترها؟

ـ والله لا أعرف يا شيخي. لا أستطيع القيام بها الخطوة، مع أنّ نفسي راودتني كثيرًا لأن أفعلها.

ـ الله يكون بعونك. أنا رح أدعي لك حتى يساعدك الله.

عندما اشتكى همّه إلى الشيخ يحيى، كان يتواطأ مع رغبة دفينة لم يبح بها، كان يزيّن لنفسه أن يلمّح الشيخ يحيى إلى أنّه متساهل في أمر تردّد حمّود على البيت المستور، هكذا كان الرجال يسمّون ذلك البيت المتاخم لحارتهم من الجهة الشماليّة، الذي يحيط به سور عالٍ، شبابيكه مغلقة على الدوام، بالرّغم من الأشجار الوارفة المتوزّعة في حديقته والتي تحجب الداخل تمامًا، إلّا مساء، حيث يمكن أن يتسرّب نور من بين الأغصان. لا أحد من رجال الحيّ يعرف تاريخ هذا البيت، كلّهم يشبّون ويتعرّفون عليه بعد أن يكون قد سكن ذاكرتهم وتسلّل إلى وعيهم في لحظة غير مرصودة، وكأنّه موجود بحتميّة معيّنة لا يدركونها، كما أنّ له عمرًا سرمديًّا لا يمتّ إلى الزمن بصلة. هو موجود بجبروته الغاوي، ملعون في العلن، وآسرٌ في السرّ، مسكون بجنِّيّات يحملن في أجسادهنّ جرارًا من المتع المحرّمة الآسرة، جرارًا سحريّة لا تنضب.

عندما اشتكى حمّود همّه إلى الشيخ، كان قد زار البيت للمرّة الأولى، ولم يكن قد نوى على إعلان توبته كما يفعل بقيّة الرجال، إذ يتوبون على يد شيخهم عن كلّ مرّة يرتادون فيها هذا البيت، ليعودوا إليه صفحة بيضاء تنتظر بقع الحبر الأسود كي تلطّخها بلذّة محرّمة، ثم ينعمون بنعمة التوبة القادرة على الغفران والنسيان مرّة أخرى. كان حمّود يريد أن يتوب بالتدريج على يد الشيخ، بعد أن يتشرّب بالخطيئة حدّ الامتلاء.

ثم أفلت الحبلُ لدى دنّورة بعد سنوات سبع من الانقطاع عن

الحمل والإنجاب، هكذا، من دون سبب ظاهر، مثلما انقطع حيضها زمانًا من دون سبب أيضًا، وكرّت الولادات، وصار البيت يضيق بهم. أحيانًا كانت تنتاب جميلة ومضة سريعة من الشفقة على إخوتها، تشتاق لهم وهم يلعبون خارجًا مع أولاد الجيران، بعدما وصلت البيوت الأحدث إلى جوارهم، ولم يعد بيتهم منفردًا في عزلته كما في الماضي، فقد بقي الأخير في الحيّ، لكنّه صار يتاخم بقيّة البيوت التي زحفت باتّجاهه، لكنّ تلك الومضات الخاطفة من الشفقة والتعاطف مع الإخوة، ما لبثت أن غادرت جميلة أيضًا، وصارت لا تكترث بهم، ولا بأيّ أمرٍ يخصّهم. تحوّل الصبر الذي لبسته بإرادتها فيما مضى إلى حالة من الاغتراب عمّا حولها، بل حالة من الافتراق. هي تعيش بينهم، تقاسمهم عالمهم، إنّما بدون أيّ إحساس بالمشاركة، أو الاهتمام، حتى صراخ والدها وتأنيبه لهم لم يكن يُثيرها، فقط تنظر بعينين خاويتين إلى ما يجري حولها كأنّه يجري في فضاء آخر لا يعنيها.

لم تختلف حالتها في الشغل عن حالتها في البيت، ظلّت متوحّدة مع نفسها، تغيب في سراديب عالمها هي، ولم تستطع أيّ واحدة من زميلاتها في العمل اختراق وحدتها ومدّ جسور التواصل معها. لكنّ الشغل مختلف عن البيت، لم تكن كلّ العاملات يتمتّعن بالطبيعة نفسها. لم يتعاملن مع حالتها الخاصّة بالطريقة عينها، كان البعض منهنّ يشاكسنها، يتحرّشن بها، وجميلة تنظر إليهنّ وتصمت، كلّ محاولاتهنّ لحملها على الكلام، وكلّ استفزازاتهنّ لها لم تأتِ بنتيجة، لذلك كنّ يهمدن بين حين وآخر، ثم يعاودن المحاولة من جديد.

دخلت الصالة أكثر هدوءًا، مشت إلى مكانها، وجلست أمام كومة الأوراق التي عليها أن تنهيها قبل أن ينتهي الدوام، وإلّا تعرّضت للعقوبة، كانت النظرات تتّجه إليها، نظرات فضوليّة، يشوبها استهزاء مبطّن من البعض. لم تكترث جميلة، بل لم تنتبه، مدّت يديها وبدأت بالعمل. ما زالت تحت تأثير الفوضى التي تملّكتها منذ أن غادرت وهي على تلك الحالة من الاضطراب، والأحداث التي مرّت بها، ما زالت قرصة ابن الحرام البوّاب تتحرّش بها، والغيظ يملأ صدرها. أخذت تعيد المشهد في بالها، المشهد الذي لم تتبيّنه جيّدًا عندما حدث، وهي على تلك الحالة من العجلة والهلع، تساءلت في سرّها عن سرّ المؤخّرة؟ لماذا قرصها في هذا المكان بالضبط؟ لماذا تعلّق نظر الأستاذ سليمان بمؤخّرتها وهي تطلب الإذن منه؟ هي لم يعنِها الأمر في حينها، بل لم يلفت نظرها، لكنّها الآن تستعيد التفاصيل، تستعرض الصور التي خزّنتها ذاكرتها البصريّة في حينها، البوّاب يقرصها فيها، الأستاذ سليمان يثبّت نظره إليها ويمنحها الإذن بعدها، منال تلبس السراويل الضيّقة التي تبرز مؤخّرتها منها، أمّا جميلة فقد اعتادت على أن تمدّ يدها بطريقة آليّة إلى أردان قميصها، تشدّه للأسفل حتى يغطّي مؤخّرتها، من دون أن تعي سببًا لذلك، خصوصًا بعدما ازداد وزنها، وكبر حجم مؤخّرتها. وفطنت وهي تنبش الأوراق أمامها إلى أنّ إحساسًا غامضًا أخذ يتململ في داخلها، تذكّرت جمعة الذي كانت قد نسيته منذ مدّة، مثلما نسيت أمورًا كثيرة بعد أن قاطعت الحياة وما يشي بها، عندما ضمّها للمرّة الأولى والوحيدة إلى صدره، كيف راح يمسّد شعرها، تنساب يداه بنعومة

على كتفيها، على ظهرها، تنزلقان للأسفل، تستقرّان على ردفيها لحظة، ثم تحوطان مؤخّرتها وتدعكانها بين شدٍّ وإرخاء. لم تفهم حينها لماذا اضطرب جمعة وهو يهصر مؤخّرتها، لماذا تسرّعت واحتدّت ضربات قلبه، وراح يتنفّس بسرعة، بل كان يلهث مثلما كانوا أطفالاً يركضون، أو يلعبون بشدّ الحبل، أو لعبة الطميمة. لكنّ الصورة تداهمها الآن مع هذا الإحساس الذي يتوالد في كيانها، وشيء ما يبثّ حرارة أسفل بطنها. شعرت برغبة مبهمة، ألّبت جوعها، صارت أحشاؤها تتقلّص وتنقبض، تتلوّى في بطنها، غزتها رائحة وصارت كومة أوراق التبغ أمامها أرغفة تتراقص وتتزاحم، تنبثق من بينها أبخرة الخبز الساخن الذي وحده يطفئ شهيّتها. أحشاؤها تصرخ، ويداها تمعنان في لفّ الأوراق على شكل سندويشات، كما تفعل عندما تغرق الرغيف بالزيت وترشّ عليه الملح، وتحشوه بالبصل، وتتلمّظ بعدها بذاك المستحلب الذي يبطّن فمها، يتغلغل بين ثنايا لثتها، يمتزج مع لعابها، تبتلعه بنشوة عارمة، تأكل وتأكل مستمتعة بتلك النشوة حدّ التخمة، عندئذٍ تنتابها موجة من القرف والغثيان، لكنّها لا تتقيّأ، تهرب إلى النوم، تنام بعد نوبات الشراهة، ثم تستيقظ على بطن يصرخ كي تفرغه، وتعيد حشوَه من جديد. لم تنتبه إلّا والعاملات يصرخن بها، وإحداهنّ وصلت قبل البقيّة، تمسك حزمة الأوراق التي تحاول جميلة إدخالها في فمها، مغمضة عينيها، وتسحبها من يدها، مستنكرة:

ـ هل جننتِ؟ ألست واعية لما تفعلين؟ هل يوجد في الدنيا عاقل يأكل أوراق الدخان؟ أم كنت نائمة ولست عارفة ما تفعلين؟

أرخت جميلة يديها عن لفافة الأوراق التي كانت زميلتها تسحبها من فمها. كان الجميع بحالة ذهول في البداية، ثم ابتدأت التعليقات. جميلة واجمة شاحبة، ما زالت تفتح فمها بعد سحب اللفافة منه، انهالت دمعتان على خدّيها، فانتفضت كأنّها تصحو من كابوس، انتبهت إلى جموع النساء حولها، إلى أكوام الأوراق أمامهنّ، صحت على تعليقاتهنّ، صارت الأصوات تتداخل في رأسها، تحدث ضوضاء مؤلمة، تسرّع نبضها، ازداد شحوبها، نضح عرقها بغزارة أكثر، غامت الصور أمام عينيها، تداخلت الوجوه، تمازجت الألوان، اصفرّ العالم أمامها، ثم خيّمت عليه غيمة داكنة، ما لبث أن اسودّ، غابت الرؤية، وتلاشت الأصوات. صمت أخرس، وجميلة تقع على الأرض مغشيًّا عليها. دبّت الفوضى في المكان، علا الصراخ، وهرعت منال إلى الطابق العلوي. فتحت الباب بسرعة على الأستاذ سليمان من دون أن تطرقه، هي اعتادت ألّا تطرقه، إنّما كانت في الحالات العاديّة تتدبّر الموقف إذا رأت عنده أحدًا في الغرفة، بحيلة من حيلها، لكنّها أمام هذا الموقف الطارئ الذي يستدعي تدخّلاً سريعًا، دفعت الباب واقتحمت الغرفة وهي تتلعثم بكلامها:

ـ عندنا عاملة أُغمي عليها، ونحن لا نعرف ماذا نفعل لها.

هبّ واقفًا، وقال لها:

ـ انزلي اسبقيني. سوف أتصرّف.

لم يردعه الموقف عن التلصّص إلى مؤخّرتها وهي تستدير مسرعة، تضفي حركتها السريعة إغراءً إضافيًّا على مؤخّرتها التي

تهتزّ بتواتر سريع أمام عينيه، فتشعل شهوته.

نُقلت جميلة إلى المستشفى الوطني، كانت قد بدأت تستعيد وعيها أثناء الطريق، ألفت نفسها ممدّدة على مقعد سيّارة صالون من سيّارات المؤسّسة، تجلس على المقعد، أمامها ثلاث من زميلاتها. توقّفت السيّارة أمام باب الإسعاف، كانت الساحة أمام المدخل تكتظّ بالحركة، وبالسيّارات الواقفة في محيط الساحة، والحاويات الموزّعة في أطراف ساحات المستشفى تفيض عنها القمامة. تتطاير شاشات الضماد الملوّثة في كلّ الاتّجاهات، وتتناثر على الأرض كفوف مطّاطيّة هنا وهناك، والسرنكات المستعملة تتوزّع محيط الحاويات، كراسي المرضى العاجزين، الكراسي ذات الدواليب، يجرّها مستخدمون يلبسون سترات زرقاء ملطّخة، تحمل صرر الغسيل المتّسخ في طريقهم إلى بيت الغسيل، أو علب الضماد المعدنيّة الكبيرة في طريقها إلى التعقيم، تحدث قرقعة عالية وهي ترتجّ فوق الحفر المتناثرة في الساحة. يسيل الماء كساقية تنحدر من أعلى الساحة، من ماسورة مياه خارجيّة مثقوبة في مكان ما، والماء يخرج منها كالنافورة يرشّ الجدار ويتجمّع بركة تحته، ثم تنهمر في النزلة كشلّال صغير.

حُملت جميلة، وأُلقيت على سرير الفحص، وبدأ الانتظار، بعد أن سجّل الممرّض في الإسعاف اسمها في سجلّ المرضى. كان السجلّ دفترًا كبيرًا مثل دفاتر الخيّاطين، أوراقه تغطّيها مربّعات صغيرة، مسطّرًا بقلم أزرق يقسم الورقة إلى خانات، يدوّن عليها اسم المريض ومعلومات هويّته واسم الشخص المسعف، بالإضافة

إلى ساعة الوصول. كانت أوراق السجلّ ملفوفة الزوايا متّسخة من كثرة التقليب فيها، تضاعف سماكته. وسريعًا جاء الطبيب المناوب، وضع السماعة على صدرها، لفّ جهاز الضغط على ساعدها، سأل عن شكواها بالضبط، وما الذي دفعهم إلى جلبها إلى المستشفى. كانت جميلة قد صحت تمامًا، لكنّها كانت صامتة، مفصولة عمّا يحيط بها، تبدو عيناها بنظرتهما المتّجهة إلى السقف كأنّهما تخترقانه، بل كأنّ شيئًا غادرهما بعيدًا وخلّف مكانه فراغًا أسود يكاد يبتلع العالم من حوله، ولمّا مدّ الطبيب يده إلى بطنها ليجري معاينته، انتفضت ووضعت كفّيها على مساحته ممانعة الفحص، حاول الطبيب، حاولت زميلاتها، لكنّ مقاومة جميلة الصامتة كانت أكبر من إصرارهم جميعًا، فاكتفى الطبيب بسمّاعته التي لم يستطع إدخالها إلى أبعد من نحرها بإصبعين أو ثلاث. وبعدما انتهى من معاينتها، قال:

ـ ما في شي، انخفاض بالضغط ترافق مع الجوع، الجوع ينقص السكّر بالدم، خذوها أطعموها شيئًا، واسقوها كأس شاي، بعدها تصير حالتها تمامًا.

عادوا بها، إنّما إلى البيت، فقد أوصاهم مراقب الدوام بأن يُعيدوها إلى البيت، إذا لم يستدعِ الأمر إقامتها في المستشفى. لم تكن جميلة مكترثة بما جرى لها، كانت فقط حزينة حزنًا مبهمًا، بل كئيبة، غير راغبة بشيء، تشعر بإحساس فارغ، كأنّ الكون يمتلئ بالخواء. يتزايد الخواء حتى ليكاد أن يبتلعها، تمنّت لو تستطيع أن تبتلعه قبل أن يبتلعها، لو تستطيع فتح فمها على اتّساعه وتبدأ بشفط

العالم حولها، ثم تبتلع نفسها بعدها. بقيت صامتة، تركت الجميع ودخلت البيت على مرأى أمّها وإخوتها المذهولين، لم تنتبه إلى زميلاتها، لم يعنِها الشرح الذي كنّ يقدّمنه إلى أمّها. لم تدعُهنّ للدخول إلى البيت، مشت كالمنوّمة إلى الغرفة، استلقت على الفراش الممدود على الأرض بثيابها كاملة، وغطّت في نوم عميق. كان أبوها في الجامع، بعدما بدأ يتتلمذ على يد الشيخ يحيى، فأرخى لحيته، وصار يلبس جلبابًا، ويحمل سبّحته على الدوام.

ـ ١٥ ـ

تحاول دلال أن تُدخل المفتاح في قفل الباب، يدها ترتجف، لا تستطيع كبحها، ينزلق المفتاح يمينًا، يسارًا، أعلى، أسفل، يزداد ارتجاف يدها، ترتجف كلّها تحت سيطرة الخوف الذي عادت تنسكن به. حاول الطبيب أن يوارب وهو يشرح لها حالتها، لاحظ ارتباكها، كما لاحظ اكتئابها، لكنّ الوضع لا يحتمل التأخير، فحالتها تتطلّب تدبيرًا سريعًا، وإلّا استفحل المرض الخبيث، وانتشر في جسمها.

الخبيث؟ أجهشت بالبكاء على عتبة الدار، شعرت كم هي ضعيفة ووحيدة! كم هي مخترقة بألم ينخر في صميم أعماقها! انقضّت على القفل بعنف من دون تركيز، وأقحمت المفتاح فيه، انفتح الباب فابتلعها البيت الموحش بسكونه الذي يشبه القبر، برطوبته الطرنة التي لم تلفتها من قبل. غزتها روائح عطنة، روائح منفّرة، تنفلت من أماكن مخفيّة. رمقها الأثاث القديم الراسخ كأنّما يكشّر عن أنيابه في وجهها. صارت المقاعد كالوحوش المفترسة تجثم ساكنة وتبرز أنيابها في وجهها. البسط المفروشة على الأرض

كالأفاعي تتلوّى أمامها. الستائر كالخفافيش تتربّص بها توشك أن تنقضّ عليها لتفقأ عينيها. فحيح وهمهمة وصفير وأصوات غريبة تملأ الفراغ المخيف حولها. تغطّي وجهها، تخلع نعليها وتركض إلى غرفتها، تغلق الباب، توصده بالمفتاح، وترتمي على السرير. تبدأ تلك المخلوقات الغريبة تتطاول من تحت الباب، تعتلي الخزانة، تقفز على طاولة المرآة، تعبث بأشيائها الخاصّة التي أهملتها منذ زمن بعيد. تحكم راحتيها على وجهها، وتتلصّص من بين أصابعها، تلهث، تبكي، تصرخ، ثم تهمد من جديد.

قبل قليل كان الطبيب قد خاطبها وعيناه تهربان منها:

ـ عندك سماكة في غشاء بطانة الرحم، هذا ما رأيته بالإيكو، هذه العلامة مع التحاليل الدمويّة توجّهنا نحو إصابة خبيثة، لا يمكن إثباتها إلّا بإجراء خزعة عن طريق التنظير.

ثم سكت كمن يبحث عن جملٍ تسعفه في الخوض بالأمر الأكثر حساسيّة، ولمّا لاحظ ارتباكها وصدمتها، والخوف الذي سيطر عليها، راح يطمئنها:

ـ لا تخافي يا آنسة. الموضوع تحت السيطرة، شرط ألّا يحصل تأخير. لكن توجد نقطة أساسيّة يجب أن تكوني بصورتها.

لم تكن دلال قد تمثّلت الحالة تمامًا، كانت المفاجأة قد تملّكتها، والشيء الوحيد الذي كان مسيطرًا عليها هو الذهول، بقيت صامتة تنتظر من الدكتور أن يتابع:

ـ الخزعة عن طريق التنظير يعني إدخال المنظار عن طريق

المهبل، وأنت ما زلت بنتًا. صحّ؟ أنا آسف، ولكن علينا تخريب غشاء البكارة حتى نستطيع الدخول بالمنظار.

انتفضت كمن لسعته النار، ومن دون أن تنتبه مدّت يدها إلى أسفل بطنها كأنّها تريد أن تحمي تلك المنطقة، وتمنع يدًا من الاقتراب منها، إنّها المنطقة الأخطر والأكثر سرّيّة، المنطقة المحميّة بكلّ أشكال السواتر، من يجرؤ على الاقتراب منها؟ ردّة الفعل الأولى كانت بحمايتها، يجب أن تفعل ذلك، ما زال أفق تفكيرها مغلقًا أمام فهم حالتها، هي كلمة تُلقى على الأسماع مثل كلّ الكلام، لكنّها ستكون قنبلة موقوتة تنفجر في أعماقها محدثة دويًّا رهيبًا. خرجت من عيادة الدكتور بدون أن تتّفق معه على موعد. قال لها: عندما تعتمدين أخبريني، المهمّ ألّا تتأخّري. تريد دلال ألّا تصدّق. لا! ليس مرضًا خبيثًا ما تعاني منه، هي لم تفكّر في يوم مضى أنّ الخبيث يمكن أن يصيبها، هو هناك في الخارج، يصيب الناس، تسمع القصص عنه، إنّما لا يقترب منها. ما هذا الهراء الذي يتفوّه به الطبيب؟ سرطان؟ يا ربّ من أين يأتيني السرطان؟ أنا منذ سنين قاعدة بين هذه الحيطان، لا أرى أحدًا، ولا أحد يراني، أفيق وأنام، وأرجع أنام وأفيق، والأيّام تكرج بعيدًا عنّي، كيف يمكن أن يأتيني السرطان؟ ولكن لمَ لا؟ أنا مريضة، هناك شيء يحصل معي، شيء غير طبيعي. لكن لماذا هنا يا ربّي؟ لماذا تصيبني في أكثر مكان يقهرني؟ أنا التي قضيت عمري من دون أن يلمس يدي رجل، كنت أخاف على شيء لا أعرف ما هو. بقيت محافظة على بكارتي كلّ هذه السنين، حتى يأتي اليوم الدكتور فيمزّقها بمقصّه؟ راح عمرك يا دلال وأنت تعيشين خارج

الحياة، وأنتِ تقهرين نفسك وتطفئين نيران الرغبة جوّاتك فقط من أجل هالنتفة غشاء الذي كان حتى قبل قليل ما في أعظم منه في حياتك، وتبيّن أنّه ما في أتفه منه ولا أضعف منه. فقط لأنّه كان يجب أن تكوني هكذا؟ لأنّهم أفهموك أنّك أنت تعنين هذا الغشاء، وأنّك لا تساوين شيئًا بدونه؟ بقيتِ كلّ هذه السنين تمدّين يدك إلى تحت في الليالي الطويلة وأنت تحترقين رغبة، تمرّرين أناملك على السطح خائفة على بكارتك، حتى لمّا حاول غسّان أن يلمس يدك نترتها منه، خفتِ على بكارتك من لمسة اليد يا جبانة؟ معقول حياتي تكون مرّت بالطريقة هذه وأنا عائشة بالوهم؟ العمر راح، وجاء الهمّ، جاء الموت يا دلال! جاء الموت وأنتِ عائشة خارج نفسك. أنت تعيشين كذبة كبيرة، مطمئنة بالك كلّ تلك السنين. كلّ شيء كان مؤجّلاً للغد، تنامين وتفيقين وترجعين لتنامي، وتعلكي أيّامك مثل أيّ عنزة، على من كنتِ تكذبين؟ من كنتِ تحاولين أن تقنعي أنّ الشباب لا يخطرون على بالك؟ كم أمضيت الليالي وأنت تحترقين رغبة وشهوة؟ كم فكّرتِ بغسّان بعدما سافر، حتى جعلك عجزك تبرّرين لنفسك بأنّك تصرّفتِ صحّ معه؟ كلّه كذب بكذب. يكفيك كذبًا، شوفي النتيجة، سوف يمزّقون بكارتك التي كنتِ مقتنعة أنّها هي أنتِ، وأنّ ثمنك هو فرنك بدونها، بمقصّ يا دلال. مقصّ! أين العريس الذي كنتِ تخبّئين له بكارتك هديّة ليلة الدخلة؟ شوفي غيرك اللواتي عملن السبعة وذمّتها ثم رحن قبل العرس ورقّعن بكارتهنّ، كيف يعشن أحلى عيشة، بل هنّ مرفوعات على الراحات، ها هي الحياة هربت منك، أنتِ لا تستحقّينها. أنت لا شيء.

هبّت واقفة، تنكمش بشرتها تحت ملوحة الدمع الذي جفّ على خدّيها. اتّجهت إلى المرآة، كانت فتاة جميلة حقًّا ذات عمر. كانت صبيّة ممشوقة القوام، جسدها يفيض أنوثة وإغراء، حنطيّة اللون بعينين خضراوين، وشعرٍ فاتح تنساب خصلاته الناعمة على وجهها الذي تشوبه حمرة خفيفة في الوجنتين وذروة الأنف، فتمنحها فتنة جذّابة.

وقفت ترنو إلى نفسها في عمق المرآة بخيبة وأسى، لأوّل مرّة تنتبه إلى أنّ السنين قد تركت آثارها بخشونة على وجهها، كما تنتبه إلى أدوات زينتها التي تقبع على طاولتها مكتملة من دون نقصان في علبها، لماذا هجرت نفسها؟ ها هي تشعر بالندم، وباندفاع غريب نحو شيء لا تعرفه، كأنّها في سباق. أيّام وشهور وسنون مرّت، وأنا أعيش في الماضي، لم أكن أنتبه إلى أنّ هناك زمنًا يمرّ، كيف يمكن أن أنتبه وأنا ساكنة أغرق في جمود الأشياء. كلّ ما تعلّمته في المدرسة وفي الجامعة تسرّب في غفلة منّي، وقبع هناك في دهاليز معتمة في ذاكرتي. الزمن؟ بأبسط القواعد أيّتها البلهاء هو قسمة السرعة على المسافة، يعني هناك حركة. لم أعر هذا المفهوم انتباهًا في أيّ وقت، مثله مثل كثير ممّا حفظته عن ظهر قلب، قدّمت به امتحانًا، ثم أهملته، لماذا يا دلال؟ لماذا خاصمت حتى العلوم التي تعلّمتها؟ جافيتِ الحياة. أغمضت عينيك عن حركة كلّ شيء فيها. حبستِ نفسك في قوقعة صمّاء تجترّين صدى الماضي، والزمن يركض بك إلى النهاية، وأيّ نهاية؟ الموت؟ ما الذي تنتظرينه بعد اليوم؟ انتظري وحيدة ككلبة مريضة حتى يأتيك ذاك المارد الجبّار، يعرّفك على نفسه. هو الزمن يا دلال، سوف

يعطيك درسًا سريعًا ومكثّفًا عن ماهيّته، عن وجوده الذي هو أقوى وأكثف من أيّ وجود. حتى الوجود الفعلي لكلّ ما حولك كنت غافلة عنه، وكان الزمن يتغلغل فيه، والآن! الآن لن يُفيدك الندم، هل تستطيعين إعادة العمر إلى الوراء؟ من ذا يعاند الزمن؟ هو يمضي باتّجاهاته كيف يشاء، وليس بالاتّجاه الذي نختاره. هل كان عليك أن تعيشي سباتًا غريبًا مثلك مثل أيّ حشرة في الكون؟ ألم يكن الأجدر بك أن تعيشي خلال الزمن يا دلال؟ أن تترفّعي فوق مساره وتمسكي لحظاته كلّها؟ لماذا الماضي؟ الماضي فقط كان زنزانتك يا دلال، كنت السجينة والسجّان والسجن، وها هو الموت يكسر قواعد اللعبة السخيفة التي لعبتِها.

لن أدع المقصّات تلامس بكارتي. لن أهدي بكارتي بعد كلّ هذا الانتظار إلى مقصّ، سوف أعيش مرّة في العمر مثلي مثل أيّ إنسان، مثل أيّ مخلوق وأيّ كائن من الكائنات وليس مثل إنسان فقط. سوف أمنع الموت من الاقتراب إليّ. سوف أحمي رحمي القابعة هناك دهرًا بحاله، في أكثر المناطق أمانًا، تنتظر أن تحمل الحياة، في غفلة منك يا دلال تورّمت وحبلت بالسرطان، بدلاً من أن تصنعي الحياة في أحشائك، أهملتها ليأتي الموت ويعمّرها. رحمك يتبرعم في ظلامها موت، سوف يولد الموت من رحم الحياة، استسلمي له، استسلمي لضعفك، أنت لا تستحقّين أكثر من الضعف. لا لن أسمح له، سأقاومه، سأعصر الحياة عصرًا في أيّامي القادمة، سأمسك بها من تلابيبها وأطوّعها لإرادتي، لرغبتي، سأجعلها تتكوّر في قبضتي، وأمسك بها، أحشرها بين فخذيّ، هنا يجب أن تكوني، هنا عليك أن تتفتّحي، أن تمدّي وشائجك إلى

العمق، إلى باطن الأسرار الخادعة التي غرّبتني كلّ تلك السنين. عليك أيّتها الحياة أن تذعني.

تغيّرت ملامحها أمام المرآة، اتّقدت عيناها ببريق حادّ، كانت تفيق في داخلها عزيمة ووعدٌ بالتحدّي. أمعنت النظر في عيني تلك الأخرى التي تواجهها من عمق المرآة، كأنّ سجالاً يدور بين المرأتين. في العمق امرأة تدين دلال، وفي الخارج تردّ دلال عليها. من منهما كانت تتوعّد الأخرى؟ من تريد أن تتغلّب على خصمها؟ إلى أين سيودي بدلال هذا السجال الذي استدرجتها تلك المرأة إليه؟ ابتسمت ابتسامة تحدٍّ، وراحت تتوعّد: صحيح راح أكثر عمري، لكن لا بأس، الباقي لي، سامعة يا دلال؟ الباقي صار من حقّي، لا شيء لأحد عندي، ثم من يعيش عن الآخر؟ أو من يموت بدلاً من الثاني؟ مرّت كلّ السنين وأنا أعيش من أجل الآخرين، كي يقولوا عنّي بنت عالم وناس، بنت مربّاية، بل كي يصفّقوا لأهلي، ويقولوا: الله يرحم الذي ربّى. لكن من شعر بي؟ من كان يعنيه كيف أعيش؟ كيف أمضي الليل وأنا في وحدتي؟ وحياتك يا دلال لن أتنازل عن الأيّام الباقية على حساب حياتي. أريد أن أعيش. سامعة؟ أعيش. أعيش. وأجهشت مرّة أخرى، دخلت نوبة من البكاء المرّ، وهي تتشنّج أمام المرآة، ترفع قبضتيها وتنهال على المرأة الأخرى، تهدّدها وتصرخ: أريد أن أعيش.

ـ ١٦ ـ

رغب جمعة بأن يمنح نفسه إجازة. قرّر ألّا يعمل أيّ شيء، خصوصًا أنّ الجوّ لطيف، وأصحاب الحمير والبغال في الحيّ اعتادوا أن يفلتوا بهائمهم عدّة مرّات في العام، في البرِّيّة القريبة، ترعى بمفردها، كما اعتادوا أن يكلّفوا اثنين من بينهم برعايتها.

ذهب جمعة إلى برهوم المبيّض ليطلب منه أن يترك الحمار في عهدته، كي يأخذه مع بغله إلى البرِّيّة. وبرهوم كان يسكن في الجهة الشرقيّة من الحيّ، يدور كلّ أحياء المدينة، يجمع الخبز اليابس، ويشتري الأغراض المستهلكة، وقد يتبرّع بها أصحابها له من دون ثمن. طيلة النهار ينادي «يلّي عندُه كراسي عتيقة، صوبيات عتيقة، أغراض عتيقة للبيع» ويعقبها بنداء آخر «يابس. يابس». يأخذ الأغراض المستعملة التي يقدّر أنّ بالإمكان الاستفادة منها، بإصلاحها، أو بتفكيكها وانتزاع القطع غير المستهلكة منها، ليبيعها بأسعار أفضل عند بعض المهنيّين المختصّين بإصلاح الأدوات المنزليّة. أمّا الخبز اليابس فقد كان يجمعه في أكياس من الخيش ويبيعه إلى مربّي الأبقار، ولعلّ هذا ما جعله ميسورًا بالنسبة إلى

البقيّة، لذلك استطاع أن يتزوّج منذ عدّة سنوات، قبل أن يكمل عامه الثاني والعشرين.

كان برهوم يفيض فحولة، وقد اكتشف باكرًا أنّ الزوجة للبيت والإنجاب، ليس بإمكانها أن توفّر له ما يشبع نهمه، خصوصًا أنّه رجل تعّيب كما كان يحلو له أن يبرّر لنفسه انغماسه بالمتع التي كان يعرف أين يلاقيها. طبيعة شغله التي تتطلّب منه الطواف في أحياء المدينة كلّها جعلته يعرف أسرار القاع الذي يقبع في العتمة، يعرف ذلك العالم الموازي للعالم الظاهر للناس جميعًا، الذي يجرف الجميع إلى دوّامته، فيجعلهم خرسًا وعميًا ومصابين بالصمم، كما يعرف أين يلاقي متعته على قدّ دخله. لم يكن متهوّرًا، بل كانت حساباته دقيقة، بالإضافة إلى موهبته الخاصّة بانتزاع إعجاب النساء به، ممّا كان يوفّر عليه الكثير من النفقات التي تحتاجها حياة كتلك التي يعيشها.

وصل جمعة أمام بيت برهوم، كان البغل مربوطًا إلى عمود بقرب البيت، بدون العربة، برقت عينا الحمار عندما رآه. توقّف جمعةِ قريبًا من البغل يمسك حبل الحمار، ونادى على برهوم، الذي ردّ مرحّبًا:

ـ أهلاً جمعة! أين أنت، لا أحد يراك، ولا يُسمع لك صوت؟

ـ جئت لأترك لك الحمار إذا كان بإمكانك أن تعمل معي معروفًا وتأخذه مع البغل إلى البرِّيّة، أنا عندي شغل آخر اليوم.

ـ تكرم عينك. لٰكن قل لي يا جمعة لماذا لم تتزوّج حتى

اليوم؟ ترى أنت لست صغيرًا، شُف منذ متى أنا سبقتك؟ صار عندي ثلاثة أولاد، وأنت ما زلت تنتظر. ما الذي تنتظره؟

ـ والله يا برهوم لم يحن وقتي بعد.

ـ طيّب لم يحن وقتك فهمناها، لكن لماذا تقبر نفسك في الحياة؟ امشِ معي لأعرّفك على حياة ثانية، فيها كلّ شيء يتمنّاه الرجال.

ـ أنا مرتاح هكذا. إنّما لي عندك هذا الطلب، أن تأخذ الحمار معك.

ـ تكرم.

كان أبو طافش والبغل في أقصى درجات السعادة، منذ مدّة لم يلتقيا، إنّما كانت هناك حالة من التخاطر بينهما، أمّا الآن وهما قريبان إلى هذا الحدّ، يشمّان روائح بعضهما بعضًا، فهذا بمثابة عيدٍ لهما، فكيف بعد أن يعرفا أنّ العيد الحقيقي في انتظارهما؟ بعد قليل سيكونان مع بقيّة العائلة، يسرحون جميعًا على هواهم في البرِّيّة، بعيدًا عن أهواء وأمزجة أولئك البشر غريبي الأطوار، متخلّصين من العربات والخروج واللُّجم، سوف يكونون أحرارًا معظم النهار. هذه النعمة لم يكن أبو طافش قد انتبه إليها، كذلك البغل، إنّما كانت تكفيهما الدقائق التي يقضيانها معًا حتى يشعرا بالغبطة، ويتبادلا الآراء حول وضعهما.

اقترب أبو طافش من البغل، الرأسان متلاصقان، شمّا بعضهما بعضًا قليلاً، كانت العيون تومض بلمعان يزيد من بريقه الدمع الذي تجمّع في المآقي. وبادر أبو طافش:

ـ ماذا تعمل في هذه الأيّام يا ابن أخي؟

ردّ البغل:

ـ حياتي مثل ما هي، أدور مع ابن الحلال هذا من الصبح للمساء، ليس هكذا فقط، في المساء يكون عنده أشغال ثانية، يفكّ العربة عنّي، فأقول في بالي جاء الفرج، يتركني آكل، ويخرج بعد قليل لابسًا ثيابًا أخرى، لولا قليل من انتباهي ما كنت أعرفُه، ثم يأخذني ويروح، شايف ها الزلمة؟ لا يشبع من النسوان، هو يتركني خارجًا مربوطًا على أيّ شجرة أو عمود، ويدخل إلى بيوت غريبة، في شوارع بعيدة عن الحارة، بيوت معتمة، لمّا يمرّ من باب الحديد، يختفي بالكامل، وأقعد أنا أنتظر، ليل، مطر، برد، رعد، عواصف، كلّه لا ينفع، أعرف أنّ عليّ الانتظار فقط، وحيدًا ومربوطًا على عمود، أو شجرة، لا أسلم من التعليقات، ولا العلقات أحيانًا. من الناس من ينهزني بشيء في يده، أو يركلني بقدمه، وأحيانًا إذا كان مع أحدهم عصا يناولني بها، هكذا من أجل لا شيء، لا أفهم لهم مزاجًا أولاد آدم أولئك. ممكن الواحد منهم أن يكون شاعرًا بالغبن أو الغيظ من شخص ما أو من مشكلة ما، أو قد يكون تعرّض لإهانة ولم يستطع ردّها، يحمل غلّه في صدره وينفّس عن غضبه بالتطاول علينا نحن المخلوقات المسالمة، لكن اسمع: أحيانًا أتمنّى أن أكون متحرّرًا من اللجام والحبل المربوط، لكنت أنا أيضًا أردّ عليهم الصاع صاعين، من منهم بقوّتنا يا عمّ؟ لكن من منهم أيضًا بصبرنا وجلدنا ونزاهتنا؟ بعد كم ساعة وأنا أنتظر، يطلع ابن الحلال هذا سكران ورائحة العرق تفوح منه، مبسوطِ ويتقافز مثل الأولاد الصغار، هو الذي لا يفوته وقت

صلاة في الحارة، أمام الناس الذين يعرفونه، لكنّ المشروب يغويه في هذه البيوت على ما أرى، فهو يخرج منتشيًا بالسعادة. يفكّني ويباشر معي بالكرباج، وقتها يصير مستعجلاً، وينك؟ أنا لا أرتاح ولا يوم إلّا يوم الجمعة، لأنّه لا يذهب إلى الشغل، هو يأخذني ويتركني مربوطًا قدّام الجامع حتى تخلص الصلاة. هناك أكون مبسوطًا لأنّي أرى كذا واحدًا من أولاد عشيرتي، جاؤوا مع أصحابهم إلى الجامع، يربطوننا متقاربين ويدخلون.

أطرق أبو طافش كأنّه يفكّر بكلام البغل، لكنّه كان لديه ما يشغله، راح يقلّب الأمر في رأسه، وبعد قليل أخذ يشتكي للبغل:

ـ أنا لست مبسوطًا. من فترة وجايي وأنا أشعر أنّ هناك شيئًا تغيّر في داخلي، صحوت فجأة وشعرت بالغرابة، كأنّي أواجه عالمًا آخر لا أعرف عنه شيئًا، كلّ ما أراه، أو يحصل معي يحيّرني، أنا أسأل حالي على طول، كيف؟ ولماذا؟ ما بقي شيء له طعم، الخلاصة أنا لست مبسوطًا، هناك شيء غريب يناديني، لا أعرف ما هو، لكن عندما ألتقي بأحد منكم يرقص قلبي وأشعر للحظة أنّي لاقيت نفسي، ثم أرجع وأتوه مرّة ثانية. أنا ضايع يا ابن الأخ، لا أعرف ماذا أفعل؟

بان على البغل تأثّره وقال:

ـ أنا أتمنّى أن أساعدك يا عمّ، لكن ما بيدي شيء أفعله لك. ثم هناك شيء شاغلني، أنا كنت أسأل نفسي أحيانًا أنّه إذا طلع بخاطر صاحبي أن يستغني عنّي، ما الذي يمكن أن أفعله؟ أين أروح؟ منذ اليوم الذي سمعته فيه يحكي مع صاحبك قدّام القهوة،

كانت بيده جريدة، قال له اسمع هذا الخبر إذا كان يهمّك: اخترعوا في أميركا بغلاً من الآلات، يحمل ويشيل كثيرًا، يحمل سيّارات ويطلع جبالاً، لا شيء يعصي عليه، وثمنُه غالٍ جدًّا، بمئات الملايين من كثرة ما يخدم، كلّ بغل من تلك البغال يشتغل محلّ مئة بغل. يعني لن يطول بنا الزمن نحن البغال حتى ننتهي، ما هي إلّا كم سنة ويستغني عنّا البشر، من يومها وأنا أفكّر وخائف على مصيرنا، خصوصًا أنّ حياتنا ارتبطت بالبشر، ولم نعد نعرف العودة إلى البرّيّة، ما رأيك؟ معي حقّ أن أخاف أم لا؟

ردّ عليه أبو طافش:

ـ معك حقّ تخاف، مثل ما معنا حقّ كلّنا، من يوم ما صار مصيرنا بيد البشر، لم يبقَ لنا محلّ في البرّيّة. أحيانًا أفكّر تفكيرًا عجيبًا، أقول إنّنا يجب ألّا نقاطع البراري، يجب أن نرجع ونحاول أن ندخلها ونعيش فيها من جديد، مع أنّي من ناحية الخوف، فأنا لستِ خائفًا، لأنّ البشر لا يملكون غنًى عنّا، هنا وفي المحلّات التي تشبه هذه البلاد، ألا تتذكّر كم باعوا منّا نحن الحمير والبغال إلى تلك البلاد التي فيها حرب؟ سمِّ معي لأنّي صرت أنسى قليلاً.

ـ قصدك أفغانستان؟

ـ أفغانستان، هذه هي، تعب مخّي من كثرة ما في أسماء للبلاد وما هي إلّا أرض واحدة. شُف ولك ابن أخي، طالما البشر يقاتل بعضهم البعض، سوف يبقى لنا محلّ بينهم، لكن اسمعني: أنا أكره هذه المحلّات، ما خصّنا نحن حتى يجرّونا إلى حرب ما لنا فيها؟ لماذا نموت بسببهم بدلاً من أن نموت ميتتنا الطبيعيّة؟

انتبه أبو طافش إلى أنّ جمعة يودّع برهوم، قطع حديثه مع البغل، مُصابًا بالدهشة وهو يراه يبتعد تاركًا إيّاه مربوطًا بجانب البغل، لكنّه بقدر استغرابه، كان سعيدًا، إذ لم يكن يحلم بأكثر من دقائق يمنّ عليه فيها صاحبه، فينعم بالقرب من ابن أخيه. ما الذي حصل حتى تركه جمعة وذهب؟ هل يريد الاستغناء عنه؟ هل باعه إلى برهوم؟ ظلّ الأمر مبهمًا بالنسبة له، لكنّه فكّر في دخيلته بأنّه سوف يحزن إذا ما فارق جمعة، هو لا تهون عليه العشرة، ثم هو لا يبدّل صاحبه إلّا في حالة وحيدة، فيما لو تحقّق حلمه، أمّا أن يستبدل آخر به فهذا أمر لا يخطر بباله، كما لا يتمنّاه.

انطلق جمعة متحرّرًا من همومه، كان هذا اليوم يومًا استثنائيًّا، لم يشعر قبله إلّا في مرّات نادرة بمثل هذا الشعور. كان خفيفًا كما لو أنّ له جناحين يخفقان استعدادًا للطيران. انطلق يخفق على ساقه القصيرة، التي لم تنتقص من شموخه أو كبريائه، شعره يطير مع خطواته العجلى، يريد أن يمشي ويمشي من دون وجهة، فقط يريد أن يضيع مع العالم، أن ينفلت خارج الدائرة التي تدور به كالرحى منذ أن وعى وجوده إلى اليوم. كان سعيدًا لأنّه يمشي من دون حبل يلفّه حول معصمه، يجرّ به مخلوقًا ارتبط مصيره بمصيره، كما ارتبطت حياته بحياته. لأوّل مرّة يشعر بأنّ هناك عالمًا آخر كان مختبئًا في مكان ما خارج مجال وعيه، لم يكن منتبهًا إليه، وهو الآن يشعر بأنّ هواءً آخر يخترق رئتيه، وسماءً أخرى تنشر أمامه أفقها، وبحرًا آخر يدعوه. شعور جديد استعذبه جمعة، فانطلق عازمًا على أن يلاقي البحر من الطرف الآخر، قرّر أن يتوجّه إلى منطقة الشاطئ والمريديان، حيث لم يكن يصل مع حماره إلى

هناك، كما عزم على أن يقطع المسافة على قدميه، لن يركب السرافيس التي توصله إلى المنطقة، هو لا يريد أن يصل إلى هدف واحد، بل يريد أن يمشي في الدروب كلّها ويعيشها أيضًا.

نزل من ساحة اليمن باتّجاه سوق أوغاريت، قاصدًا الكورنيش الغربي. هو لا ينوي المرور في شارع الجمهوريّة في أوّل المشوار، لم يكن غائبًا عن باله المرور أمام البيت الذي سحرته حكاياته المختبئة في خياله، لكنّه أجّل الوقوف إلى نهاية نزهته. أدهشه العالم الذي يغرق فيه طيلة السنين الماضية وهو ساهٍ عنه، كانت حياته تتخلّق في داخله فيما مضى، بين جدران صمته وعزلته، يقطّعها إلى مسافات بين الحاويات التي تكرّ كحبّات المسبحة، لينعقد خيطها في نهاية يومه أمام الزريبة وهو يرفع الخرج عن حماره، يضع أمامه التبن، ويغلق الباب ويمضي إلى أفكاره وأحلامه مرّة أخرى. لم يكن ينتبه إلى تلك التفاصيل الصغيرة العفويّة التي تمور بها الحياة، بدا كما لو أنّه غريب في بلاد من العجائب، عجائب ليست إلّا صورًا اخترقت ساحاته البصريّة في غفلة منه، وهي الآن تقفز أمامه كالأحاجي.

قبل أن يصل إلى سوق الخضرة بمسافة طويلة، بدأت تخترق أنفه رائحة تزداد كلّما اقترب أكثر، كانت الرائحة تذكّره بالحاويات. انطوى على استيائه حتى صار على مشارف السوق، وابتدأ المشهد يزداد كثافة وحضورًا. كانت أمامه حاوية كبيرة، حاوية لا تقف عند حدّ، تنمو في كلّ الاتّجاهات، تنبع من سراديب السوق، تغزو الأرصفة، تتمادى إلى الشارع، حاوية هائلة

تستوعب وتفيض، غنيّة بتنوّع نفاياتها، يجلّلها الضجيج بهالة لا يمكن إدراكها، صراخ الباعة، كأنّهم في سباق محموم، أصوات الزبائن وهم يجادلونهم، زمامير السيّارات التي تعترضها في كلّ لحظة أفواج الناس الذين يتنقّلون محمّلين بالأكياس بين رصيف وآخر يقابله، المياه المتدفّقة من أمام بيّاعي السمك المبرّد والمكوّم في صناديق الفلّين الاصطناعي فوق كتل الثلج، والتي تشكّل بركًا صغيرة تنعكس منها ألوان قوس قزح. فكّر في نفسه كيف يكون قوس قزح في السماء عند انجلاء الغيم بعد إمطار كثيف، وكيف يتلوّى الآن بأطيافه على سطح هذه البرك الآسنة؟ لماذا هو جميل هناك في السماء، وقبيح هنا؟ هي الألوان نفسها، لكنّ شيئًا ما ينسلّ من تحتها يجعلها قبيحة.

أحشاء الذبائح المعروضة على أرض الأرصفة تنزّ منها سوائل غريبة، رؤوس المواشي المصفوفة أمام المحلّات ترمق المارّة بعيون مجوّفة، كما لو أنّها تفتح على خواء يهمّ بالابتلاع، تفترش بقعًا من الدماء التي توشك أن تجفّ، تلمع بلزوجة الموت، الدجاج المذبوح والمقطّع المعروض مكشوفًا أو في برّادات زجاجيّة، أو تلك الدواجن الحيّة في أقفاصها تنتظر دورها تحت السكاكين، تفوح منها روائح وأبخرة نافذة، تلال من نفايات الخضار الورقيّة تختلط مع تراب الزرع الذي اقتلعت من أرضه، تلمع فوقها البزّاقات، تتراكم فوق أنقاض زبالة اليوم الفائت، أوعية الجبنة البلديّة التي تصطفّ على أطراف الرصيف، تجلس خلفها بدويّات بانتظار فراغها والعودة بها ليملأنها في اليوم التالي. حاوية أكبر من استيعاب جمعة الذي يمشي كغيره متمهّلاً، يحاذر انزلاقه

فوق الأرض المغطّاة بهذا الهلام المستحيل، يهشّ الذباب الذي يبدو كما لو أنّ شيئًا أصابه بجنون جماعي، ربّما من فرط الخير أمامه لا يجد مكانًا يستريح فيه إلّا الوجوه الآدميّة. استعجل جمعة عندما صارت الأرض أكثر أمانًا بالنسبة لخطواته. لم يستطع تحمّل هذا الكمّ من الزبالة النوعيّة، التي تحمل أعلى معايير الجودة. تذكّر حماره، شعر بحنين إليه: وينك يا أبو طافش؟ لو أنّك ترى ما أراه كنت ستجنّ، لكنّي متأكّد أنّ نفسك تأنف الاقتراب من مزبلة كهذه. صحيح عشنا عمرًا أنت وأنا على حدود المزابل، إنّما ليس بالطريقة هذه. عندما كنت أنبش الزبالة كنت أحرص على ألّا أبعثر الأوساخ حول الحاوية، وكنت ألعنُ الناس الذين لا يحملون لا ضميرًا ولا وجدانًا، ويخلطون الزبالة مع بعضها. تعال شُف بعينك إذا كنت غير مصدّق. يلعن ها المصلحة من أساسها، لا أعرف كيف حلّاها أبي في خاطري منذ أن كنت صغيرًا، جعلني أحلم بعالم آخر وهو يحكي لي عنها: يا ابني هذا الشغل لا يلزمه تعب كبير، ولا يحتاج إلى مال حتى تبدأ به، ثم هو شغل حلال، أنت لا تعتدي على أحد، كما أنّك لا تغشّ أحدًا، عدا أنّك يمكن أن تلاقي لقيات فيها. والله ما شفت بالنتيجة غير أنّها عالم ثانٍ لا يوجد من هو منتبه إليه، عالم يفضح البشر، لكن ما يجعلهم مطمئنّين فيه أنّ الطاسة ضايعة، لا أحد يفتضح لوحده، الزبالة يشبه بعضها بعضًا، هي تريك أنّ الناس أيضًا بعضهم مثل بعض، يأكلون ويشربون ويلبسون بالطريقة نفسها، بل يمكن أنّهم أكثر من ذلك، يفعلون أشياء أخرى بالطريقة نفسها، ثم يرمون زبالتهم بطرق متشابهة، هكذا هي حياتهم، وهكذا يفكّرون ويتصرّفون.

استعجل جمعة كمن يهرب من المشهد قبل أن يتمكّن منه شعوره وهو يعبر السوق، فهو لا يريد ليومه أن يتأثّر، سوف يعيشه كما يرغب. نازلاً باتّجاه الكورنيش، اجتاز ساحة السمك القديمة وصولاً إلى شارع بغداد. كان عمّال النظافة يركنون عرباتهم التي تحمل كلّ واحدة منها برميلين ومكانس بعصيّ طويلة، يكنسون، ويلمّون أحيانًا بأيديهم بعض النفايات، والمارّة يلقون خلفهم على الأرض ما انتهوا منه في أيّ لحظة. انتبه جمعة إلى بعض السلّات المعلّقة على أعمدة الكهرباء أو المركونة أمام بعض المحلّات، مكتوبٌ عليها عبارات متنوّعة لها علاقة بالنظافة، قرأ إحداها «حافظ على النظافة»، ثم بعد قليل قرأ على أخرى مدلّاة من العمود، وتكاد أن تصل الأرض «البلد بلدك». عند هذه العبارة توقّف، كيف الواحد يلزمُه من يذكّرُه بأنّ البلد بلدُه؟ صحيح أنا أنبش بالزبالة، لكن والله عشقت هذه البلد، أدور وأمشي فيها، ولمّا أرجع إلى البيت أحلم بالغد كي أرجع أشمّ هواءها وأشوف بحرها، وألمّ بطريقي كلّ شيء أقدر عليه من الوسخ المرمي هنا وهناك وأحطُّه بالحاويات، والله قلبي يبكي لمّا أرى السلال المنزوعة، واللمبات المكسورة، أم هذه المياه السارحة في الشوارع والناس يلوبون على قطرة منها أحيانًا، لماذا حال الناس على هذه الشاكلة يا جمعة؟ لماذا الوسخ يحيط بنا من كلّ جهة؟ في المدرسة كان الآذن يقعد ويبيعنا تلك الأشياء الغريبة، يترك الشغل، والوسخ يتراكم في الباحة والصفوف، غير المراحيض التي رائحتها تقتل، كأنّه دخل الوظيفة حتى يفتح الدكّان في المدرسة. أم لمّا رحت حتى آخذ الهويّة، كم كانت الدوائر

وسخة! كان الناس يرمون كلّ شيء على الأرض؟

كانت السلال معظمها فارغة، والأرض تحتها مغطّاة بالبقايا، وبعضها مخلوع ومعلّق بطرف صغير كما لو أنّه قيد السقوط. صار يراقب الناس، أولئك المختلفين بأزيائهم العصريّة، أو التقليديّة، بحركتهم التي لا تهدأ، منهم من يتكلّم على الخلوي، ومنهم من يحمل حاسوبه بيده، تلك الأشياء التي حلم جمعة بأن يقتنيها، ويضحك في سرّه بأسى من أحلامه المستحيلة، بل أولئك الذين يركبون سيّارات فاخرة، كلّهم متشابهون، كلّهم يرمون الأشياء التي فرغوا منها إلى الشارع، الشوارع كبيرة، واسعة تستوعب كلّ شيء، وهذا الرجل الذي قارب الستّين من عمره، يقرفص مستندًا إلى حائط البنك الجديد، مسندًا عصاه إلى جانبه، وعربته أمامه على حافّة الرصيف، تعب من كثرة ما ثنى جذعه وعلّاه وهو يلمّ الأوساخ من الطريق ويرميها في عربته، منح نفسه قسطًا من الراحة، التي يمكن أن تخترقها دوريّة مصلحة التنظيفات التي تراقب الزبّالين، فيتعرّض هذا العجوز لعقوبة يمكن أن يُخصم معها جزء من مرتّبه.

على الكورنيش الغربي أشرف جمعة وهو نهب أفكاره. كان المتحف على يمينه، وعلى يساره مدرسة الكرمل. بناءان متشابهان، ينتميان إلى المرحلة نفسها، صحيح أنّهما من بقايا الاستعمار، لكنّ بناءهما جميل، وحدائقهما أجمل بأشجارهما الوارفة. وشعر جمعة بنفحة من الراحة، تنسّم نسيمًا استطابته نفسه، خصوصًا وهو يجتاز الطريق إلى الجهة المقابلة، حيث

تترامى حديقة المنشيّة، بأشجارها الظليلة، وأرضها المعشوشبة، تمهّل أمامها، أشعل سيجارة وراح يتأمّلها. زمانًا كان يأتي مع والده إلى الكورنيش، كان أبوه يتركه يلعب في حديقة المنشيّة ريثما يدخل جامع البطرني ويصلّي صلاة المغرب. الجامع قريب من البحر، يفصل الحديقة عنه، يضمّ ضريح أحد الأولياء، تذكّر جمعة أنّه لم يدخل الجامع ولا مرّة مع أبيه. كان سحر اللعب في الحديقة مع بقيّة الأولاد وتحت أغصان الشجرات الكبيرة يجعله متشبّثًا بالبقاء فيها. محاذيًا لسور الحديقة مشى متمهّلاً، اجتاز الكازينو، وتابع يمجّ سيجارته، وبدأت كتل الحديد ترسم المشهد أمام عينيه، وبدأت معها رائحة معدنيّة تغزو أنفه. مشى الكورنيش بطوله وهو يتأمّل بشاعة البحر من هناك، رافعات تخترق السماء، حاويات على الأرض، بواخر تترامى على صفحة البحر، قطار يمرّ في الأسفل يجرّ عربات خلفه، وأشفق على البحر، وشعر باضطراب، فجأة أخذت تنقر ذاكرته تلك الصور التي وسمت طفولته، عندما كان يستطيع أن يتنصّل من رحلة الزبالة اليوميّة مع والده، ويأتي مع صبيان الحارة صغارًا إلى مسبح فارس، يلهون في الماء مثلما لو أنّهم غرباء عنه. كانوا يظنّون أنّهم يسبحون في بلد آخر وبحر آخر، البحر هنا كان مختلفًا عن البحر المتاخم لبيوتهم، حتى العالم المشرف على هذا البحر غير عالمهم، لكنّه اليوم، بعد أن شوّهوا ذاكرته، لم يعد يشعر إلّا بوخزة ألم عميق في صدره. تذكّر بحره هناك، حيث يطيب له أن يخوض في الماء ويمشي نحو صخرته الصغيرة، يمكنه لو حاد بنظره قليلاً أن يرى أفقًا بلا حدود، إذ تصبح قبيلته على يساره، ويبقى المدى أمامه، يدعوه نحو أحلام

كان ينسجها ويُعيد حبكتها كلّ مرّة ببدعة جديدة. أمّا البحر هنا فيدعو إلى الشفقة بقدر ما يثير النفور.

وكأنّما غاب عن المدينة، أو كأنّ المدينة اختبأت في حكاياتها، فأخذ يبحث عنها أبعد وأبعد. ولم ينتبه إلى نفسه إلّا قريبًا من الخليج الصغير الذي تشغله بعض المسابح، وقد نفر بينها بناء ضخم يضمّ فندقًا ومطاعم ومسابح وساحات ألعاب، يحوطه سور كبير يزنّر ساحة واسعة تحيط بالبناء، تنفتح على الخارج بباب كبير تنزلق منه السيّارات الفخمة إلى حرم المنتجع. توقّف على مشارف المسبح اليميني قبل المنتجع الكبير. لم يسمحوا له بالدخول لكون المسبح عائليًّا، وقف على حدوده وراح يتأمّل الخليج الصغير بمائه العكر، تطفو على سطحه أجسام غريبة بين الأجساد التي تعوم فيه. كان الناس يسبحون بين البقايا، وعلى الرمال تتبرقع الأرض بالأجساد المستلقية، أو الجالسة على كراسٍ بلاستيكيّة، وقشور الفواكه وأكياس النايلون المتطايرة على وجه الأرض. أغاظه المشهد، تخيّل نفسه، وهو يعمل كلّ يوم بنبش الزبالة. تخيّل لو أنّه مضطرّ للخوض في تلك الأشياء المتناثرة على مساحات كبيرة، لا بدّ أنّ الوضع سيتعبه كثيرًا.

وصل به النفور وبلبلة الأفكار إلى أن فترت همّته بمتابعة طريقه. ليس هذا هو المشوار الذي حلم به، كان في البداية توّاقًا أكثر ليومه، لكنّه غرق في التفاصيل الصغيرة التي لها علاقة بشغله من دون أن يقصد ذلك، فامتلأ بالبشاعة وهو الذي كان يعوّل على مزاجه المنفتح لملاقاة نهار مختلف. قرّر الانعطاف والعودة، اكتفى بوصوله إلى هذا الجزء من طريق المنطقة السياحيّة، وعاد أدراجه

تحدّق به التفاصيل نفسها بعيون تتبدّل ألوانها فقط. التفّ من عند دوّار الأزهري إلى بداية شارع الجمهوريّة، فتبدّل شيء في دخيلته، الشارع الذي يمرّ به كلّ يوم، لسنين خلت، يبادره اليوم بطريقة مختلفة، يقصده جمعة من نهايته الأخرى، وحيدًا من دون حماره، وشعر بأنّ هذا الشارع بالتحديد ينقصه شيء بغياب أبو طافش. تذكّر مهنّا، لا بدّ أن يراه، وسوف يسأله عن الحمار، أراحه بعض الشيء تذكُّر مهنّا، بل تذكُّر الحمار، إذ أدخل شيئًا من الحميميّة إليه، ونحّى نفوره من الشارع جانبًا، فأخذ يغذّ السير مستعجلاً لملاقاته، وشرب زجاجة من المياه الغازيّة عنده، بعدما أحسّ بالعطش بعد مسيره الطويل. عندما خطر مهنّا على باله جرّ معه ذكرى ذلك البيت الذي يشغله التفكير به. لا بدّ أن يتطرّق الحديث إلى سيرته، إنّما لم يكن جمعة عازمًا على السؤال عنه، برغم شوقه إلى معرفة تفاصيل إضافيّة. هو لا يريد أن يلفت نظر مهنّا إلى اهتمامه الذي لا يعرف سرّه. ما من داعٍ على الإطلاق لأن يطّلع مهنّا عليه.

عندما وصل إلى القرب من البسطة، كان مهنّا جالسًا على كرسيّه كالعادة، مباعدًا بين فخذيه ليفسح مجالاً لكرشه كي تلاقي مكانًا تحتويه. تبدّى إلى جمعة وكأنّ الكرش تزداد امتلاءً وترهّلاً، كما وجنتاه اللتان انتفختا وتدلّتا إلى الأسفل باتّجاه الصدر، بدا منظر مهنّا مضحكًا، لكنّ جمعة لم يضحك استهزاءً، إنّما ضحك سعيدًا بملاقاة صاحبه بظروف تختلف عن كلّ يوم، حتى مهنّا أشرق عندما شاهده، وضحك عاليًا، وهو يناديه:

ـ أهلاً. أهلاً والله! وجهك أم القمر؟

ـ كيفك اليوم؟

ـ أنا كيفني أم أنت؟ ما هذه المفاجأة يا جمعة؟ والله كدت ألّا أعرفك، أين حمارك؟

ـ تركتُه في الحارة عند برهوم، اليوم للراحة.

ـ لماذا؟ معيّد اليوم؟

ـ لا. لكن نحن كلّ كم شهر نفلت البهائم لترعى في البرِّيّة، واليوم الجوّ مناسب، لذلك قلت في بالي أذهب وأتمشّى لأرى البلد بلا الشغل، وجئت حتى أسلّم عليك.

ـ أصيل يا جمعة، ماذا تريد أن تشرب؟

ـ كازوزة.

ـ أعرف. هل عندي غير الكازوز والماء؟ تريدها سودا أم ليمون؟

ـ ليمون لو سمحت.

ناوله مهنّا الكازوزة، وتابع الحديث بشيء من الأسى:

ـ بعد كم يوم لن تراني في هذه الجهات يا جمعة.

ـ خير إن شاء الله؟

ـ المعلّم نقلني إلى محلّ ثانٍ بعدما تعوّدت على هذا المكان، وكنت أنتظر الكشك. بالظاهر يا صاحبي لم يبقَ ما يهمّهم في هذا المكان، لا أخفي عليك، كانوا يطلبون منّي تقديم معلومات على الدوام، وأنا كنت مضطرًّا، مع أنّ الأمر لم يكن يروق لي، لكنّ

رزقي في هذه البسطة، وكنت أحلم بالكشك، قالوا لي: سوف ننقل لك البسطة. وكفى. أنا من غيرهم ما عندي شغل.

ـ الله يوفّق، لكنّني سأحزن على غيابك.

ـ أعرف. لكن سأبقى أراك، كما سأدلّك على محلّي الجديد. تعرف يا جمعة أنّ البنت العازبة التي تعيش في ذاك البيت الذي سألتني عنه من فترة، بعدها ساكنة فيه، من كم يوم شفتها طالعة منه وأنا آتٍ إلى البسطة الصبح، كانت تقفل الباب بالمفتاح، لا أدري لماذا تعاطفت معها هكذا مع أنّ قلبي جامد. أنا أعرف نفسي.

ارتبك جمعة عندما سمع بسيرة البنت والبيت. أحسّ أنّ مهنّا يقرأ أفكاره، ربّما لأنّه يعرف تلك الموهبة التي يتمتّع بها مهنّا من أوّل عهده به، قدرته على استنطاق الآخرين وجمع الأخبار عن أيّ أمر. حاد بنظره قليلاً كي يغطّي على ارتباكه، تلهّى بشرب ما تبقّى في زجاجة المياه الغازيّة، مظهرًا تمتّعه بها كحركة امتنان تجاه صاحبه، ثم نهض ليتابع مشواره أمام إلحاح الآخر عليه كي يبقى مدّة أطول، لكنّ جمعة تلهّف ثانية مستعجلاً وصوله أمام ذلك البيت، بعد أن عرف أنّ صاحبة الأوراق ما زالت على قيد الحياة، وأنّها ليست شبحًا أو طيفًا يرسم هو ملامحه في غفلته وفي سرّه.

وصل أمام البيت، كانت قد تبلورت الصورة في مخيّلته في طريق العودة، لا ينقصه إلّا الشجاعة لخوض التجربة. تردّد كثيرًا قبل أن يصل، إنّما لهفته جعلته مسيّرًا بإرادة خفيّة نحو هدفه، وقف أمام الباب، انتظر وقلبه ينتفض من الإثارة والترقّب. هو مقدم على مغامرة، لا يمكن له أن يتكهّن بردّة الفعل التي سيواجهها، حتى لا

يمكنه الجزم أنّ صاحبة الأوراق هي التي ستفتح الباب، أو حتى أن تكون موجودة أصلاً، لعلّها في الأساس شخص شبحي، ربّما لم توجد البتّة، ربّما وربّما، كثيرة هي الاحتمالات، لكنّه سوف يطرق الباب، وليكن ما يكون.

فُتح الباب، لم يفتح على مصراعيه، بل بحذرٍ انفرج قليلاً، بانت قمّة رأس أنثوي ثم عينان زائغتان، ثم اتّسعت فتحة الباب أكثر لتظهر امرأة نحيلة القوام قليلاً، ترتدي منامة فضفاضة، تشفّ قليلاً عن جسد كسول، حافية القدمين على بلاط أبيض. تبدّلت نظرتها كأنّما انتبهت إلى نفسها، فصارت أكثر حضورًا، في عينيها نظرة استغراب وسؤال. تلعثم جمعة، سألها:

ـ مرحبًا. هذا بيت الحلواني؟

ـ ماذا تريد؟

ـ عفوًا أختي، أنا منذ فترة لاقيت كيس أوراق، فتحته وشفت فيه هذا العنوان، استدللت من كم يوم على البيت، لكنّي تأخّرت قليلاً. لا تؤاخذيني، أنا أساسًا تأخّرت حتى تذكّرت الكيس، وانشغلت بعدها، لذلك لم أستطع المجيء.

اشتعل بريق في عيني دلال. لم تصدّق أنّ الأوراق يمكن أن تعود إليها ثانية، لكنّها لا تدري إن كانت لهفتها بسبب الشوق إليها، أم لغاية أخرى تستبطن أعماقها. لقد أثارتها اللقية فقط، ربّما لأنّها أوراقها الخاصّة، عالمها السرّي الذي يجب أن يبقى سرِّيًا، وهي التي تقرّر كيف ومتى تتلفه، أو تشعل الحرائق فيه.

ـ أين الكيس؟

سألته وهي تنظر إلى يديه الخاليتين، ثم تعود إلى النظر في عينيه، فترتبك، ويربكها أكثر أنّها أدركت ارتباكها.

ـ لا تؤاخذيني. أنا كنت مارًّا من هنا فتذكّرت الكيس، لكنّني لم أكن وضعت في حسابي أن أمرّ اليوم. الكيس في البيت، في أيّ وقت تريدين، أوصله إليك.

ـ غدًا. غدًا مساءً.

قالتها بلهفة لم تغب عن انتباه جمعة، صوتها الراجف مع اختلاجة سريعة بشفتها العليا، مع البريق الخاصّ الذي شعّ من عينيها، حرّضت شيئًا في داخله، لم يقوَ على البوح به أمام نفسه. وعدها بأن يكون في مساء الغد والكيس بحوزته، وانسحب مسرعًا يهبط الدرجات الأربع أمام الباب، مخلّفًا إيّاها تمسك الباب بيدها وتشيّعه بنظرها، وهي تفكّر بأمر ما.

أغلقت الباب، ووقفت خلفه كمن يستعيد المشهد، وينسخ منه عدّة نسخ، فيما لو أتلفت الذاكرة إحداها كان هناك البديل، هي لا تعرف بالضبط ما الذي اعتراها، شيء يشبه اللهفة، الحنين، الرغبة، الشوق، الشهوة، لا تدري ما هو، إنّما تعلم تمامًا أنه الارتباك أمام رجلٍ وقف ببابها من غير موعد، ولم تنتظره، بعثرها على مساحة اللحظة في غموض لذيذ، أو بالأحرى بعثرها أمام نفسها التي تكابر في أمر مصارحتها.

مشت إلى الصالون، وقفت في مركزه وأخذت تتناهبها الأفكار. لم تكن تحتمل في تلك اللحظة التورّط في التفكير بمرضها، مرّت عليها ليالٍ طويلة في الأسبوع المنصرم، وهي تنهش

أعماقها بالهواجس التي هجمت عليها كقطيع من الوحوش الكاسرة في حملة صيد، تشعر أنّها على سباق مع أمرٍ يختفي في غياهب تفكيرها المبلبل، خاصّة بعدما طردت الخادمة وأمست وحيدة في أكثر لحظاتها ضعفًا. على الأقلّ كانت الخادمة تجعلها تشعر بنبض الحياة وهي تجول في البيت، تجرّ الأثاث، تفتح صنابير المياه، تفتح الأبواب وتغلقها، تفوح روائح المساحيق في البيت. كلّ تلك الأشياء كانت تكسر حواجز الصمت الأخرس في البيت، فتشعر دلال بشيء من الأمان، وتفلت قليلاً من سطوة التفكير بالموت. لكنّها الآن صارت وحيدة بين جدران خرساء تتعلّق عليها صور الموتى، وهي تستفيق متأخّرة على الحياة. الفراغ يكاد أن يبتلعها، تشعر أنّها تنكمش وتتضاءل حدّ عدم قدرتها على التوازن، كأنّ ثقلها تبخّر فأوشكت أن تستحيل إلى ريشة في مهبّ الريح. يزداد الصفير حولها، تلتفّ بها الزوبعة، تستعر النيران في أعماقها معها. النيران تكاد تأكلها في الداخل، لا تريد أن تحترق، كما لا تريد أن تتجمّد، هي ترغب بالحياة، بدفءٍ افتقدته على الدوام. النار تزداد توهّجًا ودلال تزداد اضطرابًا، وها هي تدور على نفسها في البيت، تمشي من غير وجهة، تفتح الأبواب وتغلقها، تجانب الجدران وترتمي في الوسط، والوهج يشتعل في وجهها، ينزل إلى عنقها، إلى صدرها، يتمادى نزولاً حتى بطنها، يتمادى أكثر فتهرع إلى المرآة وهي تتعرّى، تخلع عنها أثوابها بيدين متعجّلتين وأنفاسٍ تلهث وتقف أمام المرآة، يثيرها عريها أكثر، تتمادى يدها على الجسد الملتهب، تحترق وتُحرق، تغيب بين اللذّة والألم، وتشهق نشوة ثم ترتمي على الأرض.

ـ ١٧ ـ

زمانًا، قبل سنوات عديدة، انفتح الباب مواربًا، وانزلق من فتحته شبح ابتلعته العتمة بسرعة، لينغلق الباب ثانية. وألفى حمّود نفسه في وسط البهو الأخرس الذي تتوزّع على جدرانه أبواب عديدة كلّها مغلقة. رائحة غريبة غزت أنفه، هي خليط من روائح أجساد بشريّة، وعرق، تتغلغل مع روائح مساحيق رخيصة، ورطوبة معتّقة، شعر بأنّها تشبه قليلاً الرائحة التي ألفها منذ زمان، رائحة البغل الذي كان يرافقه منذ الفجر، يدور معه أحياء المدينة، تحت سطوة الشمس الحارقة، حيث كانا يغتسلان بعرقهما. سرت في كيانه تلك الرائحة كالدفء الناعم، أخذ يتوهّج بالتدريج، فيؤجّج نيران رغبته المكبوتة منذ أن بدأت دنّورة تضمر وتنسحب من الحياة. وقف في منتصف البهو مخبولاً تحت سطوة انفعالاته الطارئة، يرتجف في غمرة الاتّقاد الذي تزداد ضراوته في كيانه، صار مستعجلاً، لا يطيق الانتظار أكثر على أعتاب اللذّة المتلهّفة، لكنّه لا يعرف من أين يبدأ. أخذ يجول بنظره على الأبواب المغلقة. راودته نفسه في أن يقتحم أحدها، لكن ماذا لو كانت

الغرفة مشغولة؟ هل سينجو من اللوم بعدها؟ هل سيجد مكانًا له في هذا البيت الذي يخزّن بين جدرانه وعود المتع المنشودة؟ بينما هو سارح مع خيالاته التي تزيّن له ما ينتظر، فُتح الباب في صدر البهو، ظهر من خلاله رجل أومأ إليه من دون أن ينبس بحرف، بأن يأتي، فمشى باتّجاهه. تنحّى الرجل جانبًا وتركه يدخل ثم أغلق الباب خلفه، وغادر البهو من باب آخر. مرّت لحظات قبل أن يألف حمّود المكان الغارق في ظلال الأشياء تحت الإنارة الخافتة التي تنبعث من لمبة باهتة تتدلّى من السقف، جدران باهتة ترسم عليها الرطوبة أشكالاً متداخلة، ورائحة تبغٍ معتّقة تنبعث من كلّ الزوايا، يستند على الحائط اليميني خوان عتيقٌ يغطّيه بساط مهلهل، تقابله كرسيّان من القشّ، تتوسّط المسافة بينهما طاولة منخفضة عليها منفضة نحاسيّة. نادته المرأة الجالسة في صدر الغرفة خلف طاولة يغطّيها شرشف مشجّر، وهي تعدّل من وضع الفحمات فوق رأس النرجيلة أمامها، وتحرّك المشرب في زاوية فمها:

ـ تعال، ما لك واقف مثل اللوح؟

انتفض من اللهجة التي خاطبته بها، هو لم يتعوّد على أن يكون لدنّورة صوت يعلو في وجهه، فكيف بلهجة كلهجة تلك المرأة؟ اعتراه انفعال شديد، جعل الدم يفور في عروق رأسه، أخذ قلبه ينبض بسرعة، وانقبضت أصابعه كما لو أنّه ينوي أن يلكم بيديه، فأخذ يكزّ على أسنانه، مطبقًا شفتيه على سيل من اللعنات والشتائم الفاحشة. لم يتقدّم خطوة واحدة، بل بقي راسخًا كالصخر في أرضه، تأكله رغبات شرسة، هو يريد أن ينتقم لكرامته المهانة من تلك البدينة التي تجرّأت عليه. هو يعرف أنّها صاحبة البيت،

وربّة العمل فيه، وكان أحد الرجال في الحارة قد حدّثه عنها، ووصفها بنعوت متنوّعة رسمت صورتها في باله. حمّود يعرف مدى سطوتها وفجورها إذا اضطرّ الموقف، فهي تعرف كيف تلوي أعناق الرجال من دون أن يكلّفها ذلك مغادرة مكانها حتى، فهم يأتون صاغرين إليها، تدفعهم غريزة لا ترتوي، بل يأتون وهم مستعدّون لبذل آخر ما لديهم من أجل الفوز بلحظات اللذّة التي تناوشها خيالاتهم في لياليهم. لكنّ الرغبة الأخرى تشتدّ ضراوة في أعماقه، بل تتكوّر وتتكاثف وتهوي إلى الأسفل، تمسك به من بين فخذيه، فتشلّه عن الحركة، وتبدأ ساقاه بالارتجاف.

تأمره المرأة كأنّها قرأت ما بداخله:

ـ اقعد على هذا الكرسي. أنت أوّل مرّة تزورنا، صحيح؟

تلعثم حمّود بصمته، فبقي ساكتًا. قالت المرأة:

ـ بسيطة! كلّكم تكونون مرتبكين أوّل مرّة، غدًا تتعوّد. قل لي ما هو طلبك؟

كذلك لفّ الخرس لسانه، فجلجلت ضحكتها في فراغ الغرفة، وصفّقت بيديها ثلاث مرّات، فانفتح باب جانبي ودخلت منه صبيّة قاربت العشرين من عمرها، تلبس ثوبًا أحمر شفّافًا، يكشف عن كتفيها العاريتين، وينتفض ثدياها تحته من دون حاملة تلمّهما. ينساب شعرها الأسود مسترسلاً يكاد يلامس خصرها. تنفرج شفتاها عن أسنان بيضاء، وتتدلّى شفتها السفلى قليلاً، تلعقها بين حين وآخر بلسانها على مهل كأنّها تتسلّى بها، وعيناها نصف مغمضتين وهي تستند على طاولة المرأة التي تمسك بمشرب

النرجيلة مشيرة إليه وهي تأمرها:

ـ شوفي ها الآدمي ماذا يريد.

كان الآدمي حمّود قد فارق ذاته، متعربشًا على برج المجد الفاتن أمامه، ابتداءً من المؤخّرة البارزة، وقد شفّ الثوب عن ملتقى الإليتين النافرتين بتمرّد من دون سروال داخلي يلمّهما. رفعت الصبيّة يديها عن الطاولة، انتصبت، واستدارت بغنج متمهّلة باتّجاهه، وقفت قريبًا جدًّا منه، كادت أن تلامسه، فأخذ يضطرب ويلهث، فاغرًا فاه، يكاد يخترق جسدها بعينيه، ومالت عليه حتى التصق فمها بخدّه، وهمست في أذنه:

ـ أنت أُمُرْ.

لم يبقَ عنده طاقة ليأمر، شعر أنّه يذوب ويتلاشى بين نهديها القريبين من منخريه يرسلان روائح لا تمتّ إلى النساء الآدميّات، هي روائح الجنّ بكلّ تأكيد يا حمّود. شعر بأنّ منخريه يتّسعان، تتقلّص جدران فوهتيهما مثلما كانت تتقلّص عند بغله. أذناه تطاولتا. تمطّت عيناه بشكل مائل. تدلّت شفته السفلى. تطاول الشعر على رقبته بخطّ واحد، وبدأ شيء ينتأ من مؤخّرته. مدّ يده يتحسّسها، شدّته الجنّيّة باليد الأخرى. حبال فتنتها تلفّه من أسفل قدميه صاعدة باتّجاه رأسه، فتسلبه القدرة على القول أو الفعل. لم يأمر، ولم يقل أيّ شيء، فقط سلّمها يده وهي تمدّ يدها إليه وتنهضه عن الكرسي بعدما استحال إلى كتلة جوفاء تصرخ كي تمتلئ قبل أن تأكله. سار معها حتى صار أمام طاولة المرأة الأخرى، توقّفت الصبيّة فتوقّف معها، أمرته الأخرى:

ـ حطّ عشر ليرات هنا قبل ما تفوت معها، معك ساعة فقط، إذا مرّت الساعة وأنت ما زلت جوّا، يترتّب عليك عشر ليرات أخرى. موافق؟

مدّ يده الأخرى إلى جيب سرواله، سحب منها غلّة اليوم، تلك التي تجمّعت قطعًا معدنيّة صغيرة، تكاد أن تثقب جيبه بثقلها، فردها على الطاولة، وراح يفرزها، ربع ليرة، نصف ليرة، وكان بينها قطعتان فقط من فئة الليرة، جمع عشر ليرات ودفعها باتّجاه المرأة، وعدّ الباقي، فجمع ليرة ونصف الليرة، حشرهما في جيبه ثانية، متخفّفًا من ثقل القطع الأخرى، واستدار إلى الصبيّة ثانية، موكلاً لها القيادة، ناسيًا غضبه الذي غادره في غفلة منه، فرحمه من تهوّر في مواجهة الموقف على أنّه اعتداء على رجولته.

ها هي رجولته تُحمل على الأكفّ، وأيّ أكفٍّ هذه؟ أكفٌّ بيضاء ناعمة كالحرير، أين منها كفّا دنّورة الضامرتان الخشنتان، اللتان تكاد عروقهما تخترق الجلد، نافرة زرقاء، وجلدهما الخشن الذي ينزّ دمًا بعد أن تنتهي من دعك الغسيل، أو شطف أرض البيت، وهذه الأصابع الرشيقة بأظافرها الملوّنة، هل يمكن لأصابع دنّورة بتشقّقها وجروحها الدائمة وأظافرها المثلّمة التي يصبغها الفول والباذنجان، وأشياء أخرى، أن تصمد أمام سطوتها وهي تدغدغ راحتيه، تنفرد وتنثني ببطء وإغواء؟ دنّورة الخشبة الجافّة، من أين لها أن تعرف يداها فنونًا كهاتين اليدين؟ لماذا سوء ظنّه بتلك المرأة البدينة؟ هي حتمًا كانت تمازحه بتحطيمها الحاجز بينهما حتى تخرجه من خجله وارتباكه، من المؤكّد أنّها لم تكن تقصد إهانته، ها هي البداية فقط تحمل إليه كلّ هذه الوعود إكرامًا

لفحولته، ما الذي ينتظره في الداخل بعد؟ شعر حمّود بقوّة عارمة في جسده، كان جاهزًا على الأرجح لخوض تجربة مثيرة لم يعد يطيق انتظارًا لها، عندما سحبته تلك الصبيّة خلفها وهما يخرجان من الباب مختفيين في دهليز معتم سوف يقودهما إلى مرتع المتع الواعدة. عندما أغلق الباب عليهما، وراحت الجنّيّة تتلوى أمامه وهي ترفع ثوبها وتربطه بعقدة جانبيّة إلى خصرها فتبين ساقاها، بل فخذاها، كان حمّود قد أتمّ تحوّله إلى بغل، وراح يجأر ساحبًا كلّ مرّة نصف هواء الغرفة، ثم مالئًا جوّها بأبخرة تخرج من فمه ومنخريه، نزل إلى الأرض وراح يتقدّم نحوها على أطرافه الأربعة. في اللحظة التي وصل فيها إليها كانت قد قفزت إلى أعلى السرير متضاحكة وهي تضرب كفّيها بصفقة قويّة، ثم تفرد ذراعيها وتحرّك أصابعها بسرعة كما لو كانت تدعو كلبًا للاقتراب، فلمّا وصل إلى حافّة السرير، قفز إليها، طاويًا ذيله خلفه، وغرقت الغرفة في العتمة.

ـ ١٨ ـ

حالات الضيق التي بدأت تنتاب جميلة، ازداد تواترها في الفترة الأخيرة. صارت لا تطيق الحجز زمنًا طويلاً في صالة الفرز، وما زاد الحالة تعقيدًا هو انعدام التواصل بينها وبين بقيّة العاملات، بقيت بالنسبة لهنّ عصيّة على الترويض، بالرّغم من أنّ بعضهنّ لم يتوقّفن عن التحرّش بها وإغاظتها أحيانًا، ممّا جعلها تطلب الإذن بتواتر لافت من أجل الخروج من الصالة أثناء الدوام وتمضية الوقت خارجًا.

وقفت أمام باب غرفة مراقب الدوام سليمان مضطربة، لم تكن قادرة على البقاء دقائق أخرى في الصالة، يجب أن تخرج قبل أن تتمكّن منها حالة الهلع التي تنتابها، لكنّ هذا السافل، كما تصفه عندما يخطر على بالها، يضمر شيئًا في داخله لا تعرف ما هو، لكنّه شيء مريب يثير حفيظتها برغم القلق الذي يسيطر عليها في مثل هذه الحالات. صار الوقوف أمامه جزءًا من أزمتها، يزيد حالتها تعقيدًا، لكن لا مفرّ من هذه المحنة في كلّ مرّة. باب الفرج لا يمكن الوصول إليه إلّا عن طريق غرفة سليمان. وقفت تلتقط أنفاسها، لكنّ أنفاسها تسارعت، موقف صعب، ما العمل وهي

تتورّط أكثر في الحالة؟ لا بدّ من اقتحام الغرفة، لا بدّ من المثول أمام سليمان، لا بدّ من أيّ شيء حتى تنفلت خارج هذا السجن الذي تختنق فيه، طرقت الباب بيدٍ ترتجف، ثم فتحته وتقدّمت بخطوات متردّدة حتى صارت بمواجهته من وسط الغرفة، قام من وراء مكتبه مرقّقًا نظرته، يحمّلها شيئًا من الحنان والاهتمام، وقف أمام المكتب، صارت المسافة بينهما قريبة، سألها بصوت رقيق:

ـ ما لك يا جميلة؟ أرى أنّك تعبانة.

بقيت صامتة، هي بالدرجة الأولى لا تريد الكلام، كما أنّ اضطرابها الشديد يمنعها عنه. أعاد السؤال ثانية بنبرة أكثر هدوءًا:

ـ احكي لي حتى أساعدك.

لم تردّ، استمرّت في صمتها. اقترب منها أكثر، مدّ يده إلى خصرها جذبها نحوه، ضغط على مؤخّرتها، فانتفضت وفتحت الباب هلعة وهي تقول:

ـ بدّي إذن.

ثم أفلتت من الباب قبل أن يأتيها الجواب. خرجت من المبنى إلى الفناء الخارجي. تلامح لها البوّاب من بعيد، كانت نسيته أثناء وقوفها أمام سليمان، لكنّ وجوده على الباب كالكلب الذي يقعي كسولاً، وأذناه تتدلّيان على جانبي رأسه، أجفلها. استعدّت لمحنة جديدة، وصلت إليه، وعندما أراد إيقافها من أجل التفتيش صرخت به صوتًا جمّده، كان حاجباها قد ازدادا كثافة، ونمت شعيرات كثيرة باتّجاه الخطّ الأوسط بينهما، ممّا منحها سحنة أكثر عبوسًا، وإذ قطّبتهما وهي تصرخ في وجهه مكشّرة، تكزّ على أسنانها، دبّ ذعر في قلبه. نفرت من الباب خارجةً وراحت تهرول في الشارع،

لا تعرف إلى أين تذهب، المهمّ أنّها أدركت الفضاء الخارجي، حيث لا جدران ولا سقف، لا ثرثرة تلتفّ حول صدغيها، ولا أشداق تنفرج وتنغلق أمام عينيها. هنا تختفي عن عيون سليمان، وعن أنف الكلب الخارجي، هنا تدرك شيئًا يواجه هلعها، ويتصارع معه فيتلهّى عن تعذيبها، تبتعد عن أصوات والدها ووعيده. تهرب من صراخ إخوتها وطلباتهم التي لا تنتهي. تنسى وجه أمّها الجامد. تضيع في فراغ لا شكل له، في عالم متحرّك يصنع ضجيجه الخاصّ الذي يتبدّد في الآماد.

أدركت نفسها في وسط سوق التجّار وزحمته، وقفت عندما انتبهت إلى هرولتها، وأنّ الناس يرمقونها بنظرات الفضول والدهشة. تسمّرت في أرضها، وهي تمعن في الوجوه من حولها، ثم انطلقت مرّة أخرى بخطوات أبطأ وأخذت تلتفت إلى الواجهات، من واجهة إلى أخرى تتبدّل نظرتها، تدغدغها قطرات العرق التي تتجمّع من بين خصلات شعرها الذي استطال حتى كاد أن يتجاوز خصرها، تتجمّع تلك القطرات وتفتح لنفسها مسيلاً بين لوحي كتفيها، منسابة في مجراها إلى أسفل ظهرها، لتتبدّد على إليتيها فتلتصق ثيابها الداخليّة بجسدها، وتغرقها في إحساس مبهم يشوّشها. توقّفت أمام واجهة تعرض الثياب الداخليّة النسائيّة. أذهلتها تلك القطع الصغيرة المعروضة بألوانها المتنوّعة، وأشكالها الغريبة، كان شيئًا غريبًا ومثيرًا في الوقت نفسه أن ترى تلك الأشكال وتقارن بينها وبين ما تخفي هي تحت ثيابها. لم تكن تعرف أنّ هناك أشكالاً أخرى وألوانًا أخرى للسراويل غير تلك البيضاء العريضة التي تغليها أمّها على النار في برميل خاصّ، وتضرم النار تحتها مثلما تفعل عندما تغلي رؤوس الغنم في

المناسبات الخاصّة التي تطبخ البرغل على مرقها. وقفت مطوّلاً تتأمّل الواجهة، كانت عيناها تتبدّلان، وسوادهما يزداد قسوة، قلبها يختلج، ورغبة لئيمة تفيق في داخلها، كأنّها تأتي من غياهب الذاكرة.

سارعت من أمام واجهة الثياب الداخليّة، وأخذت تمشي مترنّحة على إيقاع حزين رتيب كأنّه الصدى. وقفت مرّة أخرى أمام واجهة تعرض الفساتين والقمصان والتنانير والأزياء المختلفة، معلّقة في الفراغ كأنّها توشك على الطيران. وقفت أمامها تراقب الرؤوس المقطوعة، والأطراف المختبئة والأيادي المبتورة، شعرت بأنّ أجسادًا لنساء ميّتة تختبئ في ثنيات الثياب. أجساد تمعن في الوعيد. صارت تسمع أنينًا مكبوتًا يخترق الزجاج ويقتحم أذنيها. هربت من أمام المذبحة المعروضة في واجهة زجاجيّة، أسرعت في سيرها من دون أن تلتفت إلى شيء، تمشي كالهاربة من أمر ما، ولم تنتبه إلّا وقد صارت على الكورنيش. اجتازت الشارع بخطى واسعة. على الرصيف المحاذي للمنشيّة قبل أن تلتقط أنفاسها من تعب الهرولة لفتها طيف رجل يبعد مسافة عنها، تسمّرت في أرضها، كان الضوء شديدًا تحت سطوع الشمس في سماء صافية كالبلّور، زمّت عينيها، رفعت كفّها اليمنى ونصبتها خيمة فوقهما، أغمضتهما قليلاً وعادت تفتحهما وهي تحدّق في الطيف الذي يبتعد أمامها، يعرج من رجله، يخفق شعره فوق كتفيه، كأنّ حلمًا ما ترى، بل هو حلم بالتأكيد. هذا ليس جمعة! ما الذي سيأتي به إلى هنا؟ وفي وقت كهذا؟ انطلقت مسرعة خلف الشبح المبتعد، غير المكترث بها، توقّفت حائرة بين الشكّ واليقين. أفاق الحنين كوحش يتضوّر من سباته، بدأ ينهشها وينبش الصور من أعماقها،

وهي تمانع وتقاوم وترفض، والطيف يبتعد أمامها، خافقًا في مشية تكاد تُحفر على جدران وجدانها لا، لم تنس مشيته، إنّما تناستها كي تعيش، لا، لم تنسَ شعره، لم تنسَ رائحته التي يرسلها الآن خلفه ويختفي.

كان جمعة قد صار نقطة سوداء تذوب بين الظلال، وهي واقفة في مكانها تتحوّل إلى امرأة أخرى، تصارع شياطين تصحو في داخلها. سنوات عديدة مرّت وهذه الشياطين تتكاثر حتى صارت قطيعًا، والنهم إلى الخبز يحيلها إلى طاحونة لا تملّ من دورانها حتى صارت ممتلئة القوام حدّ السمنة، بطنها يبرز مهما حاولت إخفاءه بالقمصان الطويلة الفضفاضة، مؤخّرتها تنفر متحدّية حرصها، فتمتدّ الأيدي مثل العيون إليها، والجوع ينبثق من أنحاء جسمها، يحتلّ كيانها ثم يتمركز في مكان وحيد، هو معدتها التي لا تشبع.

عندما أفاقت من شرودها، كان الطيف قد اختفى، وبدأت أنيابٌ تقطّع أحشاءها. لم تكن تميّز بين أنياب الألم وأنياب الجوع، فقط تمتلئ في أعماقها بإحساس ثقيل يتحوّل إلى أشكال عديدة من التعذيب الشرس يستبيحها. استدارت عائدة لا تنوي على شيء سوى خنق الصراخ المتصاعد من هناك، من وديان نفسها، من قيعان أحشائها النازفة.

أمام فرن في سوق الخضرة توقّفت، غزتها رائحة الخبز بسطوة عارمة، لم تستطع إلّا الانقياد خلفها، دخلت واشترت رغيفين وأخذت تلتهم الخبز بنهم كلبٍ جائع على مرأى المارّة الذين أذهلهم منظرها. كانت تلتهم بجوعٍ شرس وتتحدّى بعينيها من ينظر

إليها. دخلت في حالة من التحدّي سيطرت عليها حتى أوشكت أن تصرخ ملء صدرها، أن تزمجر كحيوان مفترس، تنتظر فقط إشارة واحدة من فريسة تعترض طريقها. تلتهم وتغذّ السير وأنفاسها تتلاحق. وجهها يتوهّج بنار لا يطفئها سيل العرق المنهمر من رأسها باتّجاه صدغيها ثم عنقها، إلى أن شارفت على بناء الريجي بينما كانت تزدرد اللقمة الأخيرة، وقفت هناك تشحذ غيظها، في داخلها طاقة جبّارة تنتهكها، لن تهمد ما لم تفرّغ شحنتها في وجه أحدهم، أولئك العرصات كما كانت تفكّر وهي تتقدّم ببطء إلى الباب. وقف البوّاب معترضًا طريقها، هو لم ينسَ الصوت الذي صرخته في وجهه منذ ساعتين، أوقفها:

ـ لا تكوني ظننت نفسك أنّك أخفتني، أنت شقفة حرمة، كيف سمحت لنفسك أن تصرخي في وجهي؟

خطت جميلة خطوة، عازمة على أن تتابع طريقها، فاعترضها ثانية مادًّا يده أمامها، وهرسها على ثديها، فدفعته بكلّ القوّة التي كانت تتراكم في داخلها، أردته أرضًا وهرولت مسرعة. قبل أن تجتاز البهو العريض، كان البوّاب قد اتّصل بمراقب الدوام سليمان وأخبره أنّ جميلة خرجت ولم تسمح له بتفتيشها وأنّها كانت تخفي كروز دخان تحت سترتها، وأنّها عادت خالية منه، من المؤكّد أنّها تهرّب الدخّان كلّ مرّة وتبيعه خارجًا، وإلّا لماذا كلّ هذه الأذونات التي تطلبها؟

تلقّفها مراقب الدوام على بابه، استدعاها إلى التحقيق، عندما دخلت مكتبه لم تكن تعرف بعد ما هو سبب استدعائها. لم تفطن إلى أنّ البوّاب أخبر مراقب الدوام بشيء. دخلت والحذر يملؤها،

كانت متحفّزة كأنّها تنتظر تطاولاً من هذا الآخر، وقفت كالصنم أمامه، بنظرتها القاسية، وجبينها المقطّب، بينما سليمان يجلس خلف مكتبه راسخًا متّزنًا، هادئًا، طلب منها أن تجلس، وسألها:

ـ لماذا مانعت البوّاب، ورفضتِ التفتيش؟

اتّسعت عيناها. تغيّرت ملامحها، بانت عليها الدهشة والاستنكار، إنّما بقيت صامتة، سألها ثانية:

ـ أنا أنتظر منك الردّ، أُعيد سؤالي مرّة ثانية، لماذا رفضتِ التفتيش؟

أمعنت في الصمت، وكظمت الغيظ في صدرها. ما الذي يمكن أن تردّ به؟ لمن ستحكي حكاية البوّاب؟ إلى سليمان النذل أكثر؟ تطلّعت إليه، ثبّتت نظرها في عينيه، بدت كأنّ شهبًا حارقة تنطلق من عينيها، ترفع حرارة المكان، توشك أن تشعل الغرفة. ارتبك سليمان أمام نظرتها، اشتعل الغضب في أعماقه، كان غموضها الصارم والعنيد يدفعانه إلى الإصرار على اختراقها، من دون أن يرضى بالهزيمة مهما كلّفه ذلك، تابع في استنطاقها:

ـ آخر مرّة أسألك. أنتِ هنا أمام تحقيق رسمي، عندي تقرير على مكتبي يقول إنّك تسرقين الدخان، وتهرّبينه لخارج المبنى وتبيعينه، ما هو ردّك؟

انتفضت كمن لُدغت، صرخت في وجهه:

ـ أنا أشرف منكم كلّكم.

قام من خلف مكتبه، مشى متمهّلاً نحوها، وضع يده على كتفها، وقال بنبرة من يراهن، والرهان مضمر:

ـ أريد إثباتًا يا جميلة على أنّك أشرف من الكلّ. أنتِ متّهمة،

وبراءتك بيدي، وأنتِ حلوة، وأمّورة، وجسمك حلو، لمّا أشوفك، أو تمرّين قدّامي لا أعرف ماذا يحصل معي، أشتهيك. خلّيك كويّسة معي، حتى أبرّئك وأمنع أحدًا من أن يقربك لاحقًا.

بينما انتهى من كلامه، كانت يده تمسك بمؤخّرتها، وتهصرها، ارتدّت جميلة بعنف، ارتطمت بطاولة المكتب، في اللحظة التي اشتعل فيها جنونها، واندفعت تصرخ وتشتم، وتنهال على الطاولة ضربًا بقبضتها، تقذفه بوابل من الشتائم الذكوريّة، تتوعّد بأن تفعل كذا وكذا، كأنّها تحوّلت إلى ذكرٍ حقيقي، يمسك عضوه بين يديه، يهدّد باقتحام غريمه وإهانة رجولته. تصرخ وتخبط على الطاولة، أمام ذهول سليمان، وهو يمدّ يده إلى فمها يحاول كتم أنفاسها ومنعها عن الصراخ.

فُتحَ الباب ودخلت منال، وسط ذهولها، أرخى سليمان يديه عن جميلة، في اللحظة ذاتها كانت جميلة تنهال على وجهه بصفعة دوّت في فضاء الغرفة، لم تعر منالاً انتباهها، انطلقت مسرعة تلهث والشرر يتطاير من عينيها، في الوقت الذي كان فيه سليمان يزمجر أمام منال:

ـ تصوّري ماذا فعلت هذه الفاجرة لأنّي استدعيتها إلى التحقيق، هذه التي ترينها أمامك ليست سهلة، هي تسرق دخان، تهرّبُه وتبيعُه في الخارج.

ـ أنا كنت أقول لنفسي هكذا، لأنّ سكوتها يخيف.

قالتها منال وهي تبتسم بمكر، وتلتفّ على نفسها بغنجٍ مغرٍ ملوّحة له بيدها: باي!

ـ ١٩ ـ

كان أبو طافش ما زال منتشيًا بيوم أمس، ونزهته في البرِّيّة مع أفراد عشيرته. أمضى جزءًا من الليل يستعيد الصور والأحاديث التي دارت بينهم، والأحلام التي حكاها بعضهم لبعض، كما كان سعيدًا طيلة النهار التالي، يلحق صاحبه منقادًا خلفه بدون أيّ اعتراض، فقد كان مفصولاً عنه بلحظة أخرى تخصّه. أمّا عودته عند المغيب من دون أن يذهب معه إلى البحر، فقد أسعدته أكثر. لم يكلّف نفسه عناء التفكير واستبيان سبب هذا التغيّر الطارئ لدى صاحبه، بل شعر بأنّ هذه الفرصة أتته من حيث لا يدري، وعليه استغلالها في مزيد من الأحلام والتفكير بالغد. ما زالت أصداء أحاديث رفاقه، وشجونهم ونجواهم وطموحاتهم، في باله، سوف يسترخي في زريبته ويحلم.

بدّل جمعة ثيابه، وانطلق إلى مقصده، يتأبّط كيسًا تحت ذراعه الأيسر، يفكّر خلال الطريق بالأوراق، وبماذا سيخبر دلال عنها؟ هل يصدقها القول ويعترف لها بأنّه تلصّص على عالمها، وأنّه استباح أحلامها وآلامها؟ وبأنّه أمضى لياليَ يُعيد تشكيل هذا العالم

على هواه، ويتسلّى بخيالاته كما يشاء؟ هل يخبرها بأنّه رسم لها أشكالاً عديدة في أحلامه؟ وأنّه نحت تماثيل نساءٍ كثيرات حملن اسمها؟ بل هل يخبرها بأنّها كانت كلّ النساء، ولم تكن في الآن نفسه إلّا جميلة المتوارية في ظلمات نفسه؟ جميلة الحلوة، الطيّبة، بعينيها السوداوين تحت غرّة عابثة، تنهمر على خدّها الأيمن لتخفي تلك البقعة التي طالما أثارت مخيّلته وحرّضت اشتهاءه لها فيما مضى، ووجهها الأسمر، وفمها الندي، وشعرها المنهمر على كتفيها مثل شالٍ مُزّق من سواد الليل. جميلة المختبئة هناك حيث يعصي عليه استحضار صورتها إلى الضوء حتى لا تحترق؟ أم يكذب على دلال حرصًا على كبريائها، فيدّعي أنّه قرأ العنوان المكتوب على المغلّف الفارغ فقط، ويدّعي الشهامة في الوقت نفسه؟ لم تستطب نفسه فكرة الكذب وادّعاء الشهامة. لكنّك يا جمعة عندما لقيت الكيس لم تكن تعرف صاحبته، ولم يكن من المحتمل أن تلتقي بها، كان كيسًا مرميًّا في حاوية، حيث يكون المطاف الأخير، والمستقرّ النهائي لكلّ ما نريد أن نتخلّص منه، لكلّ ما هو زائد عن حياتنا. زائد عن حياتنا؟ منذ متى تعاني من الترف أنت وأمثالك؟ ترف أن تمتلك الفائض؟ يكفيك ادّعاء يا جمعة، فأنت تتشبّث بحكايات الحياة، تعمّر منها عوالمك بقدر الفراغ الذي يؤسّس حياتك، حكايات تسرقها من هنا وهناك، ممّا علق على أطراف الحاويات، أو انطمر بين ركامها. أليس عملك كلّه نبشًا وتنقيبًا؟ كم شغل بالك هذا الكيس؟ كم أمضيت من الأوقات وأنت تحلم بصاحبته، ترسم لها في خيالك حياة، بل حيوات وتلاحق جسدها في أحلامك مدّعيًا أنّك تستحضر جسد

جميلة؟ كن صادقًا مع نفسك على الأقلّ، ولا تدّع الشهامة.

بين خيارين لا يملك غيرهما، بلبله الارتباك على الأقلّ وهو متّجه إلى لقاء لا يستطيع أن يتكهّن بنتيجته. لكنّ دلال أضمرت شيئًا في نفسها بالأمس، هكذا تحدّثت نظرة عينيها وهو يغادرها، ربّما هذه أهلاس ينسجها خياله ليس أكثر.

قطع الطريق إلى بيتها وهو شارد، وعندما انتبه من شروده قبل الباب بأمتار قليلة، شعر كأنّه قفز قفزة واحدة من أمام بيته إلى هذا المكان، وأنّه لا يتذكّر شيئًا عن الطريق، حتى ولا يعرف على أيّ أرصفة كان يمشي. كان غائبًا عن العالم، تائهًا في عالم آخر، لكنّه وصل أخيرًا، وهذا هو الباب صامت في انتظار استجوابه. ارتبك، رفع قبضته كي يطرق الباب، فتسمّرت في الهواء وجمدت بعيدة عنه قليلاً، حركة واحدة ويتورّط في مشهد غامض قد لا يجلو أحد غموضه، لكن لا بدّ من ذلك. هو وعدها، وهي الآن بانتظاره. من المؤكّد هي بانتظاره، أليست الأوراق لها؟ أليست هذه ذكرياتها؟ لماذا يرتبك ويتردّد أمام مسألة محتومة؟ تأمّل الباب، كان عتيقًا لكنّه صامد كما لو أنّه وُجد ليبقى. هو باب غير أبواب البيوت في حارتهم، باب محكم، كتوم، راسخ، بقبضة كبيرة من البرونز العتيق، بإطار خشبي عريض يحيطه. على يمين الباب يبرز قفلان أحدهما فوق الآخر. لفت القفلان جمعة، قفزت إلى ذهنه صور أبواب البيوت الأخرى التي يعرفها في الحيّ، أبواب خشبيّة مهترئة، وقد تكون ألواحًا من المعاكس، أو الصفيح المؤطّر بخشب صناديق الخضار. معظم الأبواب كانت لا تحمل أقفالاً هناك، فقط حلقتان من الحديد الرفيع متقابلتان تنضمّان عند

الإغلاق بقطعة يسمّونها جوزة، تجمع الباب بالجدار وتمنعه من الانفتاح إلّا بتحرير الجوزة، لماذا في حيّهم لا يقفلون البيوت بإحكام كما هنا؟ ضحك جمعة في سرّه من سؤاله الساذج، على ماذا يخافون حتى يحكموا قفل الأبواب؟ الأبواب هناك للسترة فقط، حتى الأبواب الداخليّة يستعيضون عنها بالستائر المصنوعة بطرق بدائيّة، أغلبها من أكياس الطحين، أو أكياس الخيش، تثبّت بمسمارين متقابلين. الأبواب متشابهة، نحن هناك لسنا بحاجة إلى أبواب كتومة، على ماذا نخاف؟ أصواتنا متشابهة، أحلامنا لا تغري بسرقتها، مدّخراتنا لا تعدو أن تكون رغيفًا قد زاد عن استهلاك اليوم، نخبّئه للصباح المنتظر، أثاثنا ليس أكثر من إسفنجات ننام عليها ليلاً، ونجلس عليها نهارًا، فعلام الخوف؟ أفكارنا؟ من يفتّش عن أفكار أناس مثلنا؟ نحن لا نعدو أن نكون أرقامًا نثير التأفّف. ما حاجتنا إلى أبواب مثل هذا الباب؟

راودته هذه الفكرة وهو يهوي بيده على الباب ويطرقه طرقة خجولة مرتبكة في البداية، ثم طرقة أكثر جرأة عندما لم يأته الردّ.

كان جمعة قد همّ بالاستدارة وهبوط الدرجات الأربع، عندما أُدير المفتاح في القفل عدّة دورات، ثم فُتح الباب قليلاً، وانفرج بعدها. كانت دلال تبدو امرأة أخرى غير التي قابلها بالأمس. الملامح نفسها، لكنّ شيئًا تبدّل فأكسبها سحنة أخرى، في البداية همّ بأن يسألها عن السيّدة دلال، لولا أنّها بادرته بالقول بأنّها خافت ألّا يأتي، مدّ يده بالكيس ليناولها إيّاه، لكنّها استدارت وقالت له: ادخل! ارتبك وبقي واقفًا على العتبة، التفتت إلى الخلف وأعادت عليه أمرها باللهجة نفسها، فانصاع ولحقها. مشى خطوتين فطلبت

منه أن يغلق الباب. اضطرب جمعة، وأخذ قلبه ينبض بسرعة، لعلّها رهبة الموقف، أو توجّسٌ ما أفاق في باله، وقد يكون ارتباكه من وجوده مع امرأة وحدهما في مكان مغلق، يبطّنه الغموض والألغاز. كلّ شيء في هذا العالم الذي ابتلعه يُثير دهشته. إنّها دنيا أخرى غير تلك التي يعرفها، أو يعيش في بطانتها. صالة واسعة تتوزّع أرضها المقاعد الوثيرة، تبدو وكأنّها معتّقة، والجدران المزدانة بلوحات ورسومات مختلفة، طاولات صغيرة بأحجام مختلفة، منها ما يتوسّط الصالة، ومنها ما يتوزّع الزوايا، تركن فوقها صمديّات وتحف متنوّعة. أرض مفروشة بسجّاد مزخرف برسومات وألوان بديعة. أبواب بمرايا تتوسّط الجدران. إضاءة خافتة تنبعث من أمكنة عديدة. جوّ أسطوري، اقتحمه برهبة وخوف. ارتبك حتى كاد أن ينعقد لسانه في فمه. كان الكيس ما زال في يده عندما طلبت منه الجلوس، توجّه إلى مقعد متطرّف وجلس عليه، وأسند الكيس إلى ركبتيه المضمومتين. صمتُ دلال زاد في ارتباكه، هو ينتظر منها أن تبدأ الحديث، أو تسأله عن الكيس، فسؤالها سوف يدفعه إلى الخيار الأنسب بعد أن ضاع بين خيارين، ولم يستطع الوصول إلى قرار قبل أن يطرق بابها.

لم تجلس دلال، ظلّت واقفة أمامه، تخطو أحيانًا خطوات صغيرة، ثم تعود إلى الوقوف ثانية. كان ثوبها المشجّر بألوان باهتة متداخلة بطريقة جذّابة، يوحي بأنّها تلبس الضباب، يتخايل جسدها بشفافيّة مربكة تحته، ممشوقة القوام نحيلة، إنّما تبدو كأنّها صغرت سنين عن لقاء الأمس. يداها هما وحدهما تشيران إلى ارتباكها وتوتّرها، وفجأة سألته:

ـ لأنّك برهنت أنّك أمين، أنت في ضيافتي. ماذا تشرب؟

تلعثم جمعة، واضطرب تنفّسه، أغرقه عرضها بعرقه، ولم يدرِ بماذا يجيب؟ هل عليه قبول ضيافتها، أم الاعتذار عنها؟ عندما أعادت السؤال عليه، ردّ بصوت خافت مرتجف وهو يزدرد ريقه:

ـ شاي.

غادرته إلى المطبخ، تاركة إيّاه وحيدًا وسط بلبلة أفكاره، ينتظر ويترقّب، تداهمه أحاسيس مشوّشة، إنّما يختبئ بين طيّاتها شيء يتحرّش به، فيطلق رغبات خجولة، تزيد حالته تعقيدًا.

وقفت دلال في المطبخ، أشعلت الموقد تحت إبريق الماء وهي ذاهلة، تتناهبها الأفكار، وتلحّ عليها نفسها لملاقاتها. ما هذا يا دلال؟ لماذا أنتِ مرتبكة؟ معقول شابّ مثله يجعلك ترتبكين؟ أنت التي في زمانك لم تضطربي قدّام كثيرين من مستواك؟ واحد معتّر مثلما يبدو عليه، لا! ويأخذ من رجله زيادة، يجعلك مكركبة بهذه الطريقة؟ لكنْ لديه في عينيه شيئًا غريب، فيهما لغز، جاذبيّة تعلّق الواحدة فيه. لا، أنا دلال الحلواني، عيب أنسى نفسي وأضعف أمام حفنة أفكار طائشة.

أثناء شرودها مع أفكارها، كانت تجول ببصرها على الجدران، كأنّها تلاحقها من حائط إلى آخر، توقّف نظرها عند الساعة الجداريّة أمامها، كانت تتجاوز السابعة مساءً، لم يلفتها التوقيت، بعد أن سحبتها الروزنامة الرقميّة الموجودة في أسفل الساعة إلى متاهات الزمن الماكر، أخذت الأرقام تومض، وتتحرّك وتعربد كما لو أنّها تهزأ منها. ٢٠٠٨/٠٩/٢٤. شعرت بدوارٍ عابرٍ

في رأسها، انسلّ بخفّة وترك خلفه صداعًا نابضًا يطرق صدغيها. أمسكتها هذه الساعة اللعينة من كتفيها، وصلّبتها أمام عمرها دفعة واحدة، نشلتها من حالة كانت قد بدأت بدغدغتها ورمتها أمام حقيقتها دفعة واحدة. مرّ العمر، وصارت الحياة كرة تتدحرج أمامها، قد تهرب قبل أن تستطيع الإمساك بها. ها هو المرض يكشّر في وجهها، يذكّرها بأنّه هو الحكم الوحيد، وهو صاحب القرار، ليس من حقّها أن تدّعي أو تطلب الإمساك بذيول عمرها الباقي. من قال لها أن تهزأ بحياتها في الماضي وتزدري قيمتها؟ لمن كانت تدّخر هذا الكمّ من العفّة والفضيلة في ثنايا نفسٍ استهلكت روحها، ولم يبقَ منها غير نفحة تتوه تحت جلدٍ ينكمش، وشعرٍ يشيب، ورحمٍ أُهملت في أقبية الزمن، فنما فيها الورم صارخًا يعترض على حياة لا تليق بجهاز تشكّل ليصنع الحياة، فقرّر أن ينتهي نهاية شجاعة؟ لماذا يريدون كسر قفله بأيدٍ غريبة تحمل أسلحتها الجبّارة بزعم الطبّ والعلاج؟ لكنّه ليس قفلاً يا دلال، توهّمت، مثلما توهّمت قبلك كلّ النساء، أنّه القفل المقدّس للأنوثة المباركة، إذا لم يُفتح بالطريقة الشرعيّة، بمفتاح يباركه الأهل، ويسجّل في لوائح المحاكم، يجب أن يبقى مختومًا بالشمع الأحمر الذي يتلوّن به مع أوّل طمث في حياة الأنثى. لا فائدة من ضياع المفاتيح، هنا لن يفيدك أحد من ذوي الخبرة في فكّ الأقفال، لا يمكن أن يجرّبوا كلّ مفاتيحهم، أو تلك التي تفتح كلّ الأقفال. من لا تلاقي مفتاحها عليها الصوم والصلاة والتعبّد، والتضحية في سبيل القيم النبيلة التي يحدّدها الناس. عليها أن تنذر حياتها للفضيلة، وتنسى حكاية القفل والمفتاح، أجرها مؤجّل إلى الحياة

الأخرى، الحياة الواعدة بكلّ الطيّبات. لكنّني لا أريد طيّبات الحياة في حياة مؤجّلة، هي حياة أخرى يا دلال، هل صدّقت أنّها تتشارك مع حياتنا بالطيّبات؟ هي حياة يعيش الناس فيها كمخلوقات نورانيّة، مخلوقات لا تعرف الرغبات. لماذا أنتظر أجري فيها وأنا سأكون غير مؤهّلة للإحساس بالمتعة، ولست قادرة على المشاركة في صنع الحياة؟ لا. لن أنتظر. انتظرت طويلاً حتى جاء الموت يتربّص بي، هازئًا بكلّ ما أوتي من نزعة شرّيرة، جاء يتفيّأ تحت ظلال روحي المتعبة، يسترخي متّكئًا على جدران عزلتي، واضعًا رجلاً فوق الأخرى، يعلك اللبان باستهتار، غير عابئ بنُواحي. ساعته المنبّهة مضبوطة تركن إلى جانبه. لا لن أدعه يهزمني.

كانت دلال تريد أن تُعالج روحها في احتضارها قبل الأخير، ربّما يمكن إنعاشها ومصالحتها مع الحياة قبل أن تذوي، تريد أن تروي عطشًا مختبئًا في ثناياها قبل أن يلحقها الموت، عطش الأنوثة التي خاصمتها منذ القدم، قبل أن تولد، ربّما من زمن سرمدي. أرضها عطشى، في أحشائها وحش يصرخ بالجوع، يكاد أن يلتهم روحها، مقابل الوحش الآخر الذي ينمو ويتكاثر في رحمها. سباق الوحوش هذا سيقتلها. إلى من ستنتصر وتضع حدًّا لهذه المعركة الشرسة؟ هل تستسلم لمصيرها وتترك السرطان يستولي عليها ببطء منتشيًا بتعذيبها؟ أم تستجيب لعواء جسدها وتطعم الذئب الجائع الذي أفاق من سبات طويل، يطالب بحصّته عن عمرٍ من الحرمان قضاه محبوسًا في قفص العفّة والفضيلة والشرف؟ هذا الذئب يُجيد النداء، يجذبها إلى مغارات عينيه المظلمة. يبتلعها الظلام، تغزوها روائح الشبق كعطر الورود، بل

كنسائم البحر، لا! كرطوبة الغابات، بل كوهج النار تحت مرجل التقطير، تنساب منه أبخرة عطرة تغسلها وتنفذ من جلدها إلى وديانها الموغلة في العتمة، تتجمّع سواقي تجري رطوبتها الدافئة إلى أماكن اللذّة المنسيّة في أنفاق الزمن. يدغدغها الماء الذي ينضح بين فخذيها، الماء يزداد دفئًا، والدفء يتكاثف أكثر، فيصبح حارًا، والحرارة تزداد اشتعالاً، تحرقها، تتألّم، يجرفها الألم إلى متاهة لذّة عصيّة. تغمض عينيها، ترتجف ساقاها، يهوي جسدها متمهّلاً فوق برودة الأرض. الغرفة تدور بها متسارعة، الجدران تلحق بعضها بعضًا، والسقف عاليًا يتمايل منتشيًا فوقها. هذا هو برهان الزمن أيّتها المخبولة، الحركة، الحركة وليس الجمود الذي هو اختصاص الموت وحده؟ آن لك أن تعرفي أنّ الزمن أدهى، وأنّه يحتوي في فضائه الكوني الموت والحياة، الموت هو نقاط نهايات جُمله، هو لحظة تنفّسه في انطلاقه الأبدي، لكنّ ميادينه الحياة، الحياة يا دلال.

الإبريق قد تبخّر ماؤه، الموقد يشتعل تحت المعدن، المعدن يطقطق ببقايا قطرات تتراقص في أرضه المشتعلة وتتبخّر نشوانة، ودلال تمسك رأسها بيديها، تضغط صدغيها، لا تريد أن تسمع ذلك الهمس الشامت في أذنيها، ويبدأ الخدر صاعدًا من قدميها. يزداد الخدر، حتى تتلاشى قواها ولم تعد ساقاها قادرتين على الوقوف. لم تعد تسمع صوت القطرات الأخيرة في الإبريق، ثم هوت على الأرض.

جمعة في الصالون، يغمض عينيه، ويتنشّق روائح الصمت والرهبة، تخترقه مضمّخة بغرابة مثيرة، روائح تلامس أعماقه، تنبش

في أركان سكينته، فتبلبله. فتح عينيه بعد شرود، انتفض إذ أدرك الحالة التي هو عليها في مكان غريب، تذكّر دلال، سكن مرهفًا سمعه، لم يسمع ما يشي بحركتها، لكنّ صوت فرقعة المعدن وصله فأثار حفيظته. اقتحم جمعة المطبخ متجاوزًا ارتباكه، صوت الإبريق بفرقعته على النار يزداد وضوحًا، ارتجف من مرآها ملقاة على الأرض هامدة، تنكشف فخذها من تحت الثوب المشمّر عن ركبتيها، انحنى ورفعها بين يديه وأسرع بها إلى أقرب باب، دفعه بقدمه، ودخل مسرعًا، كانت الغرفة غرفة نومها بفضائها الأخرس، مدّدها على السرير، وعاد مسرعًا إلى المطبخ، أطفأ الموقد وأحضر كأسًا من الماء، وكانت دلال قد بدأت تصحو من غيبوبتها، كما لو أنّها تحلم، نشوانة بشعورها بالضعف، وأنّها لا تملك نفسها. أنهضها قليلاً، قدّم لها كأس الماء، رطّبت شفتيها وفمها الجافّ واسترخت مرّة أخرى مغمضة عينيها.

أخذ جمعة يمسّد شعرها، يلاطف خدّيها، يغزوه شعور مفعم بالتعاطف مع ضعفها. تجمّع في لمسته قدر كبير من الحنان والدفء، صار يتسلّل إلى جسدها، والجسد المتناغم في غفوته مع لمسات أنامل غريبة، تختلط برائحةٍ أغرب، أخذ يتوهّج من جديد، يرتعش ارتعاشات ناعمة، فتنتقل تيّاراته إلى الجسد الآخر. اختلط الحنان بالرغبة، بالشهوة. احتضن الكفّان وجهًا ترتعش شفتاه، ويختلج خدّاه. اقترب الوجه الآخر، تلامست الشفاه، تلاحمت، انفتح الثغران بعضهما على بعض، وبدأت القبل الخجولة التي لم تصمد أمام سطوة الشهوة، شهوة جسدين ينهشهما الجوع الأزلي، كلّ واحد كان يجوع إلى الآخر فيقبل عليه بنهم فاحش، بغريزة هي

معلّمة نفسها، تختبئ في الجسد، تحفر على جدران وجوده أبجديّتها، وتعلّمه في السرّ كيف يتهجّاها.

هي دقائق، وتنفتح بوّابات الوجود على مصراعيها، ليدخله جسدان يذوبان في نشوة الانكشاف والكشف والاكتشاف. يشتدّ العناق، تضطرب الأنفاس، تمتدّ الأيادي إلى السواتر القماشيّة تنزعها، يلبسان العري زاهيًا ينضح بالحياة، يشتبك الجسدان كهرّين يموءان بلهوهما، يخرمش الواحد منهما الآخر، يشمّه، يلعقه، يحضنه، يجذبه إليه بقوّة، يذوب النهدان اشتهاء، تجمعهما اليدان في قبضتيهما، تضمّهما إلى الشفتين المتعطّشتين. تهبط الشهوة أكثر، تنفرج فخذان وتفتحان بوّابة اللذّة، يلجها الآخر، تنزف دلال دمًا ولذّة، تخرج من جسدها، ويخرج من جسده، يحلّقان عاليًا فوق أجنحة النشوة، يتبدّدان إلى ذرّات تومض في سماء أزليّة، ينحلّان في زرقتها، ويتلاشى الجسدان في صمت الكون.

يفيق الاثنان على مشهد عريهما فوق سرير منهك، ومرآة مذهولة لم تخزّن في ذاكرتها صورًا للفرح، فيفيق معهما الوعي من غيبوبته، لتهرع الأيادي إلى ستر العورات، والتخفّي بسرعة اللصوص ضمن لباسهما، نافرين من حقيقةِ تلَبُّسهما بالخطيئة السافرة.

جسدان انتهكا عرض الشرعيّة بكلّ تجلّياتها، وفقدا عذريّتهما في لحظة غياب، نزف كلّ منهما متعةً حدّ التلاشي، ونزيفٌ آخر يدنّس بياض ملاءات تجيد صمت الحداد، تهرع دلال إلى طمسه بغطاء السرير الخارجي، ململمة بقايا طاقتها المستنفدة، صامتة

فوق ضجيج أعماقها، وجمعة يقف كالمخبول لا يعرف كيف يكسر الصمت، ليبرّر لنفسه، ولها، ما حصل. ما الذي يمكن قوله وهو ما زال مغمورًا بالدهشة، كأنّه يشهد اندحار عاصفة لم يخبُ دويّها في كيانه بعد؟ ما زالت غرابة الاكتشاف تلفّه برهبتها، يسأل عمّن كان للتوّ يقارب مجاهل الجسد الآخر للمرّة الأولى في حياته، حتى ضاع في متاهاته، والآن يقف على حدود نفسه، ونفسه مسوّرة بالضباب.

دلال فوق السرير متدثّرة بملاءاته، كأنّها خارجة للتوّ من حمّام السوق، متوهّجة الوجنتين، ريّانة بعرقها، تلتصق خصلات شعرها المبلّلة بخدّيها ونقرتها، تلمع عيناها ببريق يتلوّن في الفضاء كالشهب الناريّة، تتوه نظراتها في الفراغ. كانت حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، كأنّما تقف في تلك المساحة الضائعة بين الشكّ واليقين، بين الوجود وعدمه، بين الحياة والموت، وغير مصدّقة لما جرى، مأخوذة ما زالت بدهشة الحلم، تحتمي داخل نفسها من كابوس يختفي في ثنايا العتمة، متحفّزٍ للانقضاض على سكينتها والبدء بعربدته فوق روحها.

تتحاشى دلال النظر إلى بقعة الدم التي وشمت الملاءة البيضاء فغطّتها في لحظة غياب، لا تريد أن تراها، ماذا تساوي تلك البقعة أمام نزيف روحها على مدى عمرها الفائت؟ ها هي الحياة تستعدّ لمغادرتها بعدما حبستها في قوالب الوهم، مغلقة بأقفال عصيّة على المفاتيح كلّها. أيّ لغز كان في تلك الأقفال، وأيّ رهبة كانت تمارس عليها؟ في لحظةٍ محسوبة على زمن آخر، تغيّر كلّ شيء. تمدّ يدًا ترتجف لتتحسّس جسدها، فتلامس جسدًا آخر لم تعرفه، جسد

كان حتى تلك اللحظة محنّطًا بين جدران البيت، جسد أبكم لا يعرف الهمس حتى، لا يعرف التلوّن، كانت دماؤه تسري هناك، بعيدًا عنها في مغاور نائية، تروي صخورًا صلدة لا ينبت فوقها غير طحالب تخدع كما المخمل. أيّ جسد هذا الذي يتوهّج ويرتعش تحت كفّها المضطربة؟ هل هي الحياة تبدأ الآن، أم هو الموت في رقصته الغاوية؟ بل هو الحياة والموت في عرسهما الخالد. لماذا لم تلتفتي يا دلال قبل اليوم إلى وجودهما في داخلك منذ الأزل؟ كنت تعيشين وهم الحياة. ألم يكن موتًا ذاك الذي كنت تعيشينه؟ ها هي الحياة الآن تقتحمك بتدفّق نهر من الشهوة واللهفة، أمّا الموت الحقيقي فهو ما ينتظرك خلف سواتر الزمن. كان الموت مقيمًا دائمًا في ظلّ جدار الحياة، هو ليس مخاتلاً كما كنت تتوهّمين حتى الأمس، بل موجود هكذا بدون نوازع أو التباس، موجود بحكم وجوده الذي لا يدَ له فيه، لكنّك أنت من كنت تلبسينه ثوب المخاتلة والغدر. ألم يكن بإمكانك التعايش مع حقيقته المقيمة خلف أسوار الحياة دائمًا، وأنت تتفتّحين لها بكلّ تعدّدها؟ كانت بين يديك طول العمر ولم تنتبهي إليها، دعي الموت جانبًا الآن وغوصي فيها. هل تستطيعين التنكّر للحظة لم تخبُ بعد، ما زالت حرارة لمستها تدفئ روحك، بل وجسدك الذي يشعّ وهجًا تحت يديك الآن؟ هذه هي الحياة بكلّ زخمها وجبروتها على الموت، ها هو يتقلّص محتميًا من حرقها، الموت يأتي في البرد، في الصقيع، يتسلّل إلى الأجساد المسكونة بالجليد. خزّني حرارة الحياة بين ضلوعك لتدفعي الموت بعيدًا، دعيه غافلاً في قيلولته تحت فيء حائط الحياة، لن يوقظه إلّا برودة مخاتلة، أغلقي نوافذك دونها.

عند الباب أوقفته، في عينيها حديث لا يُقال، لغزٌ أكبر من فهمه، حتى ومن فهمها هي. لم تنظر في عينيه، ولا هو تطلّع نحوها، بقي جامدًا خلف الباب مطرقًا في الأرض، ينتظر حرفًا واحدًا تنطق به، ينشله من أحاسيسه الشرسة. طالت وقفته، وطال صمتها. تجرّأ أخيرًا ومدّ يده إلى قبضة الباب، يكاد أن يختنق من ثقل الصمت على صدره، يريد أن يهرب، أن يضيع في ضباب لزج، بعيدًا عن عينيها، بعيدًا عن العيون كلّها، وهي تهوي في الوقت نفسه إلى قاع نفسها المنتهكة في صراع شرس بين الحياة والموت. قالت له: انسَ الذي صار، لا تدعني أرَكَ مرّة ثانية. لم تقلها بنبرة قاسية، كان في صوتها شيء من الرجاء المبطّن بشوق آخر، شوق ابتدأ قبل أن تبتلعها وحدتها ثانية، ويصرخ جسدها مطالبًا بنصيبه من الحياة مرّة أخرى، بعدما اكتشف أنّ حصّته لا تموت مهما عتّقها الزمن.

انفتح الباب، انغلق الباب، فبات الانفصال حقيقة راسخة، والالتحام الذي كان قبل قليل، حدثٌ تعرّف عليه جمعة في رؤيا كما لو في منامه، ذكرى بعيدة، غريبة، مبهمة، تأتيه من الماضي، قد تكون وقعت قبل آلاف السنين، لكنّها تضيع بين الحقيقة والوهم. هكذا انطلق في شوارع المدينة، يهيم تحت أنوارها، في غمرة ضجيجها، في زحمة تفاصيلها، لا ينوي على شيء سوى الابتعاد، وهو لا يعرف عمّاذا يريد أن يبتعد.

ـ ١٩ ـ

عندما خرج حمّود من البيت المستور في ذلك اليوم، يده في جيبه تداعب القطع النقديّة التي صارت ترقص في رحابة المكان بعد أن قلّ عددها، كان منهك القوى والروح، تضنيه الأسئلة المتلاطمة في رأسه. ومضة السعادة واللذّة التي اخترقته بجبروتها انطفأت تاركة خلفها رمادًا يخنقه، ينطمر تحته جمرٌ ناعم لم يحرقه بعد، سوف يتّقد في لحظة أخرى عندما سيقترب من دنّورة، وطيف تلك الشيطانة الغاوية يملأ خياله. كان الوقت صيفًا، لولا النسمات الرطبة التي تأتي من البحر لكان ازداد اختناقًا. تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير، ربّما أوشك الفجر على الظهور، فثمّة انعكاس ضعيف لألوانه في الأفق البعيد، كما أنّ أنوار الجامع بدأت بالاشتعال، لا بدّ أنّ المؤذّن يجهّز نفسه من أجل القيام بالأذان بعد قليل. شعر بحاجة لأن يتكلّم مع أحد، أيّ أحد، لكن ماذا سيقول؟ هو حتى لا يعرف ما يعاني، مشاعره تختلط عليه بشكل معقّد، لا يفهم نفسه. ربّما كان يعاني من سعادة مفرطة، يبطّنها ألم على قدّها وهو خارج للتوّ من تجربة مثيرة لم يكن يتوقّع أن تكون

بهذا الحجم من البهجة. لكن لماذا ليس راضيًا عن نفسه؟ لماذا يمشي ويده تتلمّس القطع في جيبه؟ يتذكّر الغد وهو لا يملك أيّ فائض يدّخره للمعيشة فيما لو انقطع عن العمل لسبب من الأسباب؟ كان كلّ يوم يأتي بغلّة شغله، يشتري ما يحتاجه البيت على قدّ ما بحوزته، لكن ماذا ستعمل له الليرة والنصف في الغد؟

ربّما كان الخوف من الغد وما يمكن أن يجرّ معه من همٍّ فيما لو لم يحصل على المال الكافي هو ما يقلقه، لا، ليست دنّورة، وليس تأنيب الضمير تجاهها. دنّورة هي المسؤولة عمّا حصل، هي التي تحرمه من التمتّع برجولته قبل أن تخبو، بل ما فعله كان ضروريًّا، لكن يبقى شيء أساسي يخزه، راح يحدّث نفسه: أنا من حقّي أن أتزوّج، الدين والشرع أعطياني هذا الحقّ حتى لو كانت امرأتي ليست مقصّرة معي، لكن من أين واليد لا تطال؟ أنا لا أعرف كيف أشيل همّ امرأة واحدة، فكيف أتدبّر مسؤوليّة اثنتين؟ والشيء الذي فعلته يا حمّود، أليس حرامًا؟ أنت كنت تزني؟ طيّب إذا كان هذا الفعل اسمه زنى، لماذا هو موجود من زمان؟ لماذا كان على طول الزمن يوجد نسوان يشتغلن هكذا، ويوجد رجال يطلبون هذا الشغل؟ أكثر من نصف رجال الحارة يذهبون إلى البيت المستور، ومنهم من يذهبون إلى أبعد من ذلك، إلى خارج الحارة. هذا ما أعرفُه، وأظنّ أنّ ما لا أعرفه أكثر بكثير. لكنّني لست مرتاحًا، أخاف أن أعتاد على ها الشغلة وما لي قدرتها، من أين لي أن أجلب مصاري؟ والله لو معي ما قصّرت، والله لو كان معي لكنت تزوّجت مرة واثنتين، لكن يا حسرة، العين بصيرة، واليد قصيرة. أنا مهموم؟ أين أنت يا شيخ يحيى حتى أحكي لك وفشّ خلقي؟

عندما عاد حمّود في تلك الليلة إلى البيت، خلع نعليه وارتمى بجانبها على الفراش، لم يمضِ أكثر من عدّة دقائق حتى كان شخيره يتصاعد في أرجاء الغرفة التي بدأ نور الفجر يتسلّل إليها، أمّا دنّورة فقد كانت رائحة جسدٍ آخر تخترقها، غير الرائحة التي اعتادت عليها، وقبلتها مستسلمة بكلّ أطوارها، لكن تلك المرّة شعرت كأنّ ثورًا يغتسل بعرق نزوته قد ارتمى بقربها. رائحته أجفلتها وفتحت أبواب القلق على مصاريعها في وجهها. كانت تنزوي بين جدران صمتها، تستجدي الغيب حلًّا يختفي في ثناياه المظلمة، علّ حمّود الشارد عن بيته يثوب إلى رشده. هي شمّت تلك الرائحة مرّات عديدة، كان حمّود يعود فيها إلى البيت متأخّرًا، وكانت تفيق على انبطاحه على الفراش بقربها، مضمّخًا بالرائحة المرعبة، فتفيق معها هواجسها: معقول هو ينوي على أن يتزوّج عليك يا دنّورة؟ والله أنا أشمّ رائحة امرأة على ثيابه، رائحة تفوح من جلده، لكن لماذا؟ يا ربّي تطلّع بحالي، ها هو حمّود صار يطفر خارج البيت، إذا تركني أتبهدل أنا والأولاد، وإذا تزوّج عليّ لن يكون لي مكان قدّام المرأة الجديدة، أعرفه. حمّود لم يعد يطيقني، ما عاد يطيق عشرتي، حمّود لا يوفّر فرصة إلّا ويعيّرني معها بأنّني لست امرأة، طيّب أنا ماذا إذا كنت لست امرأة؟

مرّة بعد مرّة، أسبوعًا وراء أسبوع، والأسابيع تكرّ، أخذت تلك الفاتنة التي استباحت كيان حمّود في البيت المستور، تمعن في لفّ حبائلها حول عنقه، توصله إلى حدّ الاختناق تحت ضغط رغبته المتّقدة، فتسلبه كلّ ما في جيبه، ثم تمنحه المتعة منقوصة قليلاً، لتضمن عودته راكعًا أمام غوايتها. وعندما لم يعد يحتمل صراعه

مع نفسه، ذهب إلى الشيخ يحيى، أخبره بأنّه يعاني من تأنيب الضمير والشعور بالإثم أحيانًا، فهو يذهب إلى ذلك البيت ويشتري اللذّة، أليس هذا حرامًا وزِنًى يا شيخنا؟

قرّر الشيخ يحيى بأنّ ما يقوم به حمّود حرام، لكنّ الله غفّار رحيم بعباده، يفتح لهم باب التوبة واسعًا. أنت تزني يا حمّود، لازم تذبح دجاجة وتصوم ثلاثة أيّام، وتدفع كفارة عشر ليرات، اجلبها لي، أنا أوزّعها على الفقراء، والله سبحانه يقبل توبتك. هكذا صار حمّود يذبح الدجاجة، ويصوم ثلاثة أيّام كلّما استبدّ به الشعور بالذنب، إلى أن أوشكت جيوبه على الإفلاس، ولم يعد قادرًا على تلبية طلبات تلك الساحرة، ولا الكفّارات التي يحضرها إلى الشيخ يحيى ليتكفّل بها.

ـ ٢٠ ـ

زحفت البيوت في غفلة من الزمن، فتاخمت حدود بيت هذا الذي صار الشيخ أبو العزّ، صار لهم جيران وبيوت ملاصقة وأخرى أبعد، وزقاق تشكّل بعفويّة الحاجة إلى المرور بين البيوت.

لا أحد يستطيع أن يعرف كيف تشكّلت الحارة، ولا كيف تراكمت البيوت فيها، وعُلّقت الثياب على حبال الغسيل، وسرحت مياه الغسيل والشطف بين البيوت، ولا كيف تكوّمت براميل الزبالة حولها، أو كيف فاضت مجاريرها لتلتقي مع فيضانات أخرى، حتى ولا كيف تسلّلت تلك الأطباق اللاقطة الصدئة، الكبيرة والصغيرة، إلى أسطح البيوت، أو ثُبّتت على أعمدة معدنيّة تتاخم الجدران. لا يمكن تخمين الزمن الذي تكاثر فيه الناس، وتوالدوا، وصار في الزاروب عدد كبير من الأطفال المتشابهين، كأنّما ينتمون للأبوين نفسهما. أطفال لفحتهم الشمس، وثبّت لونَهم على جلودهم البحرُ، بشعور فوضويّة منبوشة، تخصّلت بلون ذهبي في ذؤاباتها، متربو الأقدام والسيقان، بأظافر سوداء مشقّقة، وسراويل قصيرة أو طويلة، لا فرق طالما تضمّ الخصر النحيل، والبطن الضامر بتكّة

مطّاطيّة تجعلهم مأخوذين باللعب من دون أن ينشغلوا بلمّها على أجسادهم. عيونهم تتّقد بالفرح قبل أن تغرّبهم التجربة عن فرحهم، لا يضيعون الوقت من أجل الطعام، أو مسح المخاط النازل من أنوفهم، ينشقونه ثانية، ويبلعون ما وصل إلى شفاههم مع لقمات الخبز التي يزدردونها من عرائسهم الملفوفة على الماء والسكّر. كلّ حين تختار الليشمانيا واحدًا من بينهم لتمهره بخاتم الانتماء إلى الحيّ، فالبعوض ينافس البشر في تكاثرهم، ويتحدّاهم في سباقهم. كلّ ذلك الانتفاخ والورم العشوائي في الحيّ تشكّل في غفلة عن الجميع، وجميلة تصعد الطريق صباحًا وتهبطه مساءً، تزداد امتلاءً، يتطاول شعرها أكثر، تزداد قسوة عينيها، يتعاظم جبروت صمتها أمام انكسار أحلامها كلّ أوّل شهر، إذ تأكل كفّيها حكّة شرسة وهي تنتظر المحاسب أن يسلّمها راتبها، تهرع إلى الأسواق، ترمق واجهات المحلّات النسائيّة بنظرات اتّهام. هي لا تستطيع شراء ألبسة حلمت بها فيما مضى، بطنها ينمو باطّراد، مؤخّرتها تكبر أكثر، فيكبر كره جميلة لها، الأنذال يرصدونها، وهي لا تقوى على اقتطاع أجزاء منها تجعلها أقلّ حجمًا وأكثر مطاوعة في محاولة إخفائها. يطير الراتب من بين يديها إلى يدي الشيخ أبو العزّ، تلتهم الخبز بشراهة كي تنام، تغفو كالعجل المسمّن، تفيق صباحًا وتأخذ الطريق الصاعدة، ترمقها منال بنظرات خبيثة، تحدّث منال الأخريات عن جمال الجسد الممشوق، عن الخصر النحيل فوق ردفين مدوّرين، عن البطن الممسوح في سراويل الجينز، والثنيّات الحائلة لها عند المغبنين. تحكي للأخريات عن شغف الرجال بالجسد المنحوت، وتنظر إلى جميلة، مردّدة: الله يستر على

الجميع، في بنات جسمهنّ متل السفرجلة، منفوخ من جهة ومبعوج من جهة، من سيحبّهنّ إلّا المقطوع؟ البنت التي لا تملك وجهًا جميلاً، خاليًا من البقع والحفر، ولا حاجبين منتوفين ولا فمًا أحمر، يعني لا تملك أيّ جاذبيّة، من أين يا حسرة سيأتيها النصيب؟ حرام، في بعض البنات يوجعن القلب، لا أمل لديهنّ.

كانت جميلة تشتعل غيظًا وقهرًا أمام تعليقات منال. يتراكم الغيظ في صدرها حتى تكاد أن تنفجر، يضيق نفَسها، تشعر بالاختناق، تنسحب مسرعة من الصالة وتطلب إذنًا بالخروج، والبوّاب يمعن في التنكيل بها بكلّ ما يستطيع من الحيل والاعتداء السافر أحيانًا، إنّما لم يعد يستطيع التطاول على جسدها بعد الموقف الأخير، فقد بدأ الإحساس بأنّ هذه المرأة مصابة بلوثةٍ ما، يسيطر على وعيه، فراح يأخذ حذره من حالاتها العصبيّة التي تبيّن له أنّ التطاول على جسدها هو أكثر ما يحرّضها. ولم يكن البوّاب هو الوحيد الذي انتبه إلى ذلك، إنّما أمّها وأبوها وإخوتها، لاحظوا التبدّل اللّافت في مزاجها وطبيعتها التي كانت منذ البداية طبيعة خاصّة، إنّما لم تكن القسوة واضحة عليها. كان الصمت والانطواء هما أهمّ مزاياها، لكنّها لم تكن شرسة أو عصبيّة تدخل في أطوار من الصراخ والعنف، حتى صارت أصواتها ترشح إلى الخارج، وسط ذهول إخوتها، ودموع أمّها، وصراخ والدها في وجهها وهو يؤنّبها. صار تطاوله عليها بالضرب نادرًا، هو يحسب حسابًا لانقطاعها عن العمل، خاصّة وأنّ دخله من وراء التمائم التي يكتبها لأبناء حارته، كان ضئيلاً، لا يكفيهم ثمن الخبز الذي تلتهم جميلة معظمه. كما أنّه صار يخاف من نظراتها، فقد أصبحت

كلّما رأته يتبدّل شيء في سحنتها، يغادرها ويترك مكانه لعينين جبّارتين، تفغران عن فراغ جائع يكاد يشفط العالم أمامه. كان أبوها قد انحشر في مكان ما في عالمها الداخلي مغلق الأبواب، المليء بأسرار لا أحد يعرفها.

دخلت البيت تلهث بعد أن دفعت الباب بقدمها، ثم دفعت أخاها الصغير الذي تعثّرت به وهي تقتحم البيت بهذه القوّة والانفعال، فأردته أرضًا، وراح الصغير يبكي من المفاجأة، والخوف من مرأى أخته على هذه الحالة. لم تكن تريد أن ترى أحدًا، أولئك العلقات، الإخوة الذين يمتصّون دماءها، وذاك الابن الكلب الشيخ أبو العزّ الذي لم يشبع من النسوان إلى اليوم، لم تردعه جبّة الشيخ، لم تغسل قلبه ولا لسانه الآيات التي يقرؤها على المغفّلين الذين يقصدونه، لا، لا تريد أن ترى أحدًا، كلّ البشر أنذال، كلّهم يكرهونها، بل ويدبّرون لها المكائد. سوف تنتقم من منال، من هذه المفترية الكاذبة: ماذا كنتِ تفعلين يا جميلة مع سليمان من كم شهر، آه؟ هل تظنّين أنّي صدّقتُه لمّا قال إنّه يحقّق معك؟ أنا أعرفك جيّدًا وأعرف ما الذي يحصل بينك وبينه، روحي تطلّعي إلى نفسك بالمراية، شوفي بطنك مثل المرأة الحامل، أم هذا القفا الذي يرتجّ خلفك، كلّما مشيت، مثل القفّة. يومئذٍ انقضّت عليها جميلة، وأخذت بتلابيبها، كانت منال تتخبّط بين يديها مذعورة كالأرنب الصغير، وجميلة تنهال عليها ضربًا ولكمًا وشتائم بذيئة، وهي تلهث وتنضح عرقًا إلى أن استطاعت العاملات فصلهما بعضهما عن البعض، عندئذٍ انزوت جميلة في ركن بعيد من الصالة، وغادرتها منال ولم تعد.

لم تهمد ثورتها في وجه إخوتها، بل تضاعف غضبها أكثر، فاندفعت تنبش الثياب المطويّة بعضها فوق بعض في صندوق يركن خلف باب الغرفة، تطوّح بها عاليًا، تصرخ: أين الثياب التي أشتريها كلّ شهر؟ أين أقلام الكحلة والحمرة؟ أين مشطي ومرايتي؟ من سرق منّي كلّ شيء؟ من؟ كلّهم كذّابون، كلّهم يفترون عليّ، أنا كبر بطني لأنّي آكل كثيرًا، أنا لست حاملاً مثلما يفترون، سوف أحرق الدنيا فوق رؤوسهم، سوف أجعلهم يعرفون من أنا، أنا أشرف منهم كلّهم، أنا سأربّيهم.. واستمرّ الصراخ والوعيد والشتائم إلى أن انقطعت أنفاسها وصارت تلهث، ثم هوت على الأرض في زاوية الغرفة، وانطوت على نفسها وغابت عنهم سارحة خلف نظراتها، غير مكترثة ببكاء أمّها، ونظرات الخوف في عيون إخوتها. كان بعض الصغار قد تجمّعوا أمام البيت، على صراخها، وبدأت الأصوات ترشح من الخارج: جميلة المجنونة. جميلة المجنونة. فاندفع أخوها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فتح الباب وانطلق إليهم، عيناه تقدحان شررًا وأخذ يصرخ بهم، يركض خلفهم، يرميهم بالحجارة وهم يفرّون أمامه ويردّدون: جميلة المجنونة، جميلة المجنونة، فيزداد جنونه وتزداد ضراوته، يعدو أسرع وأسرع إلى أن تفرّق الأولاد في الزواريب، فعاد يملأ صدره القهر والغيظ، والأسى على أخته.

ـ ٢١ ـ

انطلق جمعة صباحًا مع الحمار بعد ليلة أمضاها يتقلّب حتى الفجر، تتزاحم في مخيّلته الصور، وتتصارع الأسئلة من دون أن يصل إلى إجابات. كان اللقاء الذي وقع بينه وبين دلال قد رماه في مواجهة نفسه، واستحضار الماضي كثيفًا، مواجهًا لمستقبل مبهم. لقد عاش تجربة فريدة، غريبة، مثيرة. كان يستطيع أن يتذكّر في الليل، وبرغم ازدحام الأفكار في رأسه، مدى غرقه فيها حدّ شعوره بنفسه بطريقة مختلفة تمامًا عن بقيّة حياته. كان يستطيع أن يتذكّر شعوره بالنشوة تمتلكه حدّ الغياب، وأنّه كان سعيدًا في تلك اللحظة التي تمرّ الآن كالسراب، تومض وتنطفئ، ولكن لماذا خيّم عليه شعورٌ بالتعاسة وهو يتمدّد فوق لوح الإسفنج في فناء الدار مثل كلّ يوم؟ لماذا اضطرب وشعر أنّه ضيّع الطريق الذي كان يمشي فيه نحو هدف حياته؟ لماذا خطوة وحيدة تعثّر بها في لحظة وجود حقيقي جعلته يفقد البوصلة، مع أنّها كانت لحظة جميلة على ما يذكر؟ لماذا داهمته ذكرى جميلة، والتفّت صورتها حول عنقه، وانهمر عليه الماضي البعيد مترعًا بالوجد والشجن والحنين؟ ولماذا

اضطرب بمواجهة ذلك الماضي؟ أسئلة كثيرة ابتدأت مع الليل، ولم تنتهِ بعد، وها هو يمشي كالتائه، لا يعرف في أيّ اتّجاه يسير، هو يعرف حقيقة واحدة فقط، هي أنّه لا يريد الذهاب إلى شارع الجمهوريّة، لا يريد أن يواجه نفسه أمام ذلك البيت الذي كان حلمًا شغل تفكيره أيّامًا طويلة، أمضى ساعات أطول وهو يعمّره بحياة يحبكها في باله، وإذا به بيتٌ آخر تسكنه حياة أخرى جرفته كالدوّامة، التفّت به الدنيا بين جدرانه، انكشفت أعماقه عن رجلٍ غريب يسكنه، رجل يعرف مجاهل نفسه أكثر منه. لا يستطيع ملاقاة ذلك البيت، ثم ألم تطلب منه أن ينسى ما حصل بينهما؟ ألم تطلب ألّا يعود ويراها؟ كيف يمكن للنسيان أن يطوي ما حصل؟ إنّه أمر وقع بدون إرادة أو تخطيط مسبق، عندما جاءها بكيس الأوراق لم يكن ينوي على أمرٍ مشابه، لكنّ الأمر وقع بانجذاب من الطرفين كما لو أنّه حصل في الأحلام، في رحاب النوم بعيدًا عن مراقبة الذات، كانا امرأة ورجلاً، وكانت أمواج تمور بين الجسدين، انجذب الجسدان أحدهما إلى الآخر، التحما، وما حدث بعدها شيء لا يمكن تفسيره، لكنّها لم تتركه وشأنه، لقد فتحت عليه بوّابات الجحيم، فهو منذ الليلة الأولى جافاه النوم، اضطرب ميزان حياته، بل اضطرب توجّهه، ها هو يهيم مع الحمار في الطرقات، لا يعرف كيف يبدأ يومه، ولا كيف يؤسّس لبرنامج جديد من أجل أيّامه القادمة. حتى مهنّا الذي صار ركنًا أساسيًّا من أركان يومه سوف ينتقل إلى مكان آخر، فما الذي يجعله يرتاد شارع الجمهوريّة بعد؟

التفّ مع حماره يمينًا بعد محطّة القطار، كانت رحلة قد

وصلت للتوّ من حلب، والمسافرون يخرجون من البوّابة الكبيرة للمحطّة، كان جمعة يمشي بمحاذاة الرصيف، لكنّه اضطرّ أن يبتعد عنه أكثر بسبب عدد السيّارات الواقفة بلصقه، وتزاحم سيّارات الأجرة على المكان لاصطياد الركّاب. صار يمشي مع حماره كما لو أنّهما دخلا متاهة، ويحاولان الخروج منها، وأبواق السيّارات الأخرى في الطريق لا تكفّ عن الضجيج. تابع طريقه وسط اندهاش الحمار من هذا التغيّر المفاجئ في طريقهما الذي كان بإمكانه أن يجتازه مغمض العينين. توجّس من هذا التغيّر، إنّما لم يحرن، فقد نوى على أن يتأنّى حتى يعرف إلى أين سيصل جمعة في طريقه الجديد، بعدها سيقرّر ماذا عليه أن يفعل، خصوصًا أنّ اجتماعه بأبناء قبيلته من الحمير والبغال في البرّيّة جعله أكثر صبرًا على أحلامه، بعد أن اتّفقوا بالإجماع على قرارهم الذي سوف ينفّذونه قريبًا، فالخطّة يلزمها تكتيك معيّن، لأنّ الفشل غير وارد بالنسبة لهم.

كان الجميع مثله يتوجّسون من يوم سوف يأتي، يستغني فيه أصحابهم عنهم، فيلفون أنفسهم مرميّين للبرد والجوع، وقد كبروا بالعمر، وبات يصعب عليهم تدبير حياتهم، لذلك ارتأوا أنّ خيارهم بانتزاع حرّيّتهم بأيديهم أمرٌ لا يحتمل التأخير. ها هي تلك الكتل المتحرّكة تحتلّ مكانهم في كلّ الميادين، والبشر يهلّلون لها، هؤلاء البشر الذين يُجيدون التخلّي. سوف يتخلّون عنهم. هو يعرف أنّ البغال حوصرت أكثر من الحمير، فقد سُنّت قوانين ضدّها، منعتها من المرور في شوارع المدينة، صارت الطنابر تمرّ في بعض الأماكن بحذر، كان بغل برهوم قد أخبره بهذا، حتى إنّ

برهوم كان يدفع أحيانًا مالاً لبعض الرجال المسؤولين عن ضبط الشوارع ومنع البغال والطنابر من المرور فيها، فيغضّ النظر أولئك الرجال، لكنّهم كانوا يشترطون عليه وقتًا معيّنًا يمكن أن يتجاوزوا القوانين خلاله، وكان برهوم يذعن. حتى باعة المازوت تخلّوا عن بغالهم، استبدلوها بتلك الآليّات التي تمشي على الوقود، أو بسيّارات السوزوكي. ونحن الحمير، كان الله بعوننا، لم يبقَ إلّا القليل منّا، ما يحيّرني هو أين اختفى أقربائي، كانوا كثيرين، قلّ عددهم فجأة، يا ترى أخذوهم جميعًا إلى تلك البلاد التي يتقاتل الناس فيها؟ لن يبقى لهم مجالٌ آخر سوى أن يُباعوا إلى مناطق الحروب والنزاعات ليموتوا هناك من أجل قضايا لا تخصّهم، يقف خلفها الجشع وحبّ السيطرة. وأبو طافش يفكّر على طول الطريق بالهواجس هذه، ناسيًا صاحبه، منقادًا بقوّة الجرّ التي يمارسها جمعة عن طريق الحبل.

اضطرب جمعة عندما مرّ من أمام مبنى الريجي، أسرع في مشيته كمن يهرب من ملاقاة أحدٍ ما. بدا عرجه أقسى من الحالة المألوفة، وازداد عرج الحمار أيضًا، صار منظرهما وهما على هذه الحالة لافتًا، ومثيرًا للضحك من قبل بعض المارّة. لم يكترث جمعة بأحد، بل لم يكن يرى أحدًا حوله برغم الحركة الكثيفة والازدحام الشديد، وضجيج السيّارات. كلّ شيء حوله كان يحدث في مكان آخر بعيد، فهو غارق في عالمه الخاصّ، بعيدًا عن لوحات الإعلانات المزروعة على الأرصفة تروّج للعلكة، وأنواع المنظّفات، واللحوم المعلّبة، وفوط الأطفال، وكلّ أشكال الاستهلاك في هذه الحياة المبتذلة. وزاد في غرقه تذكّرُ جميلة،

كان يهرب منها في أعماقه، فيغذّ السير كأنّما هي تلاحقه في طريقه.

زاد في دهشة الحمار أنّ صاحبه يمرّ بالحاويات ولا يتوقّف عندها، ما الذي يريده هذا الجمعة غريب الأطوار؟ لماذا هذا المشي بلا فائدة يا صاحبي؟ شُف هذه الحاويات، تفتح الشهيّة على الشغل من كثرة ما فيها وحولها من الزبالة، لماذا لا تتوقّف وتلتقط رزقك؟ ما معك حقّ، لا تترك يومًا يمرّ بحياتك بلا فائدة. لكن ما في نتيجة، أنا حمار وأنت بني آدم، كيف يمكن أن يفهم أحدنا الآخر؟ بل كيف ستسمع نصيحة من حمار؟

بينما كان جمعة مسترسلاً في أفكاره، يمشي من دون وجهة، ألفى نفسه أمام مكتب الدور، انعطف يمينًا، ومشى مثلما لو كان تحت تأثير جاذبيّة خاصّة باتّجاه البيت الذي يبنيه بين الأشجار، بعيدًا عن تجمّع الناس، منعزلاً في صمت الطبيعة هناك.

ولم يكن يشعر كعادته بلهفة إلى الوصول، أو رغبة تلحّ عليه للبدء بالعمل، بل شعر أنّ شيئًا يتّصل بالبيت غادره، وأنّ ما كان يراه من جمال يملؤه بالغبطة عندما كان يتوقّف بين حين وآخر عن العمل ويتملّى، صار هباءً لا يستطيع لملمته. لم يشعر برابط بينه وبين ما أُنجز، كأنّه يرى شيئًا غريبًا يسأل نفسه عن جدواه، بل رآه تشكيلاً محيّرًا لا يعرف كيف يقاربه، ولا من أين يباشر كي يكمل ما بدأه. توجّه إلى المكان بطريقة آليّة خالية من أيّ إحساس. ربط الحمار قريبًا منه، ووضع له كيس علفه، ثم دخل البيت الذي لا سقف له، أشعل سيجارة وجلس في إحدى الزوايا، مادًّا ساقيه

أمامه، وراح يفكّر. هو يدرك أنّ البيت يجب أن يُنجز بأسرع وقت، فقد تأخّر كثيرًا، لكنّه لا يستطيع أن يستحضر تلك الهمّة التي كانت تتّقد في داخله عندما بدأ بالعمل. أين جميلة الآن؟ ولماذا تعترض طريقه قصّة مثيرة كالتي عاشها مع دلال؟ لماذا غادرته السكينة منذ ذلك اللقاء؟ لم يعد يشعر بتلك النفحة من السلام في أعماقه، صار جسده يلحّ عليه أكثر، يصرخ به، يشتاق إلى دلال، ويحرقه الوجد وهو يستحضر طيف جميلة.

بعسرٍ استطاع جمعة أن يقحم نفسه في تصوّر أشكال شتّى للسقف، بعد عناء كابده ، قرّر أخيرًا أن يجعل للبيت سقفًا مائلاً، يشبك قضبان الخشب بعضها إلى بعض ويثبت فوقها ألواح الصفيح، سوف يباشر اعتبارًا من الغد، هكذا وعد نفسه، إنّما لم يكن لديه حافز، ولا رغبة. لم يشعر بتلك الدفقات من الحبور وهو يتصوّر الشكل قبل أن يشتغله كما كان يحصل معه سابقًا، بل كان يسيطر عليه إحساس هو أقرب إلى الشعور بالواجب الذي لا فكاك منه. لم يرحه هذا الإحساس، بل شعر بشيء من عدم الرضا، وأخذ يلوم نفسه ويسألها ما العمل؟ يتحتّم عليه القيام بأمر ما، يجب ألّا يستسلم لحالته المربكة هذه، هو بحاجة إلى العون، أوّل مرّة يشعر بحاجته إلى شخص آخر، وبوطأة وحدته. لماذا لا يذهب إلى الحارة التحتانيّة حيث بيت أبو العزّ، يختفي في مكان ما، ينتظر عودة جميلة ويكلّمها؟ يعرف أنّ هذا تهوّر كبير منه، وأنّ هذه المغامرة لم تخطر بباله كلّ السنين الماضية، فالسنون مرّت على وعد بينهما، لم يحسبا أنّ الزمن سيحيله إلى النسيان، لكنّ وضعه اليوم مغاير، هو الآن يستطيع أن يواجه كلّ أشكال المخاطر من

أجل أن ينجو ممّا يعاني من ارتباك وفوضى. أقنع نفسه أنّ الحلّ من أجل عودته إلى نفسه، وإلى انتظام حياته قبل أن يتمكّن منه الضياع، يكمن في مبادرته هذه، وفجأة شعر أنّ العزيمة التي تتّقد في نفسه بإمكانها أن تجعله يقتحم الأهوال مهما بلغت خطورتها. سوف يختبئ عن العيون، ينتظر جميلة في طريق عودتها، يقفز أمامها، سوف تجفل جميلة، وتفزع، لكن سرعان ما سوف تهدأ، وينتابها الفرح. سوف تسعد بلقائه بعد كلّ تلك السنين. لن يطيل الوقوف معها كي لا يراهما أحد، سيقول لها: اشتقت إليك. سوف تتضرّج بحمرتها، وترتبك، وتبقى صامتة كعادتها، لكنّ عينيها ستقولان ما تصمت عنه، سيخبرها أنّ هديّته لها أوشكت أن تُنجز، سوف يأتي ويخطفها كما اتّفقا في لقائهما البعيد، ثم سيختفي بالسرعة التي ظهر فيها.

هبّ واقفًا ممتلئًا بالعزيمة، مشى إلى الحمار، فكّ الحبل، جرّه خلفه ومشى. كان الحمار راضيًا عن قرار صاحبه وعودتهما الباكرة، وأنّه لم يضطرّ إلى انتظاره إلى حين الانتهاء من عمله الذي لا يمكنه التكهّن بوقت إنهائه. كان يعرف أنّ كلّ وصلة له في هذا العمل تختلف عن سابقتها، فمزاج هذا الشخص غريب متقلّب. لذلك ابتهج لهذه المفاجأة، وراح يعد نفسه بأحلام عذبة بمجرّد وصوله إلى الزريبة.

مشى جمعة باتّجاه مكتب الدور، ممّا فاجأ الحمار، بعد الاندفاع الذي كان ظاهرًا عليه في أوّل الطريق. تراخى جمعة بالتدريج، ثم فترت همّته على وقع التردّد الذي انتابه، مع كلّ

خطوة كانت تتفتّق في ذهنه احتمالات لم تخطر بباله، فتزيده إرباكًا. ماذا لو أنّ جميلة نسيته ونسيت وعدها مع الزمن؟ ماذا لو أنّها لم تعد تحبّه؟ ماذا لو لم تتعرّف عليه؟ لماذا تباطأ هو كلّ هذه السنين ولم يحسب حسابًا للزمن؟ وماذا لو علم والدها؟ هل ستواجهه وتقف في وجهه وتقول له: أنا لا أريد إلّا جمعة؟ أم ستستسلم كما المرّة الماضية، والعمر يفلت من بين الأيدي؟ إلى متى سيبقى ينتظر وجسده يشتعل رغبة بعدما جافى الرغبات كلّها؟ لماذا عليه أن يكون غير بقيّة الرجال وقد عاش تجربة الجسد وارتشف متعتها؟ ها هي الرغبة تصرخ به من جديد، نداؤها يبدّده اشتهاءً، سوف يلبّي قبل أن تحرقه شهوته. وهكذا لم يجد نفسه إلّا على أعتاب شارع الجمهوريّة، والحمار يتردّد في مشيته، يحرن قليلاً، ثم ينقاد.

كانت دلال أيضًا في متاهتها الخاصّة، ما زال ضجيج لقائهما يتردّد في أعماقها، فتصعب عليها وحدتها أكثر من قبل، عندما غادرها وطلبت منه ألّا يعود ثانية ليراها، كانت تضمر في نفسها رغبة جديدة به، هي تعرف أنّ امرأة أخرى طلبت منه، وليست دلال المختبئة في باطنها مقهورة منذ الأزل، دلال التي تفيق على هذا الكمّ من الإثارة والخسارة، ترى العمر يفرّ من بين يديها ولم تكتشف الحياة بعد. سألت نفسها كثيرًا في الليل، بعد أن وقفت على حدود نزيفها على الملاءات: من هذا الغريب الذي أشعل الرغبة في جسدي، ولم أعرفه من قبل؟ هل كان عليّ أن أنتظر قصّة حبٍّ قبله، أو أنتظر زواجًا مرتّبًا حتى أعيش هذه اللحظة؟ ها هو الأمر قد حدث بعفويّة خالصة، من دون مقدّمات أو مبرّرات، لم

نكن إلّا امرأة ورجلاً، وشيئًا ما يجذبنا، لماذا كان عليّ أن أنتظر كلّ هذه السنين، وأسقط تحت رحمة المرض، يلوّح لي الموت بيده الشاحبة، يدعوني إلى مغارة حالكة السواد لا عودة لي منها، حتى أنتبه إلى الأخرى المدفونة في نفسي، تحتضر في أعماقي وأنا أتجاهل صراخها؟ لماذا كنت أهرب بعيدًا عنّي فيما مضى، وأتركها ترتجف في عرائها؟ لكن هل هذا هو خيارك يا دلال؟ هل هذا هو الرجل الذي انتظرت طويلاً حتى تهديه نفسك؟ هو الغريب الذي لا تعرفين عنه شيئًا، وأنت التي رفضت رجالاً كثيرين لأنّهم لا يناسبون مكانتك؟ حتى غسّان الذي توهّمت أنّك أحببته وأحبّك، لم تهدِه أكثر من الكلام، حتى يدك لم تلامس يده، هل كنتِ ستعيشين التجربة معه بالإثارة نفسها؟ أم هو الموت يا دلال؟ الموت الذي ينتظرك خلف الباب؟ لا تفتحيه قبل أن تغوصي في الحياة، أقفلي الأبواب في وجهه حتى ترتوي عن عمرٍ مضى. لا تسمحي لمبضع الجرّاح أن يلمسك قبل أن يأخذ جسدك حقّه الطبيعي من الحياة، ما همّني إن كان غريبًا أو قريبًا؟ هي لحظة قبضت عليها بعدما انتبهت إلى حركة الزمن، تشبّثت بها وقد فاتني الكثير وأنا أرصد السكون حولي. لم يكن العالم أكثر من صور معلّقة على جدراني الراسخة، صور بلا ألوان حتى، بالأبيض والأسود، لتذكّرني في كلّ لحظة بأنّ الحياة لا تحتمل تعدّدًا لونيًّا، هي إمّا أبيض، أو أسود، وما بينهما مراوغة ماكرة. صور الموتى، من الجدّ الأوّل الباقي في الذاكرة، انتهاء بأمّي وأبي، كلّها ممهورة بشريط أسود في إحدي زواياها، تصادر شبح ابتسامة على وجه صاحبها، وتلزمه الصمت الرصين كما يليق بحياته التي صارت

قدوة. بلى يا دلال، على الموتى أن يكونوا قدوة لنا بما نحمّلهم نحن الأحياء الذين بقينا بعدهم، من نظمنا ومنظوماتنا التي لا نستطيع مواجهتها عزّلاً من سطوة غيبيّة.

أيّها الموتى: اسمعوني جميعًا، افتحوا آذانكم وعقولكم، أنا التي ستكون القربان، أنا التي ستخترق مهابة صمتكم، وجلال رصانتكم، أنا التي تصرخ في وجوهكم الآن أن ابعدوا عن طريقي، دعوا لي درب الحياة مرّة واحدة أمشِهِ بمفردي، أدُس عليه بخطواتي، أجرح بشوك أدغاله، اتركوني، وابقوا حيث أنتم، تعتلون جدران عوالمنا، ترصدون حتى أحلامنا، أنتم لا تكتفون ببراويزكم المزنّرة بالأسود، بل تغادرونها في عتمتنا، وتندسّون في أحلامنا، تدفعوننا إلى ساحات التعذيب تحت سوط ضمائرنا، إلى عذاب الشعور بالخطيئة. لماذا؟ هل يغيظكم أنّكم متّم ونحن ما زلنا أحياء؟ أعتقونا. ألم تنعتق أرواحكم بعد؟

ربط جمعة حماره بعيدًا عن البيت، ومشى كمن يخطو وهو نائم، غائبًا عمّا حوله، يدقّ قلبه بسرعة، تلحّ عليه رغبته، تتّقد في داخله عزيمة أقوى من التي شعر بها عندما نوى في سرّه أن يفاجئ جميلة. أمام رغبته المستبدّة، وشهوته المستعرة كان قادرًا على اختراق وابلٍ من الرصاص، لا شيء يمكن أن يقف في طريقه ويردعه، حتى مواجهة الموت. هو الآن مستعدّ للموت في قمّة نشوته. اندفع أكثر مقتحمًا باب السور، اعتلى الدرجات الأربع كما لو أنّ ساقه المعطوبة شُفيت من قصرها واستعادت عافيتها أكثر من السليمة. لم يتردّد أمام الباب، بقبضة واثقة طرقه عدّة طرقات وفي

نفسه إحساس أكيد بأنّ الباب سيُفتح، وأنّ دلال التي طلبت منه أن ينسى ستكون في غمرة الذكرى، وستكون في انتظاره.

انفتح الباب، وأطلّت دلال، نظرت في عينيه، لم تفُه بأيّ كلمة، وهو لم يحدّثها، اندفع داخلاً، لم تمانع، أغلق الباب من دون أن تطلب منه هذه المرّة. وقف أمامها يلهث متطلّعًا في عينيها، كأنّه يقرأ استسلامها، ويغبطه هذا الاستسلام، من دون مقدّمات أحاطها بذراعيه وراح يقبّلها بنهم ولهفة. أحسّت مع قبلاته وعناقه لها بأنّ وزنها يخفّ والأرض تنسحب من تحت قدميها، وهي نشوانة بهذا الإحساس. كادت أن تبكي، اختلطت السعادة بالقهر والحسرة، لماذا لا يتركها الموت وشأنها طالما لم يحن موعده بعد؟ لماذا يعتدي على سعادتها في أكثر لحظاتها تجلّيًا؟ هو يعرف نفسه أنّه الحاكم الآمر الذي بيده المواعيد، فليكن إذن أكثر رحمة، وأكثر شهامة، وليترك لها الحياة نقيّة من لونه الشاحب.

ذابت دلال بين ذراعي جمعة، غابت عن الوجود حولها، وحلّقت عاليًا. حملها جمعة ودخل الغرفة بها، وضعها على السرير، وراحت يداه تنزعان عنها ثيابها وهي مستسلمة لسطوة يديه على جسدها، تغوص بمتعة إلى مجاهل نفسها المتّقدة، تروي ظمأها من الجسد الآخر. التحم الجسدان في عريهما، توحّدت الأنفاس في إيقاعاتها، نضح العرق متناغمًا بينهما، غابا عن الوجود، انكمش الزمن بخفّة وسحب غطاءه السميك عنهما، غاب الجسدان في فتنة لحظة تكاثفت الحياة فيها، فكانا كقربانٍ منذور لها.

.

عندما أفاقت دلال من نشوتها، استرخت على شواطئ

السكينة، تنصت إلى حديث الصمت في كيانها، وكان جمعة غائبًا في دهاليز نفسه هو الآخر. عاريان يستلقيان متلاصقين على سرير شهد قبل اليوم نزيفهما، وهو الآن يشهد عرسًا جديدًا، وأخذت دلال تبحث عن الفرق بينها اليوم وبينها أمس، أيّ استبداد كان يمارسه هذا الغشاء اللعين على مدى السنين؟ ما الذي تغيّر فيها بين ليلة وضحاها؟ ها هي تستلقي بأمان فوق سرير طالما كان شاهدًا على أنينها، لم ينقص منها شيء، بل هي تشعر أنّها أكثر عافية في هذه اللحظة، كما لو أنّ الموت قرّر نسيانها، فسحب يده التي تحمل المرض من كيانها.

عند الباب وقفا صامتيْن، كأنّ حديثًا يدور بينهما، أو وعدًا بلقاء آخر. وقف الاثنان متقابلين، قبضة الباب تمسك بها يدان تنضمّان عليها في لحظة انتظار، هما لا يعرفان ماذا ينتظران أمام الباب، كلّ ما يعرفانه أنّه سيفتح بعد قليل، وينغلق، ليعود كلّ واحد إلى حياته الأخرى، إلى الواقع الشرس الذي يبتلع بلا رحمة، يجترّ ويُعيد الاجترار في معدته الجائعة. دلال في سكوتها رجاءٌ بأن يعود إليها، بأن لا يتركها وحيدة في حلبة المصارعة، بينها وبين ثور الموت الهائج. هي خائفة ومنبوذة حدّ العجز، تريد أن تهرب من نفسها إليه، وهو من سيأخذ بيدها إلى رحاب ذاتها المضيّعة، هو الرجل الذي اختبأ في أعماقها منذ الأزل، يقف الآن أمامها كحقيقة لا تقبل الجدل. هي لا تعرف اسمه حتى، وما الذي يعنيه الاسم في لحظة قوّتها هذه؟ بل هي لا تريد أن تعرف، يكفيها في ليالي وحدتها أن تناديه، أيّها الغريب! تعال واقطف العسل من شهدي، خبّئه في جرار الزمن، قبل أن يداهمني الموت في غفلة

منّي، اعصِر كرومي وعتّق نبيذها في أقبية الوقت، أريد أن أترك وشمي على الحياة ليبقى شاهدًا على أنّني مررت بها، ولم أتجاهل فتنتها، بل عشت الغواية اللذيذة حدّ الثمل.

تجمّد الزمن فوق قبضة الباب. في لحظة الفراق هذه صراخ مكتوم من أجل البقاء، محنة الافتراق تلجمهما عن الحركة، هو لا يريد، وهي لا ترغب. هناك عودة محتملة تترصّد بهما من خلف الأشياء في هذا البيت المغلق على أسرار الوجود، لكنّ صراخًا آخر يأتي من الخارج، من الواقع الكثيف للحياة الأخرى التي يعمّرها البشر بكلّ إبداعاتهم الماكرة، وتلقي شباكها السرّيّة في فضاء الكون، تلعب بهم بخيوطها المخفيّة على مسارحها الخادعة. نداء الواقع يشطرهما، تُدار القبضة، يدخل هواء الخارج من شقّ صغير أحدثه انفراج الباب المرتبك، يندفع الهواء أكثر، ينفرج الباب أكثر، ينفتح سريعًا، يهبط جمعة درجات أربعًا تودي به إلى مخرج يرميه في شارع الحياة. دلال تختفي خلف باب يُجيد فصل العوالم بعضها عن بعض، يُعيدها إلى متاهة الهواجس التي لا تنتهي، على حقيقة مرضها الذي يكمن متربّصًا بصحّتها في منطقة مظلمة، شكّلتها الطبيعة كي تصنع الحياة، فهجم السرطان عليها بكلّ ضراوته وشرّه. تقف ساهمة وسط صالة البيت، تدور ببصرها في أرجائه، تفتّش في الزوايا، تمسح الأبواب، تنصت إلى همس بعيد. فجأة تنتفض وتهرع إلى المطبخ، تحضر السلّم، تعتليه، وتبدأ بإنزال الصور عن الجدران.

انطلق جمعة مسرعًا إلى حماره الذي كان يمضي الوقت في

انتظار صاحبه المزعج في الأيّام الأخيرة، وهو يعاين الشارع الذي حفظه عن ظهر قلب في الماضي، ليكتشف أثناء هذه الوقفة الطارئة كم كان غريبًا عن هذا الشارع، بل كم كان غافلاً عنه، ولم يكتشفه إلّا في هذه اللحظة، بدا له قبيحًا، فوضويًّا، وسخًا، تنتشر الزبالة في أرجائه كأنّها جزءٌ أساسيٌّ من كيانه، تفوح منها الروائح التي يعافها هو الحمار الذي يمتلك خبرة شمِّيّة مختلفة عن البشر، ومع هذا كانت تُثير قرفه. لم تكن تلك الروائح موجودة في عالمه البعيد، في البراري التي سكنها أسلافه، كانت الحياة أبهى وأنقى. منذ متى انتُهك جمالها بطريقة عدوانيّة، فلم يبقَ من فتنتها إلّا ما يشكّله البشر في استعار جنونهم هذا؟

شعر أبو طافش أنّ صبره أخذ ينفد، لم يعد يطيق احتمال الحياة بالطريقة الحاليّة، بعدما تكشّفت له الزوايا المخفيّة، فصدمَه وعيُه على حقائق أخرى، واضطرب تعاطيه مع الحياة. صار يحلم ويأمل في سرّه قبل مجيء جمعة بألّا يطول الانتظار، يدعو لرفاقه بالتوفيق في تحضيراتهم، ويشحذ الهمّة في نفسه، يطلب منها أن تتحلّى بالصبر، فالفرج لا بدّ من أن يأتي.

فكّ جمعة الحبل، جرّ الحمار خلفه، عائدًا إلى البيت وهو غائب عن نفسه، غارق في تذكّر الصور واستردادها. ضيّع الأماكن، والحاويات، ومشوار البحر، كلّ تلك التفاصيل التي كانت تشغل حياته، أفلتت من دائرة وعيه، واستسلم لدوّامة نفسه تجرفه إلى أعماقها، فيهيم في دروب عالم آخر أصابه بدهشة لم يبرأ منها.

ـ ٢٢ ـ

تغيّر حمّود كثيرًا بعد أن هجر البيت المستور وأعلن توبته أمام نفسه منذ مدّة طويلة. كان قد باع البغل واستمتع بمداعبة المال ليديه. حقّق أحلامه المستعجلة، انتصر بالمال لرجولته المظلومة مع دنّورة البائسة. كان يقتحم ذلك البيت بثقة عارمة، ما دام المال معه فهو يستطيع فرض شروطه ورغباته، ولم يكن خافيًا على شيطانته تبدّله هذا. صارت تسرف في تدليله، توهمه بأنّها شغوفة به وبفحولته، وأنّه الرجل الذي تنتظر، ولم تعد تطيق منح نفسها إلى أيّ رجل آخر. صار هواها الذي يؤرّقها الليالي، بل حتى لم تعد تقبل أجرًا منه لقاء منحه نفسها. كانت قد اتّفقت مع معلّمتها على تمثيل ذلك الدور. قالت له المعلّمة، ومشرب النرجيلة يستند على زاوية فمها اليمنى، تداعب مقبض الخرطوم بأصابعها، عندما أدخل يده في جيبه ليأخذ المال الذي سيدفعه قبل الدخول إلى الحجرة:

ـ فوت يا عمّي فوت! والله ها البنت حيّرتني، وأنا حريصة عليها، هي مثل بنتي، الله يكون بعونها، هذا آخر شيء كنت أتوقّعه، أنت! ماذا فعلت بها آه؟ على طول عمري في هذه المصلحة ما في واحدة من بناتي أحبّت غيرها. ترى إذا بقيت هكذا

ترفض أن تفوت مع زبون غيرك لن أقدر على أن أحميها، محتمل أن يأتي زبون مليان وعينُه حمراء يطلبها، ما الذي أستطيع عمله ساعتها؟

وكان حمّود يمتلئ زهوًا أمام نفسه، يدخل على شيطانته باندفاع ديك منفوش الريش، تتلقّفه بين ذراعيها وقد استعدّت للغواية، مبتدعة في كلّ مرّة شكلاً جديدًا لها. كانت تداعبه، تتلوّى بين ذراعيه، تنزلق من حضنه، تخرمشه مثل قطّة مستثارة، تنفلت الضحكات من فمها متغرغرة كصوت مياه النراجيل عندما يسحب حمّود الدخان ملء رئتيه. وعندما تصل به إلى مشارف الهلاك تحت وطأة غريزته النهمة، تتمنّع قبل أن تسلّمه نفسها، وهو ينهال عليها هصرًا ولعقًا وعضًّا، يوشوشها: اطلبي كلّ ما تحلمين به. وتحكي له عن الخواتم التي أغوتها، عن المنامات التي حلمت بها، عن تفكيرها به في الليل والنهار. ويأتي حمّود بعدها مخبّئًا هداياه في جيبه، يحيط مرّة إحدى أصابعها بخاتم انتقاه خصّيصًا لها، خاتم مشغول من أجل أصابعها فقط، أين منها أصابع دنّورة التي لم تترك له مجالاً لأن يفكّر بأن يلبسها خاتم؟ كان يقول للشيطانة: الذهب خُلق من أجل هذه الأصابع، شوفي كيف يلمع الخاتم أكثر لمّا يلبس أصبعك. ثم ينهال عليها تقبيلاً. وتتلوّى بين يديه، يزداد غنجها، تقترب من أذنه، تداعب شحمتها بلسانها، تعضّها بنعومة ثم توشوش بكلمات فاحشة، وعبارات داعرة، فيزداد لهيبه. ترتجف ركبتاه تحت وطأة الحمّى الماجنة، يكاد أن يهوي من فرط استثارته، يسحبها باتّجاه السرير فتمانع، يشدّ على يديها، تندفع إلى الخلف وهي تسلّمه يدها، فيتأجّج الحريق أكثر، إلى أن يصل إلى قمّة الاستثارة.

نفد مخزون حمّود من المال، عاش ساعات في جنّة المتع

واللذّات على مدى شهور قليلة، كانت تساوي ثمن البغل، لكنّ الغواية لم تخبُ، بقيت تلاحقه ضاغطة على أنفاسه في لياليه الطويلة، لم يستطع مقاومتها، ولم يكن قادرًا في الوقت نفسه على التنازل عن المكانة الرفيعة التي وصل إليها أمام شيطانته. عوّل على هيامها به، وعلى فحولته التي لفّت حبائلها حول عنقها، فذهب إليها في إحدى الليالي العاصفة، بعد ذهابه مرّتين قبلها وفشله في وصاله معها بادّعاء المرض ومنعه من مقابلتها. كانت ليلة شديدة البرودة من أيّام كانون، ينهمر المطر فيها غزيرًا مصحوبًا بنوبات من البرق يشقّ كبد السماء، يتبعه رعدٌ قاصف. لم يكن حمّود يحتمل صبرًا على اشتهائه، اندفع مهرولاً تحت المطر، يتقافز بين الحين والآخر من تحت المزاريب المتدفّقة بغزارة، ملاصقًا الجدران تحت الشرفات القليلة الضيّقة، إلى أن وصل مبلّلاً من رأسه حتى أخمص قدميه. كان مصمّمًا هذه المرّة على عدم الرجوع خائبًا، هو يعرف كيف سيرغم تلك البدينة التي لا يفارق شفتيها مشرب النرجيلة، على أن تسمح له بالدخول إليها. هي لا تعرف شيئًا عن الحبّ الذي يجمعهما، ربّما لاحظت شيئًا، لكنّه ليس إلّا النذر اليسير ممّا يجمعهما، سوف يرغمها ولن يسمح لها بصدّه عنها.

دخل البيت مغسولاً بماء المطر، كانت ثيابه تسيل، والماء يرسم خطوطًا خلفه، أمّا حذاؤه فكان يزقزق مع كلّ خطوة يخطوها، والماء ينفر منه، صرخت به المرأة البدينة:

ـ على مهلك، أين تريد الدخول وأنت على هذه الهيئة؟ ألا ترى الوحل الذي تجلبه معك على حذائك؟ على الأقلّ خلٍّ عندك قليلاً من الذوق واشلح عن رجليك قبل أن تدخل وتفوّت وسخ الشوارع معك.

لم يعرها انتباهًا، تصنّع عدم الاكتراث كأنّه لم يسمعها، واندفع باتّجاه الباب الذي اعتاد أن يدخله إلى العالم السرّي البهيج، لكنّ البدينة كانت أسرع بالتصفيق والطرق على الطاولة، ولم يكد حمّود يخطو أوّل خطوة داخل البهو المظلم حتى كانت يدان تمسكان به، واحدة من اليمين وأخرى من اليسار، حركة واحدة مثلما لو كانت اليدان لرجلٍ واحد، التفت حمّود إلى الخلف، فتلقّفته لكمة على خدّه الأيمن تلتها أخرى على الأيسر. استشاط غضبًا وراح يطوّح بيديه في الفراغ، أمام اللكمات المتتالية التي أخذت تنهال عليه قبل أن يستطيع فتح عينيه ويفهم ما يجري. راح يزمجر ويهدّد، والأيدي تتلقّفه، كلّ واحدة تسلّمه إلى الأخرى، حتى سقط على الأرض، وقُيّد من يديه أمام قدمي المرأة البدينة، وما هي إلّا دقائق حتى كان في البيت شرطيّان، واحد يحمل دفترًا كبيرًا بين يديه، والآخر أمسك بحمّود من تلابيبه مستنكرًا: تعتدي على بيوت الناس أيّها الحقير؟ ثم نظر إلى المرأة البدينة مستفسرًا: كم يومًا ترغبين بأن يكون في ضيافتنا حتى نربّيه يا أمّ وليد؟ نظرت أمّ وليد إليه وهو على تلك الهيئة المزرية، تطلّعت من فوق وابتسامة مواربة على فمها المطبق على المشرب، صمتت قليلاً، ثم قالت للشرطي: إذا اعتذر، وتعهّد بأن لا يرجع إلى هنا بعمره، ممكن أعفي عنه وأسقط حقّي. شوفوا ماذا يقول.

لم يكن حمّود يستطيع النظر في عينيها، كانت أمّ وليد هي الأقوى، وكان يغتسل بماء كرامته الموحلة، هو حمّود الفحل، الذي يجرّ أثقالاً أكثر من قدرة بغله على دفعها، المعروف في الحارة بفتوّته ورجولته، تأتي امرأة قبيحة لها سطوة كانت خافية عنه، تجعله يتمسّح بالأرض أمام قدميها؟ لكن ما الذي يستطيع

فعله، والحكومة متمثّلة بهذين الشرطيّين استنفرت لنجدتها؟ ثم لو أنّه اعترض وكبّر الأمر أكثر، أو حاول الانتقام لكرامته المهدورة، هل سيضمن النتيجة، وأنّ أحدًا من الحارة لن يدرك سرّه، ويجعله مسخرة في الحيّ؟ لا. ليس هذا هو التصرّف الحكيم، يجب أن يرضخ لشروطها، ويفسح مجالاً للزمن كي يؤازره إلى أن يستطيع الانتقام منها. وطال صمته، أو هكذا خُيّل له، فقد أخذ شريط حياته يومض أمام عينيه، وهو يلهث كالمخبول لا يعرف كيف يخرج من محنة حياته بأقلّ الأضرار، بينما كان ينزف من فمه دمًا، ومن أعماقه كرامة مسمومة.

رجع حمّود إلى بيته صاغرًا، مهمومًا، يتّقد الغيظ في أعماقه نارًا تأكله، جافاه النوم لياليَ لا تُعدّ. كان يتقلّب في فراشه، يزفر أنفاسًا حارّة والرغبة بالانتقام تستعر لديه، يمضي معظم الليل مفتوح العينين في عتمة البيت، يرسم في باله خططًا لا تنتهي من أجل الانتقام، كلّ يوم يبتدع خطّة جديدة، حتى إذا تسلّلت أولى خيوط الفجر إلى مخدعه يستسلم للنوم بعد أن تنهكه أفكاره، ليصحو في اليوم التالي على نهارٍ متطلّبٍ جديد، أمام الأفواه المفتوحة تطلب الخبز منذ الصباح.

هكذا صار حمّود يمشي متمهّلاً، بانحناءة خفيفة أعلى ظهره، يلبس الجبّة منذ الصباح الباكر، ويتّجه إلى الجامع، يصلّي ويلزمه أغلب النهار، يستمع إلى مشاكل الناس وقصصهم، يقرأ لهم الآيات، ويرشدهم، وعندما ينفرد بنفسه، تفيق تلك الذكرى المقيتة مرّة أخرى، يتذكّر إهانتها، فيأخذ يتمتم بصوتٍ هامس كأنّما يخاطب نفسه ويهدّئ من روعها: يمهل ولا يهمل. مؤجّلاً الانتقام إلى الغد الذي لا بدّ أن يأتي. وكان يجالس الشيخ يحيى كثيرًا،

يحكي له همومه، وكانت حالة جميلة بخاصّة تشغله، قال:

ـ البنت يا شيخنا تحيّرني. لا تحكي معنا بالبيت، ولا تتكلّم مع أحد في الشغل، تجيء وتروح لا نشعر بها، من جديد صارت عصبيّة كثيرًا، تصرخ على أخواتها، ولا تطيق أحدًا يقترب منها. والله محتار، لا أعرف ماذا أعمل معها.

ـ بنتك يا أبو العزّ صبيّة، ولم تعد صغيرة بالعمر، الله يستر عليها لازم تزوّجها.

ـ من أين سيأتي العريس يا شيخنا، إذا كانت رافضة تقعد مع واحدة من النسوان اللواتي يأتين لعند أمّها؟

ـ طوّل بالك عليها بعض الشيء يا أبو العزّ، أنا سوف أدبّر المشكلة، فقط أنت قل: إن شاء الله.

ـ إن شاء الله على يدك يا شيخنا سيهدأ بالها. أنت غامرنا بجمائلك، لست أنا فقط، إنّما كلّ الحارة، بدونك نحن لا نساوي شيئًا.

عاد يومها إلى البيت مفعمًا بالرضا، وأخبر دنّورة بحديثه مع الشيخ يحيى، وبوعده له بأن يسعى في زواج جميلة. دنّورة التي امّحت تعابير وجهها منذ زمان طويل، فلم تعد تعرف كيف تفرح أو تحزن، كما لم يكن يبدو على وجهها أيّ انفعال، بقيت صامتة، إنّما أمنية مدفونة في نفسها جرحتها في العمق. جميلة حلمها المقهور، هي لا تعرف أن تحلم، لكنّ حالة جميلة كانت تحزّ في نفسها، تؤرّقها في الليالي، تفكّر بها داخل جدران صمتها، وتستعيد، تحت سطوة لحظة الألم التي تنتابها، ذكرى ولديها اللذين ماتا وهي أمٌّ صغيرة، تعاند القدر من أجل القبض على

أمومتها. لم تُنسها زحمة الحياة، وما مرّ عليها من قسوتها، أيّ ذكرى لها علاقة بهما، كما لم تغب جميلة لحظة عن بالها، إنّما مزاجها الذي تلبّسها باكرًا، حتى باتت امرأة فاقدة التواصل مع الحياة إلّا بالحدّ الأدنى، جعلها تبدو غير مكترثة بما يجري حولها. لكنّ الحقيقة كانت غير ذلك، الحقيقة أنّ جمرًا كان دائم الاتّقاد تحت رمادها البادي للعيان. لم يرُق لحمّود صمتها، كما في مرّات عديدة، بالرّغم من أنّه عوّد نفسه على تجاهله، لكنّه في هذا الحديث بالذات كان ينتظر منها تعليقًا، ربّما لأنّه كانت تتنازعه رغبتان، أولاهما زواج جميلة الذي يتوخّى منه راحة باله بعد أن صارت همًّا بالنسبة إليه، هو لم يعد يطيق رؤيتها في هذه الحالة الجامدة التي تجعله يشعر أنّ الحياة أكثر سوادًا بكثير ممّا رأى منها، زواجها سوف يبعدها عنه، والبعد كفيل بأن يجعله ينسى، أو على الأقلّ يهرب من مواجهة حالتها. أمّا الرغبة الثانية، فكانت في الاحتفاظ بجميلة عنده، هي مصدر الدخل الأساسي في البيت، بدونها لا يعرف كيف يتدبّر حياة أسرته، ريثما يستطيع أولاده الذكور القيام بهذه المهمّة، أو ريثما يزوّج أختيها ويرتاح من مسؤوليّتهما. ولم تستطع دنّورة أن تفرح في سرّها، شيء ما وخزها في صدرها، قلبها دقّ بطريقة غريبة، توجّست منه. هي تتمنّى أن تزوّج جميلة، ربّما ليلة فرحها قد تعيد إليها قليلاً من وهج الحياة، لكنّ وعد الشيخ يحيى أربكها، لم ترتح لهذا الوعد، لكن لمن يمكن أن تبثّ هواجسها؟ لحمّود الذي لم يحاول في يوم من الأيّام أن يخترق جدار حزنها، ويكترث به؟ لا! لن تقول له شيئًا، هي تعرف النتيجة مسبقًا، فليبقَ الخوف بين ضلوعها، مثلما بقي الحزن وحده يبطّن أعماقها. لا فائدة ترتجى من هذا الرجل، ماضيه وحده

كفيل بأن يجعل قناعتها به راسخة كالجبال، عاشت معه عمرًا، وهي تعيش داخل نفسها من دون أن ينتبه إليها. لكنّه عندما غضب من صمتها، وأصرّ بأن يعرف رأيها قالت ببرودة: الله يجزيه الخير.

آنئذٍ، كانت جميلة تخرج من الشغل لتضيع في الشوارع، صار بقاؤها في صالة الفرز طيلة ساعات الدوام أمرًا لا يمكن احتماله، كانت تشعر بالاختناق، يتفاقم شعورها بالاختناق حتى تعتريها حالة من الهلع تسيطر عليها، فتضطرب وتخرج مسرعة، حدّ أنّها كانت تنسى أن تطلب إذنًا من مراقب الدوام. ولعلّ نفورها منه منذ ذلك اليوم كان يجعلها تنسى، أمّا البوّاب فقد صار يتحاشى تفتيشها خوفًا من ردود أفعالها. كانت تمشي باتّجاه السوق، تتلهّف إلى الوصول أمام الواجهات التي تعرض الملابس النسائيّة، تقف أمامها وتتفرّج بفرح على الأزياء المعروضة، تطيل الوقوف وتتخيّل نفسها تلبس تلك الثياب التي تلبسها الدمى في الواجهات. حلمت لو أنّ خصرها نحيل مثلها، لو أنّ بطنها ضامر، وساقيها ممشوقتان مثل تلك الدمى، حلمت لو أنّ بحوزتها مالاً كثيرًا لتشتري كلّ الفساتين المعروضة، وكلّ أدوات الزينة، سوف تلبس كلّ يوم واحدًا منها، وسوف تضع الأحمر على شفتيها، وتعلّق الأقراط في أذنيها، وسوف ترشّ العطور وتختال كالأميرات. حلمت كثيرًا وهي أمام الواجهات، يفترّ ثغرها عن ابتسامات السعادة والرضا، حلمت أكثر في هذه المرّة، عندما توقّفت أمام محلٍّ يعرض فساتين الفرح، والتيجان التي تضعها العرائس، والطرحات المتنوّعة، تخيّلت أنّها تلبس الفستان المزيّن عند ياقته بالورود البيضاء المزركشة بحبّات اللؤلؤ، وبلّورات يتكسّر الضوء على سطحها، مرشوشة حول الزهور، تلمع بألوان زاهية برّاقة، تلبس هذه الطرحة التي سوف

تعقد شعرها الطويل معها، وترخيه ينساب تحتها وهي تتموّج وتستطيل فتتجاوز أردان ثوبها، تحفّ على الأرض خلفها كجدول ماء يترقرق. هكذا ستكون ملكة وليس أميرة فقط. بعد اكتمال صورتها وهي عروس في بالها، شعرت بنشوة تتملّكها، منذ وقتٍ طويل لم تحلم، وها هي الآن تحلم وتتفتّح الرغبات المدفونة في ظلمة نفسها. تنتابها شهوة أن تكون أنثى، لكن أين هو العريس الذي ستتأبّط ذراعه وتختال معه منتشية بأنّها الملكة يمشي بها إلى عرشها؟ لماذا لم تحبّ، ولم يحبّها أحدٌ، لو كان جمعة قد أحبّها فعلاً، لما غاب كلّ هذه السنين من دون أن يسأل عنها، هو نسيها، وهي خبّأت مشاعرها له تنتظر عودته لكنّه لم يأتِ، انتظرت طويلاً حتى أعياها الانتظار، بل كانت مجمّدة خارج الزمن، مخاصمة الحياة، منزوية في سردابها المظلم، متخفّية عن العيون، وجمعة لم يأتِ. حتى أولئك الرجال الذين صادفتهم في حياتها الفقيرة لم يكونوا محبّين، كانوا يريدون امتلاك جسدها فقط، كانت تفهم نواياهم حتى وهي في تلك الحالات الغريبة التي تسيطر عليها. كلّهم أنذال، كلّهم يريدون تزجية الوقت والتسلية معها، بل بجسدها، ثم سيرمونها من دون رحمة. حتى حلمها بأن تكون أمًّا صار يبدو لها بعيدًا، بل مستحيلاً، تكاد تقتلها الرغبة بأن تحضن طفلها، ترضعه، تضمّه، تشمّه، في أحشائها شيء يستغيث، خواء لا يكفّ عن الصراخ من أجل أن يمتلئ، لماذا لا تستطيع أن تحمل جنينًا في بطنها، ترعاه وهو بعدُ مقيم هناك، في المكان العصي على الاختراق، حيث يمكنها أن تحميه من البرد والحرّ والجوع، واعتداء الأشرار عليه؟ بطنها يكبر، يزداد امتلاء، لكنّ الجنين لا يتحرّك فيه، هي تحبل بالأكل الذي تحشره كالقمامة في كيس يغصّ

بها. تمتلئ بالعفن، تمتلئ بالموت وهي الملهوفة للحياة. تغيّرت ملامحها أمام واجهة العرائس، تسلّلت يدها ببطء إلى بطنها، راحت تمرّر كفّها عليه ببطء، تكاد ألّا تلامسه، تدور الكفّ عليه، تحوطه من كلّ الجهات، تنقر عليه بسبّابتها نقرًا خفيفًا. هالها حجمه وترهّله، صارت تمسّده، تضغطه، تكاد أن تلطمه بقوّة علّ شيئًا يتحرّك في داخله، لكنّ يدها لا تقبض إلّا على كتل من الشحم المكدّس. ترتعش يدها، يبدأ الحريق يشتعل في أحشائها، نارٌ تلتهم جوفها بلا رحمة، تبدأ معدتها بالصراخ، تركض جميلة في شوارع السوق كالكلب الجائع، تبحث عن فرن تأخذ منه الأرغفة لتحشو بها جوفها وتسكت صراخ الوحش المقيم فيه، تبدأ بالالتهام كالممسوسة، والناس يرمقونها مذهولين، تأكل بسرعة جنونيّة، تلتهم وتصدر أصواتًا كحيوان يتلذّذ بفريسته، والعرق يغسلها، التهمت حتى أنهكها الامتلاء، همدت كأفعى في جوفها فريسة صعبة، وصلت أمام باب الريجي، وقفت تلتقط أنفاسها، ثم دخلته كحيوان مروّض يعود إلى قفصه.

ـ ٢٣ ـ

هذا هو اليوم العاشر الذي يرتاد فيه جمعة البيت الذي ما زالت جدرانه تنتظر السقف ليعتليها، والسقف بعيد المنال، يأتي كلّ يوم والأفكار تملأ رأسه، يجتاز الطريق غارقًا في بحور تأمّلاته، يستعيد لقاءاته بدلال، تومض الصور في مخيّلته، وتنطفئ، يستحضرها مرّة أخرى، فتومض ثانية وتنطفئ. يقضي الطريق وهو يُعيد محاولاته، وكأنّ اللقاء لم يحدث، ودلال ليست إلّا رسمًا متحرّكًا ينسجه خياله الجائع، في نفسه توق إلى جسدها، به رغبة ملحّة لعناقها، في داخله شهوة نهمة لوصالها. لقد وعدها في آخر مرّة، ولن يحنث بوعده. لكنّ طلبها بعدم عودته في لقائهما الأخير كان فيه رجاء صادق. جمعة يشتاق إليها، يشتاق إلى سريرها، يشتاق إلى احتفال جسده بقربها. لم يعد قادرًا على متابعة حياته كما كانت. صارت الشوارع لا تعنيه أكثر من كونها طريقًا للسير، يمرّ أمام الحاويات من دون أن يراها، يجتاز عربات الزبّالين ولا يلفته شيء فيها. يجانب الأرصفة مع حماره ويمشي هائمًا لا يكترث بالوقت، ولم يعد البحر محطّة لاسترخائه وأحلامه، هو يمشي فقط، لا يفيق من غيابه إلّا عندما يلوح له البيت من بعيد،

كأنّ له رائحة خاصّة تسبقه إلى أنف جمعة.

وصل إلى البيت، ربطِ الحمار ووضع أمامه الكيس، أخرج العدّة من خرج الحمار، علبة المسامير والشاكوش وربطة من أسلاك معدنيّة رفيعة، وضعها جانبًا، وجلس قريبًا منها يدخّن لفافته، ويتأمّل الألواح الخشبيّة الرفيعة التي رتّبها بعضها فوق بعض منذ مدّة، وأعاد ترتيبها عدّة مرّات بعدما أفردها على نيّة الشغل، وبقيت على حالها. لكنّه ظنّ اليوم أنّ عزيمته عادت إليه من جديد، وقد استبشر خيرًا من هذا الإحساس الطارئ. سحب أوّل قطعة من رزمة الأخشاب، وضعها أمامه، وأمعن النظر فيها، سحب قطعة ثانية، وضعها على شكل زاوية منفرجة مع الأخرى، وراح يحدّق بالشكل أمامه، بدأت تلوح له صورة بدائيّة للشكل الذي سيكون عليه السقف. سرح في تأمّله أكثر، غامت الصورة أمام عينيه، لاح له سور البيت من بعيد، البيت يقترب، باب الحديقة مغلق، السكون الأخرس يلتفّ بالمشهد. دلال مختبئة في الداخل، هي تعتّم على نفسها من أجل التمويه فيما لو مرّ بالقرب منها، لا تريده أن يطرق بابها، لا تريد أن تفتح له الباب، لقد رجته ألّا يفعل، لماذا يا دلال؟ ألم تعودي راغبة بي؟ تغيب دلال في صمت الأسئلة، تفيق جميلة من نومها في عتمة النفس. تغور الشهوة عميقًا، يستيقظ الشجن، ويهجم الماضي مترعًا بالخيبات. لماذا تقاعست يا جمعة؟ لماذا بقيت كلّ هذه السنين طافيًا على سطح الواقع، مسترخيًا لدغدغته، والزمن يفرّ من بين يديك؟ هل أحببت جميلة؟ لماذا لا تكون صريحًا مع نفسك؟ هل تعرف شيئًا عن جسدها؟ أنت لم تضمّها إلى صدرك إلّا مرّة واحدة، تنشّقت رائحتها، داعبت أردافها، ثم انسلّت من بين يديك قبل أن تفهم

الحالة التي اعترتك يومها، ورحت تمضي لياليك مؤرّقًا ترسم أشكالاً لجسدها في مخيّلتك، تستحضر رائحة التوابل المعتّقة، وتحصل على اللذّة في عتمتك السرِّيّة. ماذا تعرف عن جميلة؟ ودلال؟ من هي دلال، وماذا تعني لك؟ هي التي لم تسألك عن اسمك، لم تسعَ لأن تعرف من أنت، ماذا تريد، ماذا لديك؟ لم تطلب شيئًا ولا أنت طلبت، ما الذي حصل حتى وقع التجاذب الغريب بينكما؟ ألم تعرّفك دلال إلى دروب جسدك؟ ألم تأخذك إلى نزهة في أدغال الحياة العارمة بالمتعة؟ ماذا كنت تعرف قبلها؟ معها عرفت الحياة، لا تكذب على نفسك، ها أنت الآن تريدها بقوّة، ترغب بها حدّ الموت، انسَ جميلة، ألا تستطيع أن تنساها؟ أم هي الحلم الذي يقف أمامك يستفزّك على التحدّي؟

كان يصحو على الألم وقد أصابته طرقة من الشاكوش الذي يدقّ به المسامير ليثبّت الخشبتين إحداهما بالأخرى. أفلت الشاكوش من يده، وأخذ إبهامه المصاب بها وراح يضغط عليه والألم الممضّ يعصره، يهصر إبهامه، وينظر إلى شغله الرديء، صدمه القبح الذي أخرج أولى دعامات السقف به، كم كان سعيدًا في البداية بعمله، وكم كان متوحّدًا معه، ومنطلقًا بتدفّق نبعٍ غزير. كان يعمل بشغف وعشق، كأنّه يشكّل جسد جميلة بين يديه في البداية، بل عندما كان يطوف الشوارع ويجمع العلب والأشياء التي سيؤسّس بها منزل أحلامه، كانت جميلة في باله كأغنية يترنّم بها في وجدانه، حاضرة في اللحظات كلّها، كانت الموّال العذب، كانت الماضي الجميل الذي من أجله يحلم، ومن أجله يمشي إلى الغد، لكنّه الآن يضيّع كلّ ما جمع من الجمال، وما خبّأ منه للغد. أيّ قبحٍ هذا الذي يرمقه من زوايا البيت الذي أوشك على إنجازه لولا السقف؟ بل ما هذا

السقف البشع الذي ينوي أن يعمّره فوق جدرانٍ أخذت من روحه ووقته وأيّامه وأحلامه؟ لماذا استسلم أمام تهديد والدها، واستكان لواقع تشبّث به على أنّه الحلّ الوحيد، وراح يؤسّس لحياة بلا ملامح، وهو يطوف الشوارع بطموح وحيد، يتعاظم أمام اضمحلال طموحات أخرى، ربّما كانت تصوغ حياته بطريق أجدى؟ ها هو يخاصم الحارة التحتانيّة البعيدة عن بيته، فلا يدخلها منذ آخر لقاء له بجميلة. هل خاصمها من أجل حماية جميلة من انتقام أبيها، أم لأنّه اختار الطريقة الأكثر أمانًا وهدوءًا بالنسبة له؟ لماذا اختار لحلم حياته أن ينحصر بين جدران بيتٍ مختلفٍ لم يسبقه إليه أحد؟ هل فعلاً من أجل أن يبتدع شيئًا يعلّم الآخرين بواسطته كيف يتعاملون مع نفاياتهم، ويحافظون على نظافة بيئتهم، ويستغلّون القيمة المتبقّية بالأشياء في مجالات أخرى مفيدة، ثم يهدي إبداعه إلى جميلة عربون محبّته الكبيرة لها؟ أم عجزه عن خوض ميدان آخر في الحياة، وانطواؤه على نفسه في دائرة ضيّقة استطاب العيش داخل محيطها، هو ما حدّد له هذا الخيار الوحيد؟ أسئلة تزاحمت في خلده بإلحاح الألم الذي يعصر إبهامه المصاب، برغم النزف الخفيف الذي ينزّ من الجرح الصغير الذي أحدثته طرقة الشاكوش والمسمار الذي انغرز رأسه الصدئ فيه.

لقد أنهكته الأسئلة، لكنّه حاول الهروب منها إلى متابعة العمل. هو مصمّم هذه المرّة على معاندة نفسه والمضيّ قُدُمًا في طريق إنهاء البيت، أخذ يخلع الخشبتين بعضهما عن بعض، ويُعيد المحاولة، لكنّ الشكل المرجو عصيّ على التحقّق، أزاح القطعتين جانبًا، وتناول بدلاً عنهما من الكومة، أخذ يجهد نفسه أكثر، لكنّ اضطرابه يزداد، وفي غمرة انهماكه، كان يصحو بين حين وآخر،

ليرى نفسه غارقًا في تفكيره، يضيع بين دلال وجميلة، والعرق ينضح منه، توتّر أكثر، صار أداؤه مرتبكًا، حركاته متشنّجة، بدا منفعلاً إلى درجة تمنعه من السيطرة على عمله. تملّكه الغضب المختلط بإحساس عدمي خانق، أوشك أن يصرخ ملء صوته، أن يكسر صمت الفراغ المحيط به. شعر بأنّه ضعيف وتافه وغير جدير بالحياة، إنّما لن يستسلم، ما زال لديه رمق أخير من الحافز، لكن لا بدّ من عون ما، يجعل عزيمته تتّقد من جديد قبل أن تنطفئ بالمطلق. راودته فكرة الذهاب إلى جميلة مجدّدًا، لكن لمَ لا يذهب إلى دلال؟

في هذه اللحظة بدا له وعده لها بعدم الرجوع ثانية أمرًا تافهًا، ربّما هي ترغب به، لكنّها تتمنّع، فلماذا لا يذهب إليها ويقتحم وحدتها؟ سوف تكون بانتظاره، كانت سعيدة بلقاءاتهما، كانت تدخل معه حالة النشوة حدّ الغياب. وأوشك على أن يقتنع بخياره الأخير، لكنّ الحنين المختلط بالشعور الموارب بالذنب تجاه جميلة جعله يدخل حالة التردّد والاضطراب من جديد، وجعل توتّره يزداد ضراوة، فأخذ يلملم بقايا عمله بسرعة، عازمًا على المضيّ من دون قرار، تاركًا للطريق أن يقوده إلى قراره. ذهب إلى الحمار الذي كان يتحلّى بصبرٍ مغاير في الأيّام الأخيرة، ممّا أعطى جمعة فرصة الحرّيّة المطلقة في السباحة في بحر أفكاره.

كان أبو طافش يرصد تحوّلات صاحبه، يشفق عليه وهو يراه في حالة من الضياع، والمزاج الرديء. هو لا يستطيع مساعدته، لكنّه ربّما ينجح فيما لو حدّد له دربه، عليه أن يأخذه باتّجاه الحارة، مصيرهما المشترك حاليًا هناك. لم يعد هناك من جدوى، على الأقلّ في الوقت الحالي من الطواف في الشوارع. جمعة

يهمل رزقه في هذه الفترة، فلماذا التجوال من دون فائدة؟ ثم من حقّه هو الحمار الذي لا أحد يعترف له بأنّه يحتاج إلى الراحة أحيانًا، من حقّه أن يحصل على إجازة بين حين وآخر.

عندما وصلا إلى المفترق الذي يذهب يمينًا باتّجاه مكتب الدور، ويسارًا باتّجاه الحارة، وقف جمعة فجأة تتنازعه الرغبتان، يحتار في أيّ اتّجاه يمشي. انتابته فجأة موجة شبق خفيفة، انعطف بتردّد يمينًا، لكنّ الحمار حرن في أرضه، سحبه جمعة، لكنّ الحمار أصرّ، بدأ النزال يتصاعد بينهما، جمعة يشدّ، والحمار يقاوم. من شدّة المقاومة، انفلتت مصرّة الحمار، وراحت قذائف مؤخّرته تندفع رشًّا حولها، استشاط جمعة غضبًا، انهال على الحمار ضربًا بعصاه المركونة منذ عدّة أيّام على خاصرة الحمار، لم يستعملها جمعة ولا مرّة في نبش أكوام الزبالة. أخذ يضرب الحمار بعصبيّة تقارب الجنون، خصوصًا بعدما أصابته دفعة من الدفعات وهو يضرب الحمار الذي يدور على نفسه تحت الضرب، وقذائف روثه مستمرّة أثناء دورانه، تلطّخ رأس جمعة، كما تلطّخت ثيابه، وراح يلعن الحمير والساعة التي قرّر فيها الاعتماد على حمار في مشوار حياته. لم يبقَ أمامه خيار آخر، العودة إلى البيت صارت الخيار الوحيد، هل يعقل أن يذهب إلى دلال ملطّخًا بروث الحمار؟ أيّ مجنون يفعل فعلة كهذه؟ انعطف يسارًا، ومشى جارًّا خلفه هزيمته والحمار.

ـ ٢٤ ـ

عند دخولها الصالة، كانت جميلة متورّمة العينين، تائهة النظرة، تبدو عليها علامات الإرهاق أكثر من أيّ يوم آخر، كانت قد أمضت الليل تتعذّب تحت سياط هواجسها، بعدما أخبرها والدها بقراره، سوف يزوّجها. صحّاها الخبر على ومضة فرح لم تنعم بها، بعد أن عذّبها إحساسها بالرفض على مدى السنوات السابقة، وأنّ الرجال لا يريدونها، فهي قبيحة، تكفيها هذه الحبّة التي تحفر خدّها الأيمن، وقد أصبح الجلد يتجعّد حولها، كما لو أنّ ملقطًا مدسوسًا في العمق يشدّه، بينما يبدو الجلد في وسطها لامعًا كقطعة من البلاستيك، وإلّا لماذا لم يأتِ أحدهم ويطلب يدها مثل بقيّة البنات في الحيّ؟ حتى جمعة، ذلك الغدّار أدار لها ظهره ونسي وعوده. نسي الكلام الجميل الذي همس به إليها، نسي المراجيح والقلّيبات وألعاب العيد. نسي شدّ الحبل، ولعبة الطميمة، وكيف كانا يتواطآن معًا فيها، فيشعران بلذّة ناعمة عندما يمسك أحدهما بالآخر بذريعة اللعب. جمعة نسي كلّ هذا، وهي نسيت نفسها وصدّقته، فدخلت دوّامة الانتظار إلى أن نسيت ماذا تنتظر؟ ومن تنتظر؟ كلّ ما تحتاجه اليوم هو طفلٌ تحضنه، فهل

تحصل المعجزة وتحضن طفلاً في أيّامها القادمة؟

قال لها أبوها إنّه أعطى كلمته، وسوف يقرؤون فاتحتها بعد أيّام على الشيخ يحيى. وكان قد اختلى به بعد صلاة المغرب، وخاطبه بوقار كبير:

ـ اسمع يا أبو العزّ. أنا فكّرت بموضوع بنتك جميلة، وشفت أنّ أقدر واحد على إنصافها هو أنا. صحيح أنا متزوّج، وعندي زوجتان، لكنّني قادر على أن أقوم بواجباتي مع زوجة ثالثة، في الشرع يحقّ لي، فأنا لا أعمل شيئًا لا يرضي الله ورسوله.

ـ أنا يشرّفني أن أناسبك يا شيخنا. لكنّ جميلة أصغر منك بكثير.

ـ العمر لا يعيب الرجل يا أبو العزّ، وأنا الحمد لله ما زال في داخلي الخير مثل الشباب، والزواج سترة لبنتك، ما هو ردّك إذن؟

احتار في البداية بماذا يردّ عليه، كان الأمر مفاجئًا، لم يدخل في حسابات حمّود عرض كهذا، فآثر الصمت متفكّرًا. هو لا يريد أن يرفض، كما أنّه يعلم أن ليس بمقدوره أن يرفض، لكنّه يريد أن يأخذ وقته في التفكير، ليعرف كيف يستطيع أن يُخرج الموقف بالشكل الذي يضمن له قسطًا من الفائدة، ثم إنّ الشيخ يحيى مقتدر، لن يهبه حمّود ابنته هبة، صحيح أنّه يقبل الهدايا والزكاة، لكنّ الوضع مختلف هنا، والشيخ يحيى يريد أن يتزوّج من جميلة التي تصغره بحوالى الأربعين عامًا، وهذا أمرٌ له ثمنه، يجب أن يستغلّ حمّود الفرصة جيّدًا، بل يجب أن يعرف كيف يناور عليه. قطع عليه الشيخ يحيى أفكاره، وسأله:

ـ ماذا يا أبو العزّ، أراك سكتّ؟ ألم يعجبك عرضي؟

ـ العفو يا شيخنا، قلت لك إنّه يشرّفني أن أناسبك، ثم أنت معلّمنا بالشرع وبالدين، أكيد أنت تعرف أنّه يجب أن آخذ رأي البنت وأمّها.

ـ معلوم، هذا واجب. إنّما أنت وكيلها، يعني تستطيع أن تعطي ردًّا أوّليًّا، وتسألها لاحقًا.

ـ إن شاء الله خير يا شيخنا، يومين أو ثلاثة وآتيك بالردّ الأخير.

كان الشيخ يحيى يعرف أنّ جميلة لها طبع خاصّ، وأنّها تعاني من اضطراب في مزاجها، لكنّه عزا هذه الحالة إلى تأخّرها بالزواج، وأنّها دخلت العنوسة وانتهت، لذلك بإمكانه الحصول عليها بأقلّ كلفة طالما أنّ أباها مهموم بشأنها إلى هذا الحدّ، وسوف يتنعّم بها، وبامتلاك عذريّتها، فزوجتاه الأخريان كبرتا بالعمر، وترهّل جسداهما، وهو ما زال يشعر برجولته متّقدة. هذا الوضع كان يزعجه، فهو لا يقارب الحرام، وليس لديه علاقات مستورة مثل أغلبيّة رجال الحيّ، أولئك الذين كان بعضهم يحكي له أسراره طلبًا للمغفرة، وأنّ انزلاقهم كان بسبب النفس الأمّارة بالسوء، وهم ينوون التوبة: على يدك يا شيخنا إن شاء الله، وكان الشيخ يعظهم، ويقرأ لهم الآيات التي تسكّن نفوسهم، وهو واثق من أنّ أغلبهم سيعود إلى الرذيلة مرّة أخرى.

لم يرجع أبو العزّ إلى البيت، كان بحاجة إلى مهلة يقضيها مع نفسه، يقلّب الموضوع في ذهنه إلى أن يصل إلى القرار المناسب الذي يضمن له أكبر قسطٍ من الفائدة. غادر الجامع، وراح يمشي في زواريب الحيّ، خرج من الزواريب وأخذ طريق البحر. راح

يمشي مسايرًا الرمال، يستمع إلى صوت الأمواج، يأنس إلى ضجيجها، إنّما لم يكن يفكّر بها أو بالبحر الذي أمضى عمره على حدوده، كان ما يشغله أكبر من أن يلفته جمال لم ينتبه إليه على مدى خمسين عامًا، حتى إنّه في مسيرة حياته السابقة، لم يعرّج على البحر إلّا مرّات قليلة، قد تكون مصادفة. شغله كان يأخذ القسط الأكبر من وقته، أمّا بعدما تقاعد عن العمل مكرهًا، فقد استطاب حياة الكسل والاستكانة، وها هو يقضي معظم أوقاته في الجامع، يستقبل الناس الذين يلجؤون إليه من أجل التمائم والأدعية، وقراءة الآيات الكريمة التي تطرد شياطينهم، والباقي من وقته يقضيه في مقهى أبي تحسين، مثلما سيفعل في هذه المرّة بعد أن ينتهي من مشواره على طريق البحر، ويصل إلى قراره الذي يرضى عنه بشأن زواج جميلة.

بعد أن قضى سهرته في المقهى، وتسامر مع رجال الحيّ، وكان ذهنه في الوقت نفسه يعمل في ترتيب المشكلة، عاد إلى البيت، بعد أن أجّل قراره النهائي حتى يرى ردّة فعل أمّ عزّو، فهي لا بدّ بحدسها سوف تلهمه من دون أن تقصد إلى الرأي الصحيح. لكن أمّ عزّو فوّتت عليه هذه الفرصة، عندما سقطت دمعتان على خدّيها من دون أن يظهر على وجهها أيّ تعبير. لم يعرف حمّود هل هي دموع فرح، أم حزنٍ على ابنتها. انتظر أن تتفوّه بكلمة واحدة، لكنّها أصيبتْ بالخرس العصيّ أكثر من عهده بها. استشاط غضبًا، أخذ يتذمّر من عيشته معها، كيف تحمّل نكدها الصامت كلّ تلك السنين؟ ودنّورة صامتة. اتّجه إلى جميلة في الغرفة الأخرى، ناداها والغضب ما زال مسيطرًا عليه، وقذف قراره في وجهها، هكذا بلا أيّ مقدّمات، قال لها: بدّي زوّجك. عندها أضاءت أعماقها

للحظة ومضة الفرح العابرة، التي سرعان ما انطفأت عندما أخبرها من يكون العريس. لم تنم جميلة، مرّ عليها زمن طويل لم تدخل في حالة الصحوة التي دخلتها، انتبهت إلى عمرها الفائت وأخذت تقلّب حياتها، لم ترَ فيها مرحلة عرفت فيها قليلاً من الفرح إلّا تلك القصيرة التي تفرّ من ذاكرتها، عندما كانت صغيرة، تلعب مع صغار الحيّ، وتلازم جمعة الصبي الأكبر منها بعامين، ثم تلك الفترة، عندما داهمتها مشاعر تجاه جمعة والتي مرّت مسرعة كبرق في مساء شتوي، وأظلمت الدنيا بعدها. حاولت أن تتذكّر حياتها بعد أن وافت جمعة في لقائهما الأخير، لكنّ فجوة تشكّلت في ذاكرتها أخذت تتّسع بسرعة كبيرة، ولم يبقَ في فضاء تفكيرها غير صوت والدها الأخير، سوف يزوّجها من الشيخ يحيى، هذا العجوز الذي تزوّج وطلّق مرّات عديدة، حتى ركن منذ أعوام قليلة إلى زوجتيه الأولى والأخيرة. لماذا عليها أن تقبل به؟ ألأنّها قبيحة ولن تلفت نظر الرجال الأصغر؟ ألأنّ جسدها يشبه السفرجلة كما قالت تلك اللعينة منال؟ ثم ماذا لو كان الشيخ يحيى لا يقوى على الإنجاب بعد؟ ها هي زوجته الثانية قد توقّفت عن الإنجاب منذ سنوات. لم تُرزق إلّا بولد وحيد، وما زالت في عمر الإنجاب. سيطر على جميلة هاجس الإنجاب. لم يعد يقارب تفكيرها موضوع آخر. نسيت كلّ شيء عن الشيخ يحيى، وعن والدها، وعن العالم حولها. انتابتها لهفة شرسة لأن يكون بين يديها طفل، تناغيه، تهدهده، تضمّه إلى صدرها، ترضعه، تنقطع عن العالم كلّه وتبقى تلازمه، تكبر معه، تعلّمه، تأخذه إلى الحديقة، تركب معه المراجيح. هي تريد طفلاً، ليس لديها حلم آخر في الحياة، فكيف ستحصل على الطفل؟ طال الليل بها، صار فضاء الغرفة التي

تتقاسمها مع إخوتها مليئًا بأشباح الأطفال، تناديهم في سرّها، تبتسم لهم، تختار الأجمل ليكون طفلها، ثم تبدأ بالبكاء الصامت الحارق. احترق حلمها مع أوّل خيوط الفجر، وتلاشت صحوتها عميقًا، لتغور إلى سراديبها المظلمة، وتعود إلى تلك الأخرى التي تنتمي إلى عالم آخر، لم يستطع أحدٌ ممّن حولها اختراقه.

عندما دخلت الصالة وهي على هذه الحالة، أخذت العاملات يرمقنها بنظراتٍ تتباين بين الفضول، والتوجّس، والشفقة أحيانًا، ما عدا منال التي كانت تستغلّ حالة جميلة في كلّ مرّة، وتستفزّها بطريقة مختلفة، بعدما رأتها في ذلك اليوم في مكتب مراقب الدوام. منال تعرف أنّ جميلة لا تصلح لأن تكون في موقع المنافسة معها، لكنّها تعرف بالمقابل أنّ الرجال لا يُؤتمنون، هي خبرتهم باكرًا، بالرّغم من أنّها صغيرة في العمر، لكنّ عمر الإنسان يُقاس بتجربته، كما كانت تسرّ لإحدى زميلاتها أثناء حديثهما في فترات الاستراحة، وهي تريد أن تعرف الحياة بكلّ خباياها. لن تترك تجربة تمرّ أمامها من دون أن تعيشها، وتأخذ منها ما ينفعها، خصوصًا أنّ العمر إذا ما قيس بالسنين، فهو قصير جدًّا فيما لو تُرك يمضي بدون طموح في هذه الأيّام، أخبرت منال زميلتها بأنّها لم تكمل تعليمها، فهي لا تحبّ الدراسة والواجبات المدرسيّة التي لا طائل منها، لماذا عليها أن تُنفق سنوات طويلة من عمرها من أجل الحصول على شهادة لن تفيدها بشيء في حياتها؟ لماذا لا تدخل الحياة من أبوابها الواسعة، وما أكثرها؟ هي الآن في أوج شبابها ونضارتها، والرجال لديهم نقاط ضعف عديدة، مهما ادّعوا القوّة والجبروت، لكنّ كعب امرأة يمكن أن يقضّ مضاجعهم، مؤرّقين من التفكير بامتلاكها، وفي الواقع الذكيّة من تعرف أنّها هي التي

تمتلكهم. قالت أشياء كثيرة في أحاديثهما أثناء فترات الاستراحة، لكنّها كانت تحتفظ بجزء من فلسفتها وأسلوبها في الحياة لنفسها، شيء يخصّها، عالمها السرّي، فهي توقن تمامًا أنّ لكلّ إنسان جانبًا معتمًا في ذاته، لا يظهر للضوء، كما مسودّات الصور، هو الهويّة الحقيقيّة التي تميّزه عن البقيّة، أو التي تشعره بفرديّته، وليست الأشكال الخارجيّة هي التي تضع معايير التباين بين الأفراد. أحاديثها كانت تصيب تلك الأخرى بالذهول، والارتباك أحيانًا، تسأل نفسها كيف حصّلت منال هذا الكمّ الهائل من الخبرة بالحياة وهي بعد في بداية شبابها؟ صحيح أنّها لم تكن توافقها على كلّ آرائها، إنّما لم تكن تستطيع أن تمنع دهشتها الدائمة بها.

عندما رأت منال جميلة وهي تدخل الصالة على تلك الهيئة، وجهها يكاد لا يشبهها، بتعابيره المتداخلة، وسحنتها المقلوبة، شعرت برغبة تتوغّل في صدرها، فيها شيء من التشفّي، نفحتها بشعور سرّي بالفرح، تعشّمت معه أن يكون صباحها مختلفًا. اتّجهت نحوها بغنج مصطنع، مظهرة لها الودّ والتحبّب، في عينيها مكرٌ يشعّ بين رقّة وأخرى، وبادرتها بلهجة رقيقة:

ـ سلامتك يا جميلة، لماذا وجهك اليوم تعبان، وعيناك متورّمتان، ألم تنامي طوال الليل؟

لم تنظر إليها جميلة، كما لم تُعرها أيّ انتباه، فتابعت بنعومة أكثر، وهي تمدّ يدها إلى الغرّة المنسدلة على الخدّ الأيمن، تغطّي العين، وترفعها لتنكشف صفحة الخدّ للبقيّة:

ـ والله قلبي معك، أعرف أنّ الحبّ يطيّر النوم، لكن ليس إلى هذه الدرجة. فليهنأ الذي يشغل بالك.

انتفضت جميلة عند سماعها كلمة الحبّ، مسكت يدها الممدودة إلى الغرّة، نترتها بقوّة، رمقتها بنظرة استنكار وتوعّد، كظمت غيظها، فهي لم تكن بحالة من النشاط تؤهّلها لأن تردّ عليها، إنّما كانت نظرتها كافية، لكنّ منال تابعت استفزازها بالأسلوب نفسه:

ـ والله لو أنا محلّك ما كنت أتيت إلى الشغل، كنت سأبقى في البيت أغمض عينيّ وأحلم، وأبقى أحلم حتى أنام، ما شأنك بالشغل؟ روحي احلمي بحبيب القلب، يمكن تصلُه أحلامك ويرقّ قلبُه قليلاً، يبدو كما لو أنّه لا ينتبه إليك أليس كذلك؟

لم تعد جميلة تطيق صبرًا على استفزاز منال لها، وتطاولها عليها بهذه الطريقة المؤذية، صرخت في وجهها:

ـ اخرسي وليه. اخرسي، لا تسمعيني صوتك.

صاحت منال:

ـ وحدة مثلك تخرس. من تظنّين نفسك آه؟ إن شاء الله صدّقتِ أنّ الأستاذ سليمان يحبّك ويريدك؟ أنتِ كلّك على بعضك حقّك فرنك في سوق النسوان، من سيتطّلع فيك أو يشيلك من أرضك، وأنتِ حاملة هذا البطن الذي لا يشبه شيئًا سوى الخرج؟

انقضّت عليها جميلة بنوبة هياج مجنونة، واندفعت تلطمها وتلكمها، تشدّ شعرها الذي التفّ على يديها، فأخذت تنتفه بشراسة تتنامى، تكيل لها شتّى أنواع الشتائم البذيئة، وكانت منال تردّ عليها بالمثل، لكنّها لم تكن تملك القوّة البدنيّة التي تملكها جميلة، فبدأت تتراخى، والعراك مستمرّ بينهما، والسباب والشتائم، بالرّغم من تدخّل الأخريات لفضّ الاشتباك. كانت مريضة الربو تدخل نوبة

ربويّة، منزوية بمفردها، لا أحد ينتبه إليها، كادت أن يُغشى عليها عندما أوشكت منال على الاستسلام، ودخول مراقب الدوام، بطلب من إحدى العاملات التي انسلّت بخفّة وذهبت تخبره بالذي يحصل. بخّت بخّتين في حلقها، وأسرعت هاربة إلى حيث الهواء النظيف، بعيدًا عن الصخب والصراخ، والأجواء المتوتّرة. انفكّ الاشتباك عند دخول سليمان، أفلتت منال وراحت تسوّي ثيابها، وتمسّد شعرها، وتتطلّع إلى سليمان بنظرات التشفّي، كأنّها تريد أن تخبره بأنّ ما حصل هو المقصود به بالدرجة الأولى، وليس سوى الدرس الأوّل، حتى لو أنّ المعركة حُسمت جسديًّا لصالح جميلة، إنّما هي المنتصرة بالنتيجة طالما فضحتها معه. لم يستطع سليمان النظر في عينيها، بل أخذ يجول بنظره بين الجميع وهو صامت يحاول أن يحمّل عينيه نظرة تهديد وهو في أوج ارتباكه. شعر بأنّه ينجرّ إلى منزلق سيهوي به، فكيف يمكن أن يدرأ هذا الخطر؟ بعد قليل من الصمت، والعاملات متوقّفات عن العمل، يتطلّعن إليه منتظرات ما سيصدر عنه بشأن الخلاف، وفي الجوّ تسري همهمة خافتة، وتعليقات هامسة، ممّا زاد في إرباكه، تفوّه أخيرًا بصوت ابتدأ خافتًا هادئًا، ثم تصعّد حتى بلغ درجة التهديد، وختم بقوله:

ـ التحقيق في مكتبي بعد قليل، عندما أطلبكنّ كلّ وحدة لوحدها، بعدها سوف تعرفن كيف يمكن أن يتكرّر موقف كهذا.

طلب منال أوّلاً، بعدها غادرت الشغل، ولم تأتِ إليه طيلة الأسبوع، لم تعرف العاملات ما الذي دار في مكتبه، إنّما رشحت شائعات بأنّه اتّفق معها على تمثيل دور المعاقَبة، وطلب منها أن تتغيّب عن العمل عدّة أيّام حتى لا تكبر المشكلة وتصل إلى الرقابة الداخليّة، عندها يمكن ألّا يستطيع حمايتها كما ترغب. أمّا

جميلة، فبعد استدعائها بدقائق قليلة، سُمع صراخها وسبابها، وشتائمها، وخبط قدميها وهي تركض في البهو منطلقة إلى الباب الخارجي، تدفع البوّاب الذي اعترض طريقها من أجل أن يسألها عن ورقة الإذن، وتلقيه أرضًا، ثم تنطلق إلى الشوارع، تركض وتركض حتى غابت عن الأنظار.

ـ ٢٥ ـ

مرّت أيّام عديدة، كانت طويلة جدًّا على جمعة الذي شعر خلالها أنّه ضيّع شيئًا مهمًّا، فقد معه قدرته على متابعة أيّ أمر. تغيّرت أحواله كما تغيّرت حياته، دخل في مرحلة من الفوضى، لم يعد يطيق السير في الشوارع كما في الماضي، فيقف على الحاويات، ينبشها، يفرز محتوياتها، يأخذ منها أشياء يقدّر قيمتها في اللحظة من دون أن يبحث عن شيء محدّد. كان مشواره سابقًا يحمل قدرًا من الحافز والرغبة، طالما هناك مفاجآت تنتظره بين أكوام النفايات، كلّ مرّة يخرج فيها إلى الشغل كان ينطلق ولديه شعور يدفعه إلى الإقدام في مشواره، شعور بأنّه سيلاقي أشياء جديدة، وسيطّلع على أمور لم يكن يعرفها، وسيتعلّم من الناس أشياء يجهلها، وأكثر ما كان يثير لهفته هو انتظاره للجرائد أو الكتب التي يمكن أن يحصل عليها، إن كان من جوار الحاويات، أو أمام المدارس، أو بعض المكاتب أو المكتبات. كلّ هذه الأشياء يفتقدها منذ عدّة أيّام. ينوي مساءً عندما يخلد إلى النوم، فيطير النوم من عينيه، ينوي على أن يبدأ في الصباح من جديد، يرسم لمشواره المتوقّع ملامح ترضيه. يسرح في تفكيره أكثر

ويقتحم فضاءات الأحلام التي توصله إلى البيت العصيّ على الكمال، إلى السقف الذي لم يعد يطاوعه في إنجازه، كأنّه يشاكسه ولا يرضى عن الصورة التي سيخرجه على شاكلتها، تأخذه الأحلام من فضاء إلى آخر، تتداخل الصور، تتشابك، تهجم عليه صور الماضي؛ جميلة التي توقّفت عن الكبر في ذاكرته على أعتاب الصبا، بشعرها الطويل، وعينيها السوداوين، وجسدها الذي يضجّ اتّقادًا وإغواء، يلوم نفسه كيف أفلت جسدها من بين يديه؟ لماذا لم يقبض عليها ويخطفها ويهرب بها إلى حيث يغيب كلّ شيء عدا الشهوة التي تلتهم ولا تشبع؟ لماذا ضيّع السنين في عمرٍ قصير ولم يمتلك الجسد الذي كان سيمنحه حياة أخرى فيما لو امتلكه؟

كان يتقلّب على فراشه، تحت أعين السماء، وعلى مسامع النجوم التي ترصده من عليائها، ويرسم أشكالاً لجسد جميلة، توقد شهوته، تفلت رغباته من أقفاصها، يتمرّد عليه جسده الذي كان ينام متلفّعًا بأردية تراكمت بعضها فوق بعض، كما الأكوام التي يلتقطها من الحاويات، لتأتي فجأة على غير موعد، نار تشتعل فيها، ويصل لهيبها إلى جسده، الذي يطفئ حريقه مع جسد دلال، تلك المرأة الغريبة التي انبثقت في عالمه بلا مقدّمات، كأنّها موجودة في الفراغ، لا يعرف شيئًا عن ماضيها، ولا حاضرها، ولا بماذا تفكّر، أو ما ترمي إليه في مستقبل أيّامها، المرأة التي أوصدت في وجهه كلّ الأبواب إلّا أبواب المتعة التي أوصدتها فجأة من دون إنذار أيضًا، كما فتحتها. دلال التي رمته في بحور الارتياب جعلته غير موقن بحقيقة أيّ شيء، دلال المرأة الشبح التي اخترقته بسطوة الخنجر، جعلته ينزف شبقًا وشهوة ومتعة حدّ الغياب، ليصحو فجأة على صور ليس أكثر، إن هي إلّا أضغاث أحلام، دلال التي فتحت

له بابًا على نفسه، ورمته في ظلماتها، يتخبّط بين اليقين والظنون، ثم أغلقت في وجهه حتى باب بيتها، طرقه مرّات ومرّات، ولم ينفتح الباب، ولم يحصد إلّا الصمت والخيبة، والسؤال: أين اختفت دلال؟

ترى هل كانت حقيقة، أم أنّه ينجرف بسرعة جنونيّة إلى متاهات الضياع بين الحقيقة والوهم؟ هل دخل حقيقة في خرف الشيخوخة عندما بدأ جسده يتّقد شبابًا ونضجًا؟ وجميلة؟ حتى جميلة ليست إلّا سرابًا، يمدّ يديه إليها، يحاول جذبها إلى أحضانه، تذوب جميلة، وتنحلّ صورتها في مياه تغرق الفضاء الليلي حوله، جميلة تضجّ بالصمت، صمتها يداني صمت القبور، جميلة ليست أكثر من رسم على ورق يشبه أوراق الجرائد التي امتصّت رطوبة الأشياء المدفُونة ضمنها، مهما عرّضها للشمس من أجل قراءتها كانت تتلف وتتفتّت بين يديه. جميلة منام رآه في إحدى غفواته زمانًا، عندما كانت الأحلام تتبخّر مع يقظته ولا يبقى منها غير صداها، ونتف من الصور الوامضة. تتداخل ملامح جميلة مع ملامح دلال، يبدأ الصراع في أعماقه بين رغبات تمور، وعواطف تبكي عجزها. تهرب الطمأنينة، يجافيه النوم، تتلاشى الأحلام، ويستيقظ التفكير. ماذا سيفعل عندما يجيء الصباح؟ كيف سيعود إلى نفسه ويردم الفجوات التي حفرها في طريق حياته؟ لا بدّ من عمل شيء، أيّ شيء. لا بدّ من التقدّم خطوة إلى الأمام، قبل أن ينسلّ الزمن من بين يديه، ويخسر أشياءه تباعًا. حتى لهفته على المدينة، حرصه على أن يقدّم شيئًا يفيد من خلال خبرته، وما قرأه في الجرائد، والكتاب الوحيد الذي اشتراه، ليعرف أكثر عن النفايات، ليبتكر طريقته الخاصّة في التعامل معها،

وتنظيف المدينة التي أحبّها، كلّها أحلام تكسّرت على أعتاب البلديّة. تقلّص طموحه إلى الحدّ الأدنى، جمع النفايات وتدويرها في صناعة بيت وحيد. يا له من بيت عصيّ على الإنجاز.

مع خيوط الفجر الأولى غفا جمعة، نام بعد أن أنهكه التفكير، أضمر بين ضلوعه نيّة جديدة، عزم معها على متابعة ما بدأ به من دون تلكّؤ. لن يسمح لنفسه بعد اليوم بتأخير إضافي، بل لن يسمح لها بأن تأمره فيطيع ويضيع، سوف يذهب إلى البيت الذي لا سقف له، وسيصنع السقف، ويثبّته على الجدران، سوف يسوّر البيت على جنينة تحوطه، يغرس فيها الأزهار المختلفة، زاهية الألوان، أزهار تتفتّح للنور صباحًا، وأخرى يغويها المساء، وتدغدغها العتمة، فتتضوّع بعطرها.

نوايا متنوّعة أضمرها جمعة قبل أن يسحبه النوم، ليستيقظ بعد ساعات قليلة وقد دبّت الحركة حوله. يذهب إلى حماره الذي كان يشحذ همّته من أجل الأيّام القادمة، بينما صاحبه غائب عنه في متاهات تفكيره. كان أبو طافش يقلّب الأمور متفكّرًا قبل أن ينام كلّ ليلة، يحاول أن يفرد مشاغله أمامه ويفتّش بين الزوايا المظلمة عن أيّ ثغرة يمكن أن تعرّض مشروعه للخلل. في آخر لقاء بينه وبين بغل برهوم، حدّثه عن قلقه فيما لو كان بينهم أصحاب نفوس ضعيفة، ترى ألن يفشل مشروعهم؟ أخبره البغل حينها بأنّ الجميع متّفقون، وأن لا خوف من ضعاف النفوس، لأنّهم بالأصل غير موجودين بينهم، فهؤلاء هم صنف من البشر، يندسّون بين جماعتهم، يراقبون، ويسجّلون الوقائع التي تشير إلى أنّ بعضهم يفكّر، ويوصلونها إلى أولي الأمر. أمّا معشر الحمير والبغال فمن طبيعة أخرى، لا تغويهم الأمور التي تغوي البشر، ولا يسعون إلى

امتلاك ما لا يحتاجونه في حياتهم. صحيح أنّهم جميعهم تربّوا بين البشر أولئك، لكنّهم لم يكتسبوا منهم ما لا ينفعهم في حياتهم، كما لم ينسوا أصولهم. وقال له بغل برهوم: يعني نحن ماذا نريد يا عمّ غير أن تكون حياتنا بأيدينا، نعيشها مثل ما يحلو لنا، وليس مثل ما يرسمها هؤلاء البنو آدم الذين يحسبون كلّ شيء في الحَياة على أساس ما تتطلّب مصلحتهم؟ نحن جماعة مسالمة، نحبّ العيش بلا مشاكل، ولا نريد من الدنيا إلّا أن تعطينا ما يؤهّلنا كي نعيش حياتنا من دون همّ الأكل والشرب، والنوم وقت ما نريد، ونحبّ ونسرح بالبراري بين الشجر والماء والعشب، وكلّ واحد فينا يكون له آخر النهار محلّ ينام فيه؟ لماذا يكون بيننا حمير أو بغال نفوسهم صغيرة؟ ماذا سيجنون من وراء الوشاية بنا، نحن أبناء جنسهم، للبني آدم أولئك؟

كان كلام البغل يبعث الطمأنينة في نفس أبو طافش، عندما يستعيده في باله قبل أن ينام وهو يفكّر بالغد الذي أمسى قريبًا، وما هي إلّا بضع خطوات حتى يصلوا إلى نقطة الصفر التي أمضوا فترة طويلة يخطّطون لها، ويحلمون بلحظة الإمساك بها. في الوقت نفسه كان أبو طافش راضيًا في دخيلته عن سوء أحوال صاحبه واضطرابه في الفترة الأخيرة، ممّا خفّف من عبء التجوال الأجوف في شوارع المدينة، ومن حمولته التي عليه أن يدور بها طيلة النهار، كما منحه متّسعًا من الوقت كي يحلم ويتخاطر مع أبناء عشيرته. لكنّ ما خفّف عنه وطأة شعوره بالذنب تجاه سعادته التي يحقّقها ظرف جمعة المضطرب، هو أنّه يحاول أن ينصحه، لكنّه لا يملك لغة تصلح لأن تكون لغة حوار بينهما. صحيح أنّ ألسنتهم هم معشر الحمير مربُوطةٌ في حلوقهم بطريقة تجعل الكلام عسيرًا،

لكنّهم يفهمون ويدركون المعاني، وهو إن كان يلجأ إلى بعض الحركات الكيديّة، فقد كان يرجو من خلالها أيضًا أن يعتبرها صاحبه إشارات يجب أن يستغلّها في فهم الحياة أكثر، والتعامل الأجدى معها. إنّما جمعة لم يكن يفهم، فماذا على أبو طافش أن يفعل أكثر من ذلك؟ عندما فتح عليه باب زريبته، ووضع أمامه كيس العلف، وسكب الماء في قصعته الخاصّة.

كان أبو طافش قد استيقظ منذ فترة على همّة ونشاط عاليين، بدا مستبشرًا بهذا الصباح، ولم يعجبه وجه صاحبه الذي بدا له كما لو أنّ أحدًا كال له اللكمات، أشفق عليه، لكن لم يسمح لشعوره بالشفقة أو بالتعاطف بأن يعكّر عليه إحساسه بيوم مختلف. استقبل صباحه بطريقة مميّزة.

انساق الحمار خلف جمعة، كانت أذناه منتصبتين، في حالة تأهّب لالتقاط أيّ إشارة أو صوت يأتيه من مكان ما، بعيدًا عن مجال سمع صاحبه، وقد عزم على أن يكون مطواعًا إلى النهاية، لن يفرض مزاجًا خاصًّا على صاحبه كما كان يفعل عندما لا يروق له الأمر، مشى خلفه كما لم يمشِ منذ شهور عديدة، وكان قد نذر هذا اليوم له، سوف يمارس المثل الذي سمع معشر البشر يردّدونه على الدوام، ولم يكونوا يمارسونه في الواقع، لكنّه لن يكون مِثلهم، لن يكرّر مقولات بدون فعل. هم، معشر الحمير، بعيدون بالمطلق عن الكلام النظري الذي لا يترجم إلى فعل، لذلك قرّر أن يتمثّل أمثال البشر ويمارسها، وما ينوي عليه اليوم هو تطبيق المثل القائل: يا رايح، كتّر ملايح. سوف يترك خلفه اليوم أعمالاً مليحة، يجعل صاحبه يتذكّره بالخير، ويمتنع عن لعنه في غيابه، كما لن ينفث غازات أمعائه أمامه، ولن يقذف برازه مقابل تصرّفات

جمعة التي لا تروقه. سوف يطبّق مثلاً آخر، ويفارقه برائحة طيّبة.

وصل جمعة أخيرًا قريبًا من البيت، بدا له من بعيد بناءً هزيلاً كما لو أنّه مشادٌ من ألواح الكرتون الهشّة، استغرب كيف كان يراه سابقًا مثل قصرٍ يتربّع على الأرض فيجعلها تركع إجلالاً له. هل كان وهمًا ذاكَ الجمال الذي غلّفه زمانًا؟ هل حصيلة حياته الماضية، وهو يلهث خلف حلمه، يهدر وقته، وشبابه وقواه، هو هذا الشيء الذي ظنّه بالخطأ بيتًا سوف يهديه إلى جميلة المختبئة في ثنيات ذاكرته؟ لم يعد يعرف أين هي جميلة بالضبط، ولا كيف يجعلها تسمع نجواه وهو يناديها فتتمنّع عن الحضور حتى في خيالاته؟ أين الجمال الذي كان يصطاده ويخبّئه في أحلامه، ليأتي كلّ يوم، يسقي جدرانه به؟ أين الحكايات التي كان يحكيها في ساحات صمته وهو منهمك في عمله حدّ التعب؟ أين الحياة الضاجّة التي عمّر غرف البيت بها، وشغل الساعات والأيّام بأحداثها؟ بل أين هو من الحياة التي أدار لها ظهره، ليتوحّد مع حياة أخرى يعيشها في وهمه، حتى نسي كيف يعيش مع أبناء جنسه؟ سنوات مرّت وهو بعيد عن الناس، رفيقه الوحيد هذا الحمار الذي لن يكون أكثر من حمار لم يتدخّل في حياته، ويجعلها تتشكّل بطريقة أخرى. بدأ يشعر بالضيق والحنق على نفسه، أخذ الإحساس باللاجدوى من ماضيه وراهنه يأكله، يلحّ عليه شعور بضرورة تحطيم شيء ما، شيء يقف بينه وبين نفسه التي ضيّعها لا يعرف منذ متى.

أمام البيت، كانت كومة قطع الخشب التي جلبها من أجل السقف تركن أمامه، كره أن يقترب منها، بل نفر من ملامستها، وربّما أكثر من ذلك، تهيّب محنة التعامل معها والاشتغال بها،

بدت له كأنّها شفرات حادّة من الصوّان العصيّ على المسامير، إن لامسها سوف تدمي له يديه، سوف تجعله ينزف دمه وأعماقه. ابتعد عنها جمعة بهلع ونفور، ترك الحمار من دون أن يقيّده، وشرع يمشي باتّجاه الحِرج. تغلغل بين أشجاره، ومضى في عتمته، ينصت إلى أصوات الكائنات المختبئة في أمكنة لا يراها، لكن من المؤكّد أنّها تراه من مكامنها.

كان ينكمش على نفسه تحت سياط وحشته. هام طويلاً بين أشجار الحرج، جلس على جذع إحدى الشجرات، ربّما نام على الأرض لفترة، ثم استيقظ فجأة ولم يعرف أين هو، ولا من أين جاء، أو كيف سيخرج من هذا الدغل. تكثّفت مشاعره أكثر، شعر بأنّ عليه أن يفعل شيئًا لن يهدأ له بال من دونه. أسرع ليخرج من الحِرْج، لم يذكر الحمار، كان سيره على قدميه أمرًا يساعده في تفاعله مع حالته الملحّة هذه. عندما خرج من هذه الغابة الصغيرة، تفاجأ بأنّ الغروب بدأ يخيّم على الجوّ، وأنّ وقتًا طويلاً مرّ وهو لم يفعل شيئًا. لن يهدأ باله قبل أن يرى جميلة، قبل أن يعرف عنها شيئًا، قبل أن يتعرّف إلى جميلة اليوم، لا بدّ من الذهاب إليها، بل لا بدّ من مواجهة والدها، هو لم يطلبها منه إلى اليوم، كيف استكان إلى تهديده من دون أن يواجهه؟ اندفع جمعة إلى بيت أبو العزّ عازمًا على أن يقف مقابله موقف الندّ للندّ، بلى، هذا هو القرار السليم الذي عليه تنفيذه. لن يتراجع، ولن يسمح لعزيمته أن تبرد بعد أن وصل إلى هذه الدرجة من الحماس. جمعة بحاجة إلى قرار كهذا قبل أن يفقد نفسه إذا ما استسلم لحالة الضياع التي ينزلق فيها.

كلّما اقترب من الحيّ، كان اضطرابه يتفاقم، فيعود إلى

تشجيع نفسه وشحذ عزيمته، برغم ذلك كانت ضربات قلبه تزداد حدّة، وتنفّسه يضطرب، تستبدّ به حالة الخوف والارتباك، فالمواجهة باتت قريبة. هو يعلم أنّه مقبل على معركة حياته، كيف يمكنه ألّا يخاف أمام مواجهة كهذه وهو لا يعلم شيئًا عن جميلة؟ ماذا لو خذلته وقالت إنّها لا تريده؟ ماذا لو أنّها رفضت أن تعارض قرار والدها؟ بل ماذا لو كانت نسيته ولم يعد يعني شيئًا بالنسبة لها؟ احتمالات كثيرة أخذت تنبثق في تفكيره كلّما اقترب أكثر، إلى أن وصل إلى مشارف الحيّ، قريبًا من بيت أبو العزّ، حيث أتاه من الجهة الأخرى، من جهة الحِرج الذي يتاخمه.

لفته حشد الناس القريب من البيت، والحركة المضطربة، والأعداد المتزايدة التي تتجمّع أمام البيت. توقّف قريبًا، متّخذًا لنفسه زاوية يستطيع أن يراقب من خلالها ما يجري من دون أن يلفت الأنظار إليه. أخذته المفاجأة، وهاله منظر الناس الذين يحتشدون. لا بدّ أنّ أمرًا خطيرًا يحدث، هل مات أبو العزّ؟ سؤال تجمّد في حلقه، وراح يترقّب ما سيحصل، علّ شيئًا يرشح من بين هذه الحشود التي تزيدها العتمة المنهمرة كثافة. لم يعد يستطيع تمييز الوجوه بعد أن هبط المساء، واختلطت الأصوات، والصراخ راح يعلو.

كانت جميلة قد دخلت البيت مسرعة، تضمّ إلى صدرها شيئًا على شكل صرّة، انسلّت بخفّة اللصّ إلى داخل البيت أمام ذهول أمّها وإخوتها الذين كانوا يجلسون أمام البيت، هاربين من الرطوبة إلى النسمات المسائيّة. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، وجميلة التي رجعت من العمل قبل موعدها، كانت تعاني من اضطراب شديد في مزاجها، بعد عراكها الصباحي مع منال، ما

توّج إنهاك روحها بعد ليل طويل سابق أمضته بالأرق، وتقليب مراحل حياتها في بالها، فبدت عليها وهي تدخل البيت ظهرًا علامات الإعياء، بل المرض. كانت شاحبة، شاردة النظرات، فاقدة شهيّتها للطعام بصورة استثنائيّة، وهذا كان من أهمّ العلامات الطارئة التي تؤكّد أنّها ليست على ما يرام، ما جعل أمّها تصمت، وتجترّ حزنها على ابنتها التي تتردّى أحوالها بشكل سريع، وهي تقف عاجزة عن فعل أيّ شيء يساعدها.

نامت جميلة منذ عودتها، نامت بعمق برغم صخب البيت، وضجيج إخوتها، وضوضاء الحيّ، وصراخ الأطفال الذين يلعبون في الزقاق، وفي محيط البيت. نامت ساعات عديدة، واستيقظت عند الغروب، كانت أكثر معافاة، تتّقد عيناها ببريق غير مسبوق، غسلت وجهها بعد استيقاظها، سرّحت شعرها، لبست ثيابًا أخرى، بدت كما لو أنّها خرجت من نفسها. نشاط وهمّة غير مألوفين لديها لفتا انتباه أمّها، شعرت تلك الأخرى بومضة سعادة غادرتها منذ زمن بعيد. فرحت بعد أن نسيت كيف يكون الفرح، فخافت من فرحها. لم تسأل جميلة عن شيء، وجميلة لم تكلّم أحدًا، بدت تزداد تألّقًا في فضاء يغلّفها لا يستطيع أحد اختراقه. رتّبت زاوية في الغرفة، مدّت عليها فراشها الذي تطويه عندما تستيقظ، ووضعت عليه ملاءة جديدة، في غير وقت تغيير الملاءات، الذي كان يحصل مرّة كلّ أسبوعين، حيث تقوم أمّها بتغيير الملاءات تحضيرًا لطقس الغسيل الدوري، الذي يتطلّب نهارًا كاملاً من العمل الدؤوب. كوّمت جميلة الملاءات المستعملة، وأخذتها إلى القفّة الموضوعة خلف باب المطبخ، رمتها فيها وعادت تمسّد الفراش، وتحوطه بالوسائد. أمّها المحتارة بهذا الانقلاب المفاجئ عند ابنتها التي

أنهكت روحها عذابات لم تستطع أن تساعدها بالشفاء منها، شعرت بالسعادة تتغلغل في كيانها بعد سنين الهمّ الطويلة التي عاشتها، راحت تحمد الربّ في أعماقها على كرمه، وعدم نسيانه لها، فهذه أولى تباشير الشفاء لدى ابنتها. راحت تحلم بصمت، تستعجل المراحل الباقية، تتمادى في حلمها وهي تتخيّل جميلة عروسًا، وأنّ الله سيرسل لها ابن الحلال اللائق بها، سوف يمنحها السعادة أخيرًا ويشفيها من عذاباتها، وسوف تكون أمًّا. لم يفت الوقت بعد، جميلة يمكنها أن تنجب، لو أنّها عانس، بإمكانها أن تنجب، ما زالت في الثامنة والعشرين، هي نفسها، دنّورة أنجبت عندما كانت بعمر جميلة الآن أو أكبر قليلاً، راحت تبتسم في سرّها وتشكر الله وهي تتنهّد: يا الله! ما أكرمك.

غادرت جميلة البيت، من دون أن تكلّم أحدًا، التفّت خلفه، ودخلت الزقاق الخلفي، وتلاشت خطواتها، مخلّفة وراءها تساؤلاً في بال أمّها: إلى أين يمكن أن تذهب وهي التي قاطعت الناس منذ سنين؟ حتى الجيران لم تكن تقابلهم، إلى أين يمكن أن تذهب؟ لم تكن أمّها تجرؤ على الطلب منها بأن ترافقها إلى أيّ مكان. كانت تعرف أنّ طلبًا أقلّ من هذا بكثير يمكن أن يثير غضبها، في البداية كانت تصرخ: قلت لك لا أريد أن أرى أحدًا. لماذا تطلبين منّي الطلب نفسه، أما آن لك أن تفهمي؟ ثم شيئًا فشيئًا راحت تهمد، وتصمت، إلى أن دخلت مع السنين في حالة العزلة الكاملة، والصمت المستبدّ.

عاود القلق دنّورة مرّة أخرى، وتحت سطوة قلقها، داهمتها صورة الشيخ يحيى، اضطربت، لماذا ذكراه تقتحم سعادتها؟ هي لا تريد أن تتذكّره، لكنّ حديث أبو العزّ في الليلة الفائتة هجم بشراسة

إلى تفكيرها. كيف يمكن أن ترضى لابنتها بزيجة مثلها؟ هل هذا هو المصير الوحيد الذي ينتظرها، أن تكون زوجة ثالثة، كما كان بين أولئك الزوجات نساء أخريات، طلّقهنّ الشيخ يحيى حتى لا يقف الشرع حائلاً بينه وبين الزواج من نساء حرّضن شهوته؟ أيمكن أن ترهن جميلة حياتها لخدمة عجوز تجاوز السبعين، كلّ يوم يفيق على شكوى جديدة؟ هل كتب على هذه المسكينة أن تكابد الهمّ والشقاء طوال عمرها؟ يجب أن ترفع الصوت عاليًا وتقول لزوجها: لا. لن تزوّج ابنتها من هذا العجوز الذي لا يرتوي من النساء. يجب أن تحمي جميلة حتى لو بقيت طوال عمرها من دون زواج. وضاق صدر دنّورة، خرجت إلى الفناء وجلست على بساطٍ ممدود على الأرض، أمام أولادها الباقين، المشغولين كلّ بما يخصّه، وبينما هي على هذه الحالة، دخلت جميلة بتلك الصرّة المضمومة إلى صدرها، أوصدت الباب عليها، واختفت في عتمة البيت، لم تشعل النور، لم يسمع لها صوت بعد دخولها.

لم تلحق دنّورة أن تفهم ما يحصل، حتى سمعت صراخًا يقترب، صوت امرأة تبكي وتشتم وتهدّد، يقترب الصوت أكثر، ودنّورة تغرق في ذهولها. أولادها حولها جامدون يترقّبون مثلها. وصلت المرأة حافية القدمين، مكشوفة الرأس، شاحبة يتصبّب عرقها. بدأ الناس يتجمّعون تجذبهم أصوات المرأة التي وصلت أخيرًا وأمسكت دنّورة من ثوبها فوق صدرها وأخذت تشدّها بقوّة وتصرخ: أين راحت بابني بنتك المجنونة؟ روحي هاته لي قبل أن تفعل به شيئًا. طرشت؟ لماذا تتركون هذه المجنونة تسرح بين الناس؟ بنتك سرقت لي ابني، لم يرضع من صدري بعد غير يومين، روحي اجلبيه. ماذا تنتظرين؟ والله إذا حدث معه شيء

سأهدّ الدنيا كلّها فوق رؤوسكم. يا الله! أريد ابني ألا تسمعين؟ طرشت؟

كانت المرأة تصرخ وتبكي وتشدّ شعرها تارة، وشعر دنّورة التي سحبت لها منديلها عن رأسها تارة أخرى، والناس يتوافدون. دبّ الحماس بينهم، كان صراخ المرأة النفساء يحطّم قلوبهم، ويحقنهم بالحماس حتى اندفعوا إلى الباب خلف دنّورة التي كانت تطرق على الباب وتبكي، تناجي ابنتها كي تفتح الباب، فيرتدّ إليها صدى توسّلاتها، ليس في الداخل سوى الصمت والعتمة.

أخذ الرجال يدفعون الباب، الذي لم يحتمل أكثر من ركلتين بقدم أحدهم، حتى انخلع وعبره نور ضعيف رشح من الخارج. كانت جميلة تجلس على الفراش ذي الملاءات النظيفة المرتّبة، بين الوسائد التي جمعتها من زوايا البيت، تحضن الصغير، تضمّه إلى صدرها، وتمنحه ثديها يرضعه، والصغير يمصّ حلمة الثدي كما لو كان ثدي أمّه. كانت جميلة تبدو كأنّ نورًا يشعّ من وجهها، في حالة من النشوة لا يمكن إدراكها، كأنّها تركن إلى لحن يأتيها، من خلف المسافات، من السماء، من الأفق، من البحر القريب من بيتها. كانت متوحّدة مع الكون، غائبة عن ضجيج الحياة حولها، لم تكن تسمع الصراخ، ولا التوسّلات، ولا الخبط على الباب. بدت جميلة مثل راهبة أمام مذبح الربّ، تدخل الملكوت بصلاتها الخاصّة، لم تلتفت إلى الجمع الذي اقتحم الغرفة، لم تسمع تهديد الأمّ الملهوفة، لم تنتبه وتهوي من عالمها إلّا عندما امتدّت يدان وسحبتا الرضيع من بين يديها، فانكشف نهد ينتفض هلعًا تحت نور شاحب يتسلّل من بين الظلال المخيّمة في الغرفة. انتشلت الأمّ وليدها وهرعت راكضة تضمّه بشدّة إلى صدرها كأنّها تخاف من أن

تنقضّ تلك المجنونة عليها وتنشله منها مرّة أخرى.

أفاقت جميلة من ذهولها، فردت يديها، رفعتهما عاليًا وهي تتطلّع باستغراب إليهما، لا تفهم أنّ يديها خاليتان، لا تصدّق أنّ طفلها الذي كانت ترضعه تبدّد كالبخار ولم يبقَ مكانه غير رائحة تشمّها كقطّة مذعورة، وراحت تشهق باختناق، تصدر أصواتًا غريبة. تتداخل الأصوات، تتشنّج حنجرتها، تختنق بدموع تنهمر في داخلها، ثم راحت تموء، يرتفع صوت موائها، تحوّل المواء إلى شهقات مذبوحة، صار صدرها يعلو ويهبط بإيقاع سريع، تجول بنظراتها المفعمة بالخوف والرجاء على الوجوه حولها. بدت كمن يستغيث وهو يغرق في مستنقع من المياه الآسنة والأوحال، رفعت يديها عاليًا تلوّح، والحشد مذهول أمامها. هبّت واقفة تصرخ، كان صراخها يشقّ أرجاء الكون، باعدت الجموع بقوّة وهي تندفع بينهم، انطلقت من الباب وولّت تركض في الخارج، ركضت مبتعدة باتّجاه الحِرْج، لم يعنها الليل، لم تلتفت إلى الجموع خارج البيت، اندفعت تركض وتركض وهي تصرخ، تبتعد، وتترك خلفها صدى صراخها، ودنّورة تبكي. لقد جُنّت جميلة.

لمحها جمعة، رآها تباعد الجموع، تصرخ، تبكي، بل تهيّأ له لوهلة أنّها تموء، أو تعوي. كانت تنطلق منها أصوات غريبة، كحيوان يتألّم، رأى امرأة بدينة، يتطاير شعرها الحالك في العتمة فاردًا فوقها خيمة تطير فوق رأسها، لمح خوفًا في بريق عينيها الدامعتين عندما اجتازته ولم تنتبه إليه، تركت خلفها رائحة ذعرٍ، أغمض عينيه وأخذ ينبش ذاكرته يستحضر رائحة أخرى كانت تؤرّق لياليه بعذوبتها، تحرّض رغباته المجهولة. تمرّ الآن أمامه أنثى غريبة، تمرّ ككتلة نار يتطاير منها السخام الأسود، تحرق وتحترق،

امرأة تسرق الأمومة المسروقة منها، يجتمع الحيّ ضدّها، يحرق قلوبهم صراخ المرأة الأخرى، لا أحد يسمع استغاثة تلك المطعونة في صميمها، المحرومة من أن تكون هي. جميلة تضيع من بين يديه، بل لم تلامس يديه، لم تكن إلّا حلمًا قديمًا، أمضى عمره يصطاده، وها هي الآن جميلة الحقيقيّة، التي لا يعرفها، المرأة البدينة شعثاء الشعر، التي تصرخ وتزمجر، وتبكي وتضحك، وتعوي وتنبح، تخترق غشاوة المساء كشبح أخاف الناس، كأنّها واحد من العفاريت انبثقت بينهم في غفلة فراحوا ينفرون مذعورين، مبتعدين عنها، يتعوّذون من الشيطان، يستغفرون الربّ، يتمتمون بأن لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وهي تنطلق كالسهم الأسود إلى الحِرج الذي يقتنص نصيبه من العتمة قبل أن تنتشر في الكون ليبتلعها، وتغيب.

غابت جميلة. هل هذه هي جميلة التي تبحث عنها يا جمعة؟ هل تبكي عليها الآن أم على جميلة التي تأكّد فقدانها من أعماقك منذ ذلك الزمن؟ امتلأ صدره حزنًا وغمًّا، شعر أنّ روحه صارت حطبًا يحترق فوق لهيب وجوده، وأنّ في أعماقه هوّة سحيقة يهوي إليها وتبتلعه، تسرّب اليقين من بين يديه، ألفى نفسه يقبض على السراب، وأنّ كلّ شيء صار مغلّفًا بالريبة. ها هي جميلة التي عمّرت حياته تمضي من أمامه وهو عاجز، يتفرّج مثل البقيّة. كان مشلولاً، مرّت أمامه كفكرة وتلاشت، لم يستطع أن يمدّ إليها يديه، لم يستطع أن يفرد لها حضنه، أيّ حضنٍ هذا، وأيّ حبيبة تلك؟ هذه امرأة لم يعرفها من قبل، والأخرى غابت في سراديب النسيان، وهو الآن يقف مخبولاً، يكاد لا يتعرّف على نفسه، يشلّه العجز الهائل المقيم في أعماقه. ما الذي يمكن فعله أمام حلمٍ

تحوّل في لحظة خاطفة إلى كابوس واقعي؟ هل هي المرّة الأولى التي ينتبه فيها إلى الواقع في حياته؟ أمّ أنّ الحياة تغيّرت فغيّرت الواقع معها؟ تتلاطم الأسئلة في خلده، كأمواج بحر هائج، فيتمكّن منه عجزه، ينكمش إلى أعماقه، كأنّه يتكوّر على نفسه، وينثني على طيّات زمنه المقيم كالصوّان في داخله. يصغر ويصغر حدّ الضياع في زحمة الأحداث الغريبة، تفرّ المعاني مجتمعة من بين يديه، يملأ روحه الخواء فيشعر أنّه معلّق في فراغ لزج ثقيل، يكاد يختنق، ينسحب ببطء من حيث يقبع على قارعة اليقين الأوّل الذي واجهه في حياته، مذعورًا من مواجهة يقين آخر. أين كان عندما كانت الحياة ترسم مستقبلها في كلّ لحظة، وهو يُعيد تشكيل الماضي في خياله، منتشيًا بأنّه يرسم المستقبل؟ لماذا كانت الأزمنة تُطوى في حركة الزمن، وهو يفرد الزمن على لحظته الوحيدة؟

قبل أن يتفرّق الجمع، وقبل أن تنتهي التعليقات والتأويلات، والأقاويل، كان جمعة ينسحب، يمشي بمحاذاة البحر، يلتفّ على الحيّ غائبًا عمّا حوله، يجرجر خلفه شعورًا ثقيلاً بالهزيمة. لم يكن يعرف أمام أيّ شيء يُهزم، لكنّه مهزوم حتى النخاع، تكاد ركبتاه لا تحملان جسده المتثاقل، صوت البحر عند المساء، بهمسه وصخبه المترادفين، لم يصل أذنيه، رطوبة نسيمه لم تلامس جلده، كما لم تصل إلى رئتيه المبلّلتين بدموع العجز. كان يمشي وحيدًا أكثر من أيّ يوم في ماضيه، وحيدًا حدّ البرد، تصطكّ أسنانه، ترتجف ساقاه، يميل جسده متثاقلاً فوق ساقه القصيرة، يتفاقم عرجه، يتطاير شعره تارة أمام عينيه، فيحجب الرؤية ولا يكترث جمعة، يمشي في طريق الغياب، وتارة أخرى إلى الخلف كاشفًا عن صفحة وجهه، فلا ينتبه إلى شيء حوله. يمشي جمعة بلا هدف، بلا غاية،

بلا حافز. ليس صاحيًا، وليس نائمًا. يلتفّ الطريق حول الحيّ صاعدًا في جزئه الأخير وهو يودّع البحر وجبروته، يصعد جمعة معه، يصل الطريق الرئيسي، ينحرف يسارًا ويتابع طريقًا غافلاً عن تفاصيله، كأنّ شيئًا خفيًّا يسحبه إلى مكان ما. لم ينتبه إلى نفسه إلّا وهو على حدود البحر الآخر، يهبط إلى الشاطئ الذي كان بيته الأثير في عمره الماضي. وقف على حدود المياه، كان البحر رائق المزاج، تنساب موجاته الناعمة ببطء كما لو أنّها ترخي بدلالها في حضن الخليج، وتنسحب بغنج وفتنة، مزقزقة في انسحابها المثير، لكنّ جمعة كان بعيدًا عن فتنتها، بعيدًا عن كلّ ما يشي بالهناءة والسكينة. وقف على حدود الموج، أشعل لفافته، وراح يمجّها تحت ملاءة العتمة، يستعيد نفسه في الظلام، مداريًا فداحة صورته تحت أيّ نور يعترضه. كان مرتاحًا للعتمة، فيها يغوص علّ عتمته الداخليّة تنحلّ بين ذرّاتها. مدّ ساقه متردّدًا، ثم أقدم على خوض المياه، باتّجاه صخرته التي اعتاد أن يجلس عليها وقت المغيب.
جلس هناك وراح يبحث عن الأفق، لم يكن ثمّة أفق، كانت ظلمة تتمادى بين السماء والبحر، تخفي الحدود بينهما. لم يستطع أن يستدير يسارًا، هناك أضواء واهنة تأتي من بعيد، من زوايا حارته التي تطبق ذكراها على صدره، أضواء ذلك الشقاء المقيم. لم يشعر بفداحة شقائهم فيما مضى كما يشعر بها الآن. كان سابقًا يهرب منه إلى الأحلام التي تحمله إلى عوالم أخرى مزخرفة، تشعّ بألوان عذبة، يسرح بين متاهاتها، يؤسّس لغده البعيد بين رحابها، ويعود مترعًا بالسكينة، ينام وينتظر الغد المؤجّل دائمًا، أمّا اليوم وهو يقف على حدود الواقع، تتعرّى أمامه الحياة بجرأة تصل حدّ الوقاحة، فهو لا يعرف كيف ينجو من أسئلة هبّت ثائرة من أعماقه،

كانت تقيم فيها كلّ تلك السنين الحالمة. هل مضى وقت السؤال يا جمعة؟ هل تجاوزك زمنك وذهب إلى حيث عليك القبول بأزمنة غيرك من دون أن تعترض حتى؟ ها هي جميلة تشكّل الصدمة الأولى لك، بل الصدمة الكبرى. ما الذي جعلك تقف مخبولاً عاجزًا أمام ما حدث؟ هل هي تلك المرأة الغريبة التي مرّت أمام عينيك كالشبح، وأنت تريد ألّا تصدّق عينيك؟ أم اكتشاف نفسك ومدى خواء أحلامك، وحقيقتك العارية؟

لم يبارح جمعة مكانه فوق الصخرة المحاطة بالمياه، ولم يغادر نفسه، بقي ينجرف إلى متاهات الأسئلة، فيضيع بين الشكّ واليقين، حتى سرقه النوم فنام تحت السماء. كانت المرّة الأولى التي ينام فيها خارج البيت، لكنّه نام كما لو أنّه قطع الحبال التي تلتفّ حوله وتربطه إلى العالم المحيط به. عندما استيقظ مع إطلالة الشمس الأولى، أذهله الفضاء المحيط به، لم يستوعب الحالة التي فاجأ نفسه بها، لم يعرف أين هو، وما الذي جاء به إلى هذا المكان. شعر بصفاء الجوّ، وبالرطوبة العذبة للمياه المترنّمة حوله. تطلّع إلى الأفق البعيد، وما زالت بقايا حمرة الشمس وهي تنسحب كما لو أنّها نتفٌ من أردان ثوبها. كون بهيج يحوطه، يتغلغل في كيانه كألحان عذبة توقظ شهوته للحياة، شعر أنّه في حلم جميل لا يرغب في الاستيقاظ منه، بل يرغب في الانجراف العاتي مع تيّارات رغبته التي بدأت بالصراخ، وأخذ جسده يستجيب لها، لماذا لا يستجيب حتى الانطفاء؟

انطلق كالسهم مستعجلاً الوصول إلى دلال قبل أن يفيق الألم المختبئ في مكان غامض من أعماقه، دلال هي الغاية والمرتجى، هناك سوف ينزف اشتهاء حدّ الغياب، سوف يعتصر اللذّة حدّ

الألم. دلال ليست ماضيًا ولا حاضرًا، هي الوهم والحقيقة، هي الواقع والسراب، هي الوجود المنكشف بنفسه ولنفسه، لا يملك ذاكرة تخصّها، ولا هي المستقبل الذي أنفق عمره من أجله. دلال هي اللحظة، لا قبلها ولا بعدها، هي الآن هنا وهناك. يناديها بكلّ جسده، يسابق نداءه في الوصول إليها، والشمس تنفتح الآن على الكون كلّه، هو الصباح الباكر، يوقظ الحياة من نومها، لا بدّ من الوصول قبل الشمس إليها، يحلم بأن ينسلّ قربها في سريرها الدافئ، يشمّ رائحة جسدها المغمور بكسل النوم، يفتّح براعم شهوتها قبل أن تصحو من نومها.

كان يلهث استثارة وألمًا، يستعجل الوقت، يكاد يطير في اندفاعه المثير. لم يعد يحتمل الخطوات الأخيرة. لم تستطع النسمات الباكرة أن تطفئ وهج جسده الحارق. عرقٌ حارّ ينهمر عليه من قمّة رأسه، يغسله ويتبخّر فوق جلده المتوهّج، فتفوح منه رائحة شبق تثيره أكثر. وقف أمام البيت يلتقط أنفاسه، باب الحديد مغلق، صمت فجٌّ يطبق على المكان، مدّ يده من بين قضبان الحديد، فتح الباب، قفز على الدرجات الأربع، وصل إلى الباب الداخلي، طرقه مرّة وأخرى، انتظر ولم يأتِ أحد ليفتحه، أعاد الطرق ثانية، وثالثة، راح يخبط بيديه معًا، لكنّ الباب أخرس، والداخل أكثر خرسًا. استند إلى الباب وراح يطرقه بخفوت متراخٍ تحت سيطرة الضعف الذي أخذ يتملّكه، والخيبة التي تأكله، غارتْ رغبته عميقًا، نزّت شهوته من مسامّات جلده، تهدّلت أمانيه مع تراخي ركبتيه وانهياره قاعيًا أمام الباب. خاف عندما قفزت إلى تفكيره فكرة جراثيم الموت، الجراثيم الرمّيّة التي تأكل الحديد والحجارة عندما تنسحب الحياة من بين زواياهما، وهذا البيت

الأصمّ يبدو كأنّه يغالب غزوًا حقيقيًّا من قبلها. ها هي القطط تتقافز في حديقة البيت كما لو أنّ لديها عيدًا، لم تكن تجرؤ على الاقتراب منه قبل اليوم، ما الذي جعلها تستبيحه بالطريقة العابثة هذه؟ لا بدّ أنّ الهجران اخترقه، الهجران يجرّ وراءه الموت، تملّكه الرعب عندما خطر بباله احتمال أن تكون الجراثيم الرمّيّة قد تعلّقت بمسامّات جلده من دون أن ينتبه، وهي الآن تنتظر فرصة أن تتكاثر وتقوم بغزوها إذا ما سنحت لها الفرصة. شعر بأنّه أمام عدوٍّ مخفيٍّ يتربّص به ويهدّد حياته واستقراره. سيطر عليه هذا الهاجس، فقام هلعًا وراح يركض كالممسوس بين الأشخاص الذين نادتهم الحياة إلى يوم جديد، وكانت الشوارع قد بدأت باستقبال الحركة التي راحت تدبّ كالعادة فيها، والناس كالنمل يسعون في كلّ الجهات. المحلّات بدأت تفتح أبوابها، السيّارات تنطلق إلى أهدافها، باصات النقل الداخلي تجاهد كي تلتقط موطئًا لدواليبها بحجمها الذي يفوق استيعاب الشوارع، وسيّارات الزبالة التي لم تلفت جمعة رائحتها عندما تباشر بتفريغ الحاويات، مصدرة ذاك الهدير القبيح، كلّ هذه الأشياء كانت خارج مجال انتباهه، لم يكن يرى أو يسمع ولا حتى يشمّ ما يشي بالحياة حوله. أحاسيسه مجتمعة كانت تلتفّ حول الهاجس الوحيد الذي يلعب بسكينته، جراثيم الموت، حتى إنّه أحسّ بالحمّى تمشي في بدنه كالسمّ، وبدأت أسنانه تصطكّ، وعضلات وجهه تتقلّص بفوضى تجعله يبدو مبتسمًا حينًا، ومكشّرًا حينًا آخر. لم يكن يعرف إلى أين يمضي، كان يركض فقط من دون هدف، لم ينتبه إلى نفسه إلّا وهو يدخل الحيّ، كان فيه تجمّع مثير، الرجال يتوافدون إلى الساحة من أرجاء الحيّ، كلّ واحد لديه حكاية مختلفة، والسؤال الوحيد يلوب على

الألسنة والوجوه: أين ذهبوا؟ من قام بهذا الفعل الخائن؟ والكلّ يتّهم أحد الرجال الذي كان يحلف الأيمان الغليظة، ولا أحد يصدّقه، بأنّه رأى بينما كان عائدًا ليلاً من سهرته في بيت أحد أقربائه على بعد خمسة كيلومترات من حيّهم، رأى قطيعًا منطلقًا على الطريق المحاذي للبحر، كلّه حمير وبغال، وأنّ جنّيّة منبوشة الشعر تركض معهم، وتصرخ بأصوات غريبة، كانت جنّيّة على شكل امرأة، تعوي، يختلط عواؤها مع وقع الحوافر على الأرض. كان الرجل يحاول جاهدًا أن يجد أحدًا يصدّقه، والكلّ يتّهمه بالكذب والجنون، لكنّ الجميع يتساءل: أين ذهبت البهائم كلّها في ليلة واحدة؟

تذكّر جمعة حماره، وقف مخبولاً كأنّه تركه منذ زمن طويل، فنسي في أيّ بقعة أفلته. أُصيبت ذاكرته بالشلل، كيف يمكن أن يتذكّر تحت سطوة كلّ هذه الأحداث الكثيفة المثيرة التي مرّ بها؟ كان مفصولاً عن نفسه، يمشي إلى أهداف مضمرة من دون أن يفكّر بجدواها، يترك العنان لساقيه تحملانه إلى حيث تشاءان، من دون أن يتدخّل أو يعترض. مشى في دربه، يفكّر بحماره، فيكتشف أنّه غارق بمحيطات من الأفكار المضطربة. وصل قريبًا من البيت الذي لم يكمله، ولم يعمّر له سقفًا. تذكّر يوم أمس، كأنّه حدث في غابر الزمان، حدث في يوم من الأيّام أن كان يأتي إلى هنا، يربط حماره قريبًا منه، يبدأ بالعمل على شيء غريب، شيء يفتقد إلى المعنى، شيء تعلّق وجوده به. سنوات مرّت، شهور وأسابيع وأيّام، ساعات ودقائق، هي عمره مجتمعة، أنفقه سيرًا على أقدامه، يجرّ الحمار وراءه. ترى كم من الأميال قطع في رحلة البحث عن المعنى؟ تعلّق وجوده على أجنحة حلمٍ سيّئ الإخراج، تلاعب به

طيف نسجه في خياله ولم يسمح للزمن بالمرور عليه، هل كان يؤسّس من أجل جميلة، أم من أجله هو؟ هل كانت جميلة حلمه، أم كان حلمه أن يلاقي نفسه في فكرة جميلة؟ كان هذا زمانًا، ربّما كانت رؤيا، حلم يقظة، لكنّه يتذكّر أنّ الحمار كان هنا، لا! هو لا يتذكّر، هو يتهيّأ له، تختلط عليه الأمور، ليصحو الآن ويرى أنّ وجوده كلّه خاضع للارتياب، ضيّع الحقائق كلّها، بل فقد كلّ روابطه بالعالم من حوله. كم هو الآن غريب ومستغرب؟ كم هو ضائع ومضطرب الوعي؟ هل هذا الشكل القبيح من صنع يديه؟ التفت يسارًا فلفته كيس العلف متروكًا وحده على الأرض، لاح له أبو طافش خيالاً يهيم في الفراغ. فرك عينيه وفتحهما على اتّساعهما، لقد تركه هنا بالأمس، هو شبه واثق من ذلك، بدأت الحقائق تنجلي أمامه، لقد تركه بالتأكيد، ربّما نسي أن يربطه، لكن أين ذهب أبو طافش؟ هل يصدّق ادّعاء ذلك الرجل المجنون؟ هل يعقل أن يتّفق الحمير والبغال جميعًا ويغادروا في وقتٍ واحد؟ واندفع يركض حول البيت وينادي، يصرخ بأعلى صوته على حماره، فيرتدّ صوته بعد أن يصطدم بجذوع أشجار الحِرْج، يدور حول البيت، يدور حول نفسه، يقفز في الهواء كالملسوع: حتى أنت يا أبو طافش؟ كنت رفيقي الوحيد. لماذا تركتني ورحت؟ كنت الوحيد برهانًا على حقيقتي. لماذا؟ لماذا؟

كانت عدّة الشغل على حالها بجانب كومة الأخشاب التي تنتظر أن تصير سقفًا، انقضّ على المطرقة وراح ينهال على الجدران بها، يدقّها بشراسة وقسوة، حتى أخذت الجدران تتهاوى تحت ضرباتها، ساوى الجدران بالأرض، تفتّت الإسمنت متناثرًا تحت ضربات المطرقة، وانخمصت علب المياه الغازيّة الملتصقة

بعضها مع البعض بالغراء الذي لم يكن يبخل به عليها من أجل أن يصنّع جدرانًا متينة، لم يترك المطرقة إلّا بعد أن تحوّل البيت إلى كومة من الركام، رمى المطرقة بعيدًا على طول يده، كان يلهث، يوشك على الاختناق، وقف مخبولاً أمام الركام، تأمّله صامتًا، ثم دخل في نوبة من الضحك الهيستيري، ضحك، وضحك، وضحك. ثم ارتمى فوق تلّة البقايا هامدًا، وربّما نام.

اللاذقيّة ٢٢/ ٤/ ٢٠١١

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تصوّر هذه الرواية عالمًا يتطوّر خارج «المألوف الحضاري». فلا شيء في مكانه. بدءًا من الصبي «جمعة» الذي «خرج إلى الوجود عن طريق قفاه» وظلّ يجرّ وراءه عاهة لن تزول أبدًا. وانتهاءً بالعيش وسط أكوام الزبالة واستنشاق رائحة الخمير. مرورًا بلقاءات جنسيّة قذرة تتحقّق خارج استيهامات الحلم ولذّاته.
إلاّ أنّ القذارة في هذه الرواية ليست نقيضًا للنظافة التي تميّز الكائنات والأشياء؛ إنّها شيء آخر غير ما يؤذي العين: إنّها وثيقة الصلة بكلّ ما يشوّش على النظام والهويّة والوجود السويّ للنفس والجسد والحلم.

سوسن حسن: طبيبة وروائيّة سوريّة. صدر لها: «حرير الظلام» و«ألف ليلة في ليلة».


ISBN: 978-9953-89-246-7

